رواية

محمد طارق

لن تنجو من الحياة سالمًا

ساحر الكتب للنشر والتوزيع

المقدمة

عزيزي القارئ: إليك العمل التاسع من أعمالي الأدبية، لقد استمتعتَ بأعمالي السابقة، وبالتأكيد ستقضي وقتًا ممتعًا مع هذا العمل أيضًا. كعادتي أنا أعرف كيف أكتب بطريقةٍ تُجبرك على شراء وانتظار أعمالي، وأنت تعرف أنك ستجد نفسك بين شخصيات أعمالي، لذلك مهما كانت مقدماتي مزعجة لك، فأنت اعتدت مني على المصداقيّة والوضوح، وأنا اعتدت منك على التقبّل والرضاء النفسي بما يدور في هذه المقدمات والأعمال. صدقني قد أبدو عدوانيًّا في مقدمات أعمالي، لكن صدقني مع الوقت ستكتشف أن علاقتنا واحدة من أهم العلاقات التي مرت عليك في حياتك، لأنك ببساطة تعرف أنني كاتب نرجسي يرى أعماله قيِّمة بما يكفي ليُصدرها في مواعيد مختلفة عن محافل المعارض والمواعيد المعتادة التي تصدر فيها كل الأعمال الأدبية، بينما أنت ترى نفسك مميزًا لأنك تقرأ لكاتب يرى أن عملك المفضل يستحق أن يكون مميزًا في كل تفاصيله، سواء مقدماته، طريقة كتابته، أو حتى ميعاد إصداره، علاقة واضحة وصريحة نادرًا ما ستجدها في حياتك العادية.

ما أعرفه أن هذا العمل استهلك طاقتي ومجهودي، وأنت تعرف كل المعرفة أن أعمالي لا تقدر بثمن، لذلك ستعتني

به جيدًا وتحافظ عليه، ولن تعطيه هدية لصديقك المهمل الذي يعامل الكتب معاملة قذرة. لا تشترِ الكتاب لتظهر أمام الناس أنك مثقف، فهذه رواية للتسلية لن تجد فيها معلومات قيمة أو تحكي قصصًا تاريخية حقيقية، هنا كتب شخصيات واقعية من قلب الشارع، فلا تظن أنك ستجد قصة كفاح بيل جيست أو أفكار إيلون ماسك، ولن تجد المغزى من القصة أن البطل رسب في الثانوية العامة، بينما أصدقاؤه قد نجحوا، وهو الآن مدير عليهم في شركاته الخاصة، كل هذا الهراء لن تجده في هذا العمل، فأرجوك اعتنِ بالرواية، وإياك أن تكتب عليها إهداءً أو كلمات عاطفية لزجة لشخصك المفضل، فقد يغادرك وحينها ستكون خسرت الحفاظ على نظافة روايتك المفضلة، وخسرت شخصك المفضل الذي لم يُقدّر أنك قدمت له هذا العمل القيّم.

استمتع بما تقرأ، فهذا العمل كُتب من أجل أن تجد نفسك بين شخصيات الرواية، وكتبته من أجل تسديد القروض والفواتير التي لا غنى عنها في حياتي الخاصة.

دمت بخير!

الفصل الأول

تمهيد

رجلٌ بسيط الطبع كبساطة أهل حي «العزبة»، تاجرٌ كبير له سيط وذاع وينال كل الاحترام والتقدير من الجيران، سمعته الطيبة، الخير المعروف عنه، البيوت المسؤول عنها ويتكفل بها، حفلات الزفاف الجماعي للفقراء التي يقيمها كل عام، الشرف والأمانة والحكمة التي تجعل سُكان الحي يلجأون له في فض نزاعاتهم وخلافاتهم، حتى رجال الأمن يُقدّرونه ويحترمون وجوده، فلا يستطيعون القبض على أي خارج عن القانون إلا بعد اللجوء له، تجنُّبه التدخل في الأمور السياسية، عدم خوضه لأي صراع ديني، بل العمل على استقرار الهدوء بين سكان الحي، وعدم سعيه للحصول على مقعد برلماني أو امتيازات سياسية- كلها أشياء تجعل لـ«عائلة الحاج خورشيد» هيبة ومكانة عظيمة بين الناس.

فبراير الأسود

اليوم الأسود الذي لن يُنسى في ذكرى كل سكان الحي، يوم وفاة «الحاج خورشيد»، كانت جنازته مَهيبة، خرج لها كل كبير وصغير، غني وفقير، حتى منافسيه في «تجارة الأخشاب» كانوا أول الحاضرين، خبر الوفاة كان بمثابة

الصاعقة على الجميع، فلم يكن «الحاج خورشيد» يشكي تعبًا أو مرضًا، على العكس رغم شيخوخة عمره الذي تجاوز السبعين، إلا أنه كان مُحافظًا على صحته قدر المستطاع، حتى غرز الطيبة والخير في نفوس كل الذين يعرفونه، لك أن تتخيل أن جنازة مَهيبة يمشي فيها الآلف لا يذكرون ولا يدعون له إلا بالخير، الرجال قبل النساء يبكون قهرًا على رحيله وكأنه بطل شعبي، ومن قال أن الأبطال الحقيقيون يحتاجون لمناصب أو منابر للتحدث وكسب ود وحب الناس؟ البطل لا يحتاج لسلطة أو نفوذ ليصبح بطلًا، البطل لا يتحدث عن إنجازاته، لا يفرض حُب الناس، إنما يكتسبه، ولقد كان «الحاج خورشيد» بطلًا حقيقيًّا، لكن في الكواليس ثمة هزائم أيضًا، لتكون بطلاً لا بُدَّ أن تنهزم كثيرًا، أكثر مما تظن وتستوعب، فلا نجمة تسطع إلا وانفجرت في الماضي، ولا قمر يضيء الطريق إلا ويُخبِّئ وجهًا كئيبًا أشد ظلمًا وسوادًا، حتى أشد المحاربين كانت في أجسادهم جروحًا لا ترى.

فتح الوصية

بعد مراسم دفن وعزاء مهيبة، وبينما استعد أبناء الحاج خورشيد لمقابلة المُحامي لفتح وصية أبيهم، ظل زين أصغر أولاده يجلس في غرفة الأب، يتأمل صورته وتفاصيل

غرفته، كانت هذه الغرفة مُحرّمة على الجميع، فلم يكن مسموحًا لأي شخصٍ دخول هذه الغرفة إلا في حضور أبيهم، ومن يحاول الاقتراب منها حتى؛ قد ينال أشد عقابٍ مُمكن، الرجل اللين طيب القلب كانت له قواعد وقوانين صارمة استطاع بها فرض السيطرة على عائلته. زين هو واحد من الذين عانوا كثيرًا من هذه القوانين والقواعد المنزلية، لقد فُرض عليه منذ طفولته العمل مع والده، أجبره على ترك المدرسة حتى يتفرغ تمامًا للتجارة، الإجبار كان منطقيًّا، فـ زين لم يفلح في سنواته الأولى في الدراسة، بل كان كثير الهروب من المدرسة، حتى الأيام التي يذهب فيها إلى هناك يعود بالكثير من المشكلات لوالده، حتى في أيام المراهقة كان أكثر إرهاقًا للحاج؛ عرف عنه حُب السهرات الليلية والعلاقات المشبوهة، ولم تفلح محاولاته أبيه في جمح هذا الطيش الذي أساء كثيرًا لهم، بل كان يعلم أهل الحي كم التوتر الواضح في علاقتهما، حتى في لحظات الوداع الأخير تشعر وكأنه يسير في جنازة رجل غريب عنه.

-زين، من سمح لك بالدخول إلى هنا؟

ضحك بسخريةٍ وتساءل متعجبًا:

«سمح لي بالدخول! هل كلفك أبوك بالحفاظ على قوانينه القديمة؟

تنهد طاهر:

«هذا ليس الوقت المناسب للخناق، المحامي يريدنا في مكتبه حالًا لأمرٍ طارئ، هل تنوي الذهاب معنا أم ستبقى هنا؟».

«أمر طارئ في هذه الليلة! ماذا حدث؟ هل استيقظ أبوك من مدفنه؟».

اقترب طاهر من زين وقال وهو يكتم غضبه:

«أرجو ألا تختبر قوة صبري وتحملي لك».

وفي اللحظة المناسبة وقبل أن تبدأ حالة الشد والجذب قاطعتهما «سيدرا»:

«كفاكما شجارًا، تأخرنا على المحامي».

-أختك الأصغر منك يمكنها إدارة المنزل أفضل منك يا طاهر.

خرج الثلاثة من الغرفة. في الصالة كانت زوجة طاهر وابنته الوحيدة «سلمى»، كذلك «ياسر» زوج «سيدرا»، ورودينا أختهم الرابعة.

نظر زين لهم باستحقار وسأل:

«هل طلب المحامي لقاء كل هؤلاء؟».

خرج الجميع من المنزل وتظاهروا بعدم سماع سؤال زين، لقد اعتادوا على مثل هذه الحماقات منه، والرد عليه قد يكلفهم الإهانة لا محالة، فـ زين سليط اللسان مع الجميع عدا طاهر الذي وبالطبع يعرف كيف يضعه عند حده.

وصلت العائلة إلى مكتب المحامي، وفي الاستقبال طلبت الموظفة دخول الورثة فقط، حينها نظر زين لـ زوج «سيدرا» وقال:

«اهدأ، ستنال نصيب زوجتك في الميراث».

رد ياسر غاضبًا موجهًا كلماته لطاهر:

«لقد طال الصبر على هذا الأحمق».

اقترب زين من زوج سيدرا وشد قميصه:

«لن يهمني المكان الذي نحن فيه، سأنال منك».

هنا كان عليّ التدخل فورًا؛ خرجت من مكتبي وقلت بصوتي القوي:

«عائلة خورشيد التزموا الاحترام! أنتم في مكتب أكبر محامي في مصر، أنتم في مكتب «آدم عطية». جميل، أحب هذا الصمت، بعد قليل سأسمح بدخول أبناء الحاج خورشيد

فقط، أما رفقاؤهم فيمكنهم انتظارنا هنا أو العودة للمنزل».

رأيت في عيني ياسر شيئًا من الاعتراض، فأكدت قراري عليه:

«يمكنك الانتظار أو العودة للمنزل».

عُدت للمكتب وتركتهم يتشاورون أمرهم، هذه العائلة عبء كبير عليّ، هم لا يحبون وجودي بينهم وأعرف وأومن بهذا، لقد فُرضت عليهم، كالقوانين والقواعد التي فرضها الحاج خورشيد، كثيرًا حاولوا التمرد عليّ خصوصًا زين أصغرهم، في الفترة الأولى كنت في حماية والدهم، ونظرًا لتقارب السن بيني وبينهم فكان من المنطقي أن أعيش فترة تحت هذه الحماية، لكن مع مرور الوقت بدأت تعطيني الحياة فرصًا وأحداثًا جعلتني أحمي نفسي بأخطائهم وأسرارهم وملفات القضايا التي أحتفظ بها.

طاهر الأكثر هدوءًا بينهم، أكبر إخوته وأكثرهم حكمةً وذكاءً، الذراع الأيمن لوالده، المسؤول عن قسم التصدير والاستيراد، يعرفه أغلب التجار المحليين والدوليين، يحترمونه ويقدرونه ويتعاملون معه كما يتعاملون مع والده الحاج خورشيد. طاهر بالنسبة لوالده كان السند والعون والرجل الذي يُعتمد عليه. ظاهريًّا تبدو العلاقة بينهما في قمة التفاهم والاحترام، لكن في الخفاء كان ثمة خلافات

بينهما لأسبابٍ عملية واجتماعية.

رودينا هي الابنة الرابعة لخورشيد، روائية مهوسة بالفن، تقضي أغلب الوقت في القراءة أو حضور الحفلات الغنائية للفرق الشبابية، علاقتها بأبيها متوترة جدًّا، لطالما رفض أسلوب حياتها وطريقاتها، ولطالما تمردت عليه وأبت الخضوع له ولقوانينه، ومع ذلك كانت تُحبه كثيرًا، فلسفة الحب الغريبة ما بين التمرد والانقلاب عليك ورفض كل الرفض أن يصابك أذى أو تشعر بالضيق والحزن.

زين صاحب الوجه البريء الذي يحمل وراءه كل مصائب وشرور العالم، لو كانت هناك شوكة قصمت ظهر البعير لكانت هي بالنسبة لوالده، أفنى شبابه في السهرات والعلاقات العابرة، صحيح يساعد والده لكنه مجبور على ذلك، يعامل إخوته بعدم احترام، ويفرض كل القوة عليهم، الابن الضال الذي يجلب لأبيه المشكلات، لكن ورغم كل الذين يشتكون من تصرفاته وحمقاته إلا أنه الوحيد الذي لا أخشى الصدام معه، لأنني ببساطة أعرف الكثير والكثير عنه.

سيدرا هي الابنة الثانية للحاج خورشيد، المُطيعة التي لا تعصي له أمرًا، هي الدلوعة لأبيها، المُربية لإخوتها، أختهم التي عوّضت رحيل أمهم، والفتاة التي حافظت على استقرار المنزل بثمة قرارت مصيرية، لكنها وفي نفس اللحظة قررت

أن تُدمر حياة شخصٍ آخر.

رفعت السماعة وأخبرت السكرتيرة أن تسمح للعائلة بالدخول.

جلس الإخوة في هدوءٍ تام، جلست أتأملهم لثوانٍ، ثم بدأت: «تعرفون أنني المُحامي الخاص بوالدكم الحاج خورشيد، أعلم أن في نفوسكم من لا يطيق النظر لوجهي، وأعلم أن أغلبكم أتى مجبرًا».

قاطعني زين: «كلنا هنا أتينا رغمًا عنا، ليس أغلبنا كما تدّعي، بل كلنا بما فينا سيدرا التي جاءت مع ياسر زوجها».

هنا وقفت سيدرا قائلة:

«هذا ليس وقتًا مناسبًا لسخافاتك يا زين».

واصلت وكأنني لم أسمع ما حدث بينهما:

«قبل أن أفتح الوصية أريد أن أخبركم بأمرين، الأمر الأول لقد ترك والدكم رسالة لا بُدَّ أن نقرأها جميعًا، الأمر الثاني ستعرفونه بعد الرسالة».

-هل من شروط فتح الوصية أن نعرف الرسالة؟

سأل طاهر فهززت رأسي بالتأكيد.

-حسنًا لنبدأ.

أخرجت الرسالة واستعديت لقراءتها:

«أبنائي الأعزاء..

قراءتكم لهذه الرسالة يعني أن مخاوفي قد تحققت بالفعل، وأنكم مجتمعون الآن في مكتب آدم عطية، لقد حاولت أن أكون أبًا مثاليًا معكم، لكنني فشلت في إدارة المنزل. دعوني أعترف أن وفاة أمكم كانت المسمار الأول في نعشي، لقد أحببتها أشد حبًا، لقد ساعدتني كثيرًا في حياتي، أبوكم لم يولد ثريًا، أبوكم كافح وعمل بجد منذ الصغر، لم يخجل من العمل، ولم يتكبّر عليه، فكافأني الله بكرمه عليّ، فمع ولادة طاهر بدأ الخير يهل عليّ من كل اتجاه، وبعدها فتحت طاقة القدر عليّ من حيث لا أدري ولا أحتسب، لم أقسَ عليكم إلا لأعلمكم، لم أشد عليكم إلا لأشد أذركم وأصنع منكم أبطالًا أقوياء، وحتى عندما شعرت بالفشل في إدارة المنزل، لم أتزوج احترامًا لمشاعركم، وسعيت للحفاظ على اسمٍ تتباهون به في كل مكان، وأتمنى من الله أن يكون رجائي قد تحقق، وسار في جنازتي ولو عشرة أشخاص يتحدثون بالخير عني.

أما بعد..

أكتب هذه الرسالة يوم ٢٧ يناير، وتحديدًا بعد صلاة الفجر، وبعدما التقيت بالمرزوق، الرجل الشحاذ المجنون الذي يخشاه الناس في الحي، تعرفون أنني أعطي مما أعطاني الله كل يوم، لكن في هذا الفجر تحديدًا لم يأخذ مني، بل نظر إليّ وقال: (خورشيد يا ابن زينب، أحد المقربين منك يدبر لقتلك في أقرب وقت)».

نظر الإخوة لبعضهم البعض، ثم وبصوتٍ عالٍ قال طاهر:

«آدم ماذا تريد أن تخبرنا بالضبط؟».

لم أرد عليه وواصلت:

«صُعقت في مكاني؛ هذا المخبول لم يتحدث مع أي شخصٍ منذ قرابة أربعين عامًا، لا أحد يعرف أين ينام ومن أين يأكل وكيف جاء إلى هنا، لا أحد يتذكر إلا وجوده فقط، حتى اسمه لا نعرفه، فأطلقنا عليه المرزوق. صُعقت في مكاني من كلماته ولم أرد عليه. ظللت في مكاني لفترةٍ طويلة حتى نهض من على الرصيف وظل يردد (ما دايم إلا وجه الله)، ثم تحرك واختفى عن العين.

لم أنسَ هذه الكلمات خلال اليوم، ورغم عدم تصديقي لكلماته لكنني نفس بشرية تخشى الموت، فتناسيت أنني أب، وبدأت أراجع تصرفاتي معكم كأنكم أعدائي، لكني لم أجد ما

يجعل الشيطان يدخل لكم من هذه الثغرة، فاستعذت بالله. الشيء الذي أثار غضبي أنني لم أرَ المرزوق بعد هذا اليوم، فتشت عنه في كل شارع وحارة لكني لم أجده، سألت عنه كل الناس؛ لم يعرف أحد له طريق، يأست فقلت لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، وواصلت الحياة، والآن أوصيك يا آدم إن حدث وانتهت حياتي وتحققت كلمات المرزوق، لا أريد لأيٍّ من أبنائي أي أذى، أنت تعلم ما أقصده، وليسامحني الله على ما آمرك به، لكنني لن أسمح لأيٍّ منهم أن يُكبّل بالحديد أو يحكم عليه بالإعدام.

أوصيك يا آدم أن تُسهّل كل الإجراءات التي تجعل وفاتي طبيعية، لتسهل كل الأوراق ادفع كل ما أملك للطب الشرعي والنيابة، ادفع كل ما أملك لتثبت أن وفاتي طبيعية، أما عن أولادي فأوصيك يا آدم ألا تفتح الوصية إلا بعد أن تعرف ويعرف إخوته من القاتل بينهم، أوصيك بألا تفتحها أبدًا إلا بعد أن تتأكد من القاتل، وأوصي القاتل أن يغادر عائلتنا في أمان، وأوصي إخوته أن يعاملوه بكل لين حتى لحظاته الأخيرة معهم، وأوصيهم ألا يبلغوا أحدًا بالحقيقة، كما أوصيك يا آدم أن تتبرع بنصيب القاتل في الميراث لإحدى الجمعيات الخيرية، ومن يحاول مخالفة أي شرطٍ من شروط هذه الرسالة فأنا أوصيك يا آدم بإبلاغ الشرطة، وإخبارها كل شيء ليبدأ التحقيق معهم جميعًا.

والله الشاهد بيننا.

خورشيد الخشاب».

أنهيت قراءة الرسالة ونظرت لهم، تغيرت ملامحهم، بدأ كل شيء وكأنه يتحدث إلى نفسه، الحيرة وحدها تسود الموقف، الأسئلة التي تلوح في الأفق، وانتظار من منهم سيبدأ بطرح السؤال الأول. أشعلت سيجارتي وظللت أتأملهم، حتى زين الذي لا يهدأ أبدًا كان تائهًا تمامًا، طاهر هو الآخر ظل يدخن بشراسة، بينما بدأت سيدرا تحاول السيطرة على نوبة بكاءٍ قاسية، رودينا الوحيدة التي كانت تنظر لهم وتضحك بهدوء وسخرية، يعجبني ثبات هذه المراهقة، وتعجبني ردود أفعالها القوية. لم تكذب خبرًا وبدت هي أكثرهم شجاعة وسألتني:

«وكيف مات أبونا؟».

أخرجت من الدرج ملف الطب الشرعي وقلت:

«أحدكم غير دواء القلب لأبيكم بدواء يستخدمونه في العمليات الجراحية المستعصية، مما أدى لوفاته في الحال».

قاطعني طاهر:

«أحدنا! احذر من كلماتك يا آدم، أنا لست طرفًا في هذه

القضية».

ضحك زين ورد على طاهر:

«أنت الوحيد المسؤول عن شراء أدوية أبيك، لا تحاول التملص من فعلتك».

وقف طاهر وكاد أن ينهال بالضرب على زين، لكن سرعان ما وقفت سيدرا بينهما وقالت بصوتٍ عالٍ:

«كفاكما شجارًا! أقسم بالله لو لم تتوقف هذه الطريقة، سأذهب للنيابة وأخبرهم بكل شيء. أتدركون حجم الكارثة التي تحل بنا؟».

ردت رودينا ساخرة:

«هكذا يحل الرجال مشكلاتهم، حسنًا يا آدم، لا أريد نصيبي في الميراث ولن أشارك في هذه اللعبة».

قلت لها:

«اختيار مثالي ومتوقع منك يا رودينا، فأنا أعرف أنكِ لستِ مهووسة بالمال، لكن دعيني أذكرك بالسطر الأخير في الرسالة: (ومن يحاول مخالفة أي شروط من شروط هذه الوصية فأوصيك يا آدم بإبلاغ الشرطة، وإخبارها كل شيء ليبدأ التحقيق معهم جميعًا)، ثم إن الثروة التي تركها

لكم والدكم تتجاوز الـ ٥٠٠ مليون جنيه، أظن أن هذا المبلغ يستحق».

كنت أعرف أنهم لا يعرفون حجم الثروة، فلم يحدثهم والدهم عنها طوال حياته، لكن كان يملك الخشاب أملاكًا ومشاريع في كل بقعة من بقاع مصر، لكنه كان يخشى عليهم من الغرور والتعالي، أو يفسد المال أخلاقهم وعاداتهم، لكن هذا الوقت المناسب لإخبارهم بالحقيقة.

على الفور قال زين: «حسنًا أنا مُستعد».

تنهدت سيدرا: «حتى لو لم يترك لنا أبي جنيهًا واحدًا، لن يهدأ لي بال حتى معرفة القاتل».

بهدوءٍ تام قال طاهر: «أنا أيضًا مُستعد، لكن أحتاج معرفة كيف ستدار التحقيقات؟».

قلت: «سنلتقي كل يوم في القصر بعد مراسم العزاء، يمكن لكل شخصٍ المجيء بشخص واحد يثق به، شخص واحد فقط».

لم أرَ في أعينهم أي سؤالٍ آخر يمكن طرحه، فأنهيت اللقاء، وأكدت عليهم الميعاد القادم. غادروا في حالة صمتٍ تام، فغادرت بعدهم.

اتجهت إلى المنزل، وكلما عُدت إلى المنزل أتذكر أنني شخص وحيد؛ أفنيت عمري في العمل، أهملت كل شيءٍ في سبيل النجاح، أعمل طوال الوقت وأحارب من أجل تحقيق أهدافي، لا أنكر أنني فُزت في معارك كثيرة، حققت أغلب رغباتي في الحياة وأصبحت ذا قيمة عملية وعلمية يستشهد بها الناس. أنا شخص وحيد لا أصدقاء له، ليس لأنني شخص سيئ أو لا أطاق، لكنني لا أملك وقتًا لصنع علاقات اجتماعية مع الناس، لا أعرف كيف أحب أصدقائي ولا أعرف كيف أبدو مهتمًا لأمرهم، ولا أجيد التحدث مع شخصٍ كل يوم، دفعتني الحياة لصنع آلة عملية، تعمل وتعمل طوال الوقت، تعمل بلا شفقة أو رحمة، حتى إنني نسيت معنى الراحة والهدوء، ما أعرفه أنني أردت النجاح، وما أعرفه أيضًا أن ضريبة هذا النجاح هي الوحدة. لم أتزوج لأنني أخشى أن أكون زوجًا سيئًا مُهملًا في حق زوجته وأولاده، لم أتزوج لأنني لا أؤمن بقدرتي على العطاء للآخرين، لم أتزوج لأنني أحببت الحرية وخشيت تحمل مسؤولية شخص آخر، ولأنني لم أجد الحب الذي أحتاجه. أردت أن أكون بطلًا في قصة حبي، شخص بنرجسيته التي يعرفها الجميع لن يعيش إلا بطلًا حتى في قصة حبه، وهذا ما جعل الحب يتعالى عليّ ويأبى مداعبة قلبي، لأن الحب.. الحب يتحكم في مصائر البشر؛ إما أن يجعلك صلبًا أو يجعلك هشًا، ولقد رفضت أن أجعل حياتي

رهن هذا الاختيار.

أعددت القهوة ثم دخلت غرفتي وأنا أفكر فيما ينتظرني، ستكون فترة شاقة لكنها ضرورية، فبعيد عن مصالحهم الشخصية، أتعابي الأخيرة مرهونة أيضًا بفتح الوصية، لذلك لا بُدَّ أن تنتهي اللعبة في أسرع وقت. غلبني النعاس فاستسلمت تمامًا للنوم على أمل ان تنتهي اللعبة في أسرع وقت.

الفصل الثاني

التاسعة مساءً

بعد يوم عملٍ شاق ما بين المرافعات والاجتماعات، تحركت من المكتب إلى حي العزبة هناك حيث سنبدأ أولى اللقاءات التي ومن خلالها سنتمكن من معرفة القاتل، لم أبنِ انطباعًا أو توقعًا عن القاتل بينهم في اللقاء الأول، الكل على مسافةٍ واحدة، أعرف أن لا أحد منهم يكره والده، حتى الخلافات التي نشبت مؤخرًا أبسط حتى من أن تصل للقطيعة، فما بالك بالقتل؟! ظللت أفكر وأنا في طريقي إليهم عن دوافع القتل لكل منهم، لكنني فشلت، فـ زين رغم كونه الابن الضال بينهم، لكنه كان مُتهمًا بالشروع في القتل حين حاول أحد التجار الاعتداء على والده، لولا التصالح الذي قمنا به، لذلك شاب لا يسمح لأي شخصٍ المساس بكرامة والده كيف يفكر ولو مجرد التفكير في قتله؟ حتى خورشيد نفسه كان يقول عن زين: «الابن الضال الذي أحتمي به»، كان يحبه ويعرف أنه الوحيد الذي يمكنه الدفاع عن عائلته بشراسة، أما طاهر فقد كان الابن المُطيع، على العكس وبعيدًا عن العاطفة فطاهر أكثر المتضررين من وفاة والده، فبعد أن كان مسؤولًا عن جزء كبير جدًّا من الثروة، يتصرف فيها كيفما يشاء، ويتلاعب بالأرقام والأرصدة حسبما يريد، وبعد أن كان في

حماية والده، فلا يجرؤ أحد عن سؤاله في أيةِ نقطة عملية، الآن أصبح ضلعًا من أربع ضلوع لهم كل الحق في سؤاله واستجوابه، ولهم الحق في التدخل والتصرف في نصيبهم كيفما يريدون، حتى طاهر نفسه وبحكم صداقتنا كان يقول دائمًا: «وفاة أبي ستفتح النار في قلب عائلتنا، وستظهر كل النوايا الخبيثة»، ولهذه الجملة تحديدًا لم أشك في طاهر رغم أنه بدا متوترًا في اللقاء الأول، أما عن سيدرا فهي أضعف من أن تنظر في عين والدها، الفتاة التي ضحت بكل شيءٍ في سبيل إرضائه لن تضحي به مهما حدث. لم أتحدث مع سيدرا منذ فترة طويلة لأسبابٍ لن يفيد تذكرها الآن، لكن في نفسي لا أتخيل أبدًا أن تكون طرفًا في هذا الموضوع، أما رودينا فلطالما كرهتني ورفضت وجودي في عائلتهم، لها معي سجل من الحماقات والسخافات التي لا تنتهي، ومع ذلك لا أتوقع محيط «وسط البلد» أولئك الشباب الطائشون يمكنهم قتل قطة، أولئك يفكرون في العيش بسلام، يدعون للحرية بأفكارهم المُختلفة، قد أتفق أو أختلف معهم، لكن أستبعد فكرة أن يظهر من بينهم قاتل، صحيح أن أغلبهم في خلافات عائلية، لكنها خلافات المراهقين المعتادة، ثم إنها كانت أكثر غيرة على والدها، وهذا أيضًا سبّب الكثير من المتاعب له، فقد كانت ترفض أيةَ محاولة من النساء للاقتراب من والدها، كانت تغار عليه وتُحبه رغم ما بدا

عكس ذلك، حتى خورشيد نفسه كان يقول عنها: «رودينا حادة وقاسية، لكن قلبها طيب وأبيض ويُعتمد عليها».

وصلت الحي أخيرًا، الآن لأدع الأفكار في رأسي وليبدأ فصل الأسئلة.

في نظرةٍ سريعة للهاتف وجدت رسالة نصية من رقم خاص:

«في الليلة الأخيرة في حياة خورشيد كان هناك ضجيج في منزله، عراك استمر لساعة ثم هدأ تمامًا. فاعل خير».

قرأت الرسالة أكثر من مرة، حاولت الاتصال بالرقم، لكن اللعنة على نوعية هذه الأرقام التي لا تظهر للمتصل! اللعنة!

وضعت الهاتف في جيبي وظللت في السيارة لدقائق أحاول ترتيب أوراق اللعبة ومواجهتهم ببعض الأشياء التي أعرفها، ثم خرجت حتى وجدت المرزوق أمامي يردد: «خاف من عدوك مرة وخاف ألف مرة من حبيبك، يا ابن آدم الدنيا دوارة والقلب اللي يتمنى لك الخير، بكرة يتمنى لك الشر».

رغمًا عني اقتربت منه، لكن لم يسمح لي بهذه المحاولة وغادر على الفور، حاولت أن أتبعه لكنه اختفى في الظلام، عُدت لما جئت إليه واتجهت إلى منزل «الحاج خورشيد». في هذا المنزل تشعر وكأنك دخلت حقبة زمنية أخرى، الأثاث

القديم، الصور القديمة، حتى الأجهزة رغم حداثتها لكنك تشعر أنها قديمة الصنع. ما إن دخلت حتى استقبلني طاهر.

-آدم، لقد جاءت رودينا بصديقها «عابر».

-حسنًا، أين المشكلة؟

أجاب وهو يمتص غضبه:

«أنا لا أحب هذا الشخص، ووالدي كذلك، وقد حاولنا قطع علاقتها به، ثم إنني لا أثق فيه».

ابتسمت:

«أنت هنا مسؤول عن نفسك فقط يا طاهر، ثم إنها تثق في صديقها وهذا يكفي بالنسبة لي».

قال بغضب: «أنا أخوهم الكبير وأنا المسؤول عنهم».

قلت بهدوء:

«في هذه اللقاءات أنت مسؤول عن نفسك فقط، بالطبع أُقدّر شعورك، لكن كلكم هنا متساوون في الحقوق والاختيارات، دعنا نبدأ».

دخلت الغرفة، كان كل منهم يجلس مع رفيقه.

طاهر جلس بجوار زوجته «مريهان».

رودينا جلست بجوار صديقها «عابر».

سيدرا جلست بجوار زوجها «ياسر».

بينما جلس زين مع كلبه «روي».

نظرت للكلب فقال: «هذا ما أثق فيه».

لم أخُض معه أيةَ مناقشة، جلسنا في حلقة دائرية ثم قلت:

«أظن أنكم لا تحتاجون لتذكيركم بشروط الورقة، لكن لا بُدَّ أن أخبركم بما سيحدث:

1.مسموح لأي شخص التحدث في كل شيء.

2.مسموح لأي شخص الاطلاع على كل شيء بما فيهم ما يخص كل الأطراف.

3.الإنكار دون إثبات لا يؤخذ به.

4.يملك كل شخص حق رفض الإجابة عن سؤال واحد.

5.يمكن لأي شخص سؤال الرفقاء وكذلك يمكن للرفقاء سؤال أفراد العائلة.

6.لا يحق لأي شخص الإجابة نيابة عن رفيقه.

7.أنا فقط من يمكنني الاستعانة بأشخاص خارجيين.

8.أنا المسؤول عن إدارة الجلسة، ويحق لي طرح الأسئلة، ويحق لكم طرح الأسئلة عليّ.

اتفقنا؟».

أجاب الجميع بتذمر: «اتفقنا».

بدأت حالة الصمت التامة، عقارب الساعة وحدها التي تصدر صوتًا يمكن سماعه، الإضاءة الصفراء تُهدئ الأعصاب، والتنهيدات تخرج من حينٍ لآخر، أجواء مناسبة للبدأ.

خلعت معطفي، ثم أشعلت سيجارتي وبدأت:

«حسنًا، وصلتني رسالة من رقم مجهول يقول أن ليلة الوفاة حدث خلاف حاد في المنزل. زين أين كنت في هذه الليلة؟».

ابتسم زين: «على المقهى، جلست طوال الليل ألعب الطاولة مع بعض أصدقائي وعدت متأخرًا، تقريبًا في الرابعة فجرًا».

-كيف كان الوضع حينها يا زين؟

-لا شيء يذكر، أبي في غرفته، ولا أحد سوانا.

نظرت إلى رودينا وسألتها:

«هل جئتِ لاستلام مصروفك الشهري في هذا اليوم؟».

قالت: «نعم جئت في التاسعة مساءً، كانت سيدرا وياسر يجلسان في الصالة، سألتهما عن أبي فقالا أنه لم يأتِ إلى الآن، وقاما بإعطائي مصروفي ثم عدت من حيث أتيت».

هنا قلت لسيدرا:

«ما أعرفه أن والدك لا يحب الزيارات المفاجئة».

قاطعني زين: «نعم يا سيدرا، بعيدًا عن أنكِ لم تتصلي بي كالمعتاد لتخبريني أنكِ في الطريق إلينا، وأظن أننا كنا اجتمعنا قبل هذا اليوم وحدث خلاف بين زوجك وأبي».

توترت سيدرا قليلًا فقال ياسر:

«نعم جئت لأصلح ما أفسدته».

ضحك زين وقال بسخرية: «لا أظن هذا، أتوقع أن تكون قد جئت لتواصل إقناعه ليدعمك في مشروعك الفاشل».

رد ياسر متحفزًا:

«مشروعي مُربح، غير أنني لم أعرض عليك الشراكة معي».

ضحك زين وقال وهو يشعل سيجارة الحشيش:

«لنتذكر ما حدث معًا. في البداية اتصلت بي وطلبت لقائي في مكتبك؛ استغربت من طلبك وسألتك عما إذا كانت هناك

مشكلة بينك وبين سيدرا، لكنك قلت الأمور مستقرة، وأنك تحتاج للتحدث معي في مصلحة، وجئت بالفعل إليك بعد إصرارك الغريب. في المكتب كانت معك «روان» صديقتك القديمة يا سيدرا، أقصد يا ياسر».

عقدت سيدرا حاجبيها وقالت باستنكار:

«روان!».

رد ياسر: «لا تصدقي هذا الحشاش الخمورجي».

وقف زين واقترب من كرسي ياسر وواصل:

«صحيح أنا خمورجي وحشاش، لكنك شاركتني المخدرات والخمر في هذه الليلة، حتى صديقتك الجميلة راقصة ماهرة، ذاكرتك ضعيفة يا ياسو، أووووه! نسيت أن أسألك: هل تحب أحدًا غير ريري أن يناديك بـ ياسو؟».

وقفت سيدرا التي حاولت تمالك دموعها وكادت أن تخرج، هنا كان دوري فقلت:

«لا يحق لأي شخصٍ المغادرة إلا بعد موافقتي».

قال ياسر مدافعًا عن نفسه:

«أقسم لكِ يا سيدرا كل هذا لم يحدث».

ضحك زين وهو يواصل:

«وبعد لحظات الأنس الجميلة مع روان، وبعدما ظننت أنني غرقت تمامًا وأصبحت تحت تأثير مضاعف من الكحول، اقربتما مني أنت وصديقتك وقلت: (زين ألم تمل من العمل مع أبيك؟ أنت متمرد ونحن نعرف أنك لست راضيًا عن الوضع القائم، وأبوك لا يطبق العدل، فأنت يتم التعامل معك كما يتعامل مع كل العمال، عكس طاهر الذي له معاملة خاصة، حتى أن البعض يقول أنك لست ابنه، والآخر يقول أنك تعيش تحت ظل أبيك، عكس طاهر الذي ينال الاحترام والإشادة من الجميع. ألم يحن الوقت لتتفرد بذاتك وتصنع اسمك ومشروعك الخاص؟ وها قد أتت الفرصة)، ثم بدأت ريري بشرح فكرة المشروع القائمة على شراء سيارات الخردة وإعادة تصنيعها من جديد، وأنك تحتاج للمال فقط وتدويره وكل شيء مدروس.

وقتها أخرجت ريري شيكًا وقالت بدلع أنثوي أنا وأنت نعرفه: (توقيعك فقط يكفي لبدء المشروع).

كان الشيك مكتوبًا باسم شخصٍ آخر، حيث يمكن الضغط على أبي عن طريقي إن لم يتم سداد المبلغ وإلا سيتم إيداعي في السجن. لعبة شيطانية قذرة!

المفاجأة كانت أنني أدركت لعبتكما، وتظاهرت بأنني

مخمور، حتى وقعت على الشيك بالفعل، ثم تعمدت مواصلة الشرب حتى تغرقان أكثر في الخمر».

أخرج زين الشيك من جيبه وقال:

«وبعد أن عدتما لرشديكما لم تجدا الشيك، وبالتالي لم تتجرّآ على التحدث معي عما حدث في هذه الليلة، وحاولت بكل الطرق اعتبارها ليلة أنس عابرة، وأنا ساعدتك في هذا الأمر ولم أتحدث معك عن هذا الموضوع مرة أخرى».

الصوت المرتفع في هذا الموقف كان الحل الأكثر تعقيدًا، وقد أجاده ياسر بعد أن فقد أعصابه:

«تحاول أن تظهر بريئًا وشريفًا، لكن نسيت التسهيلات والضغوطات التي قمت بها حتى أتزوج أختك العزيزة».

هنا انتفضت سيدرا وسألت وهي في حالة انهيارٍ تام:

«تسهيلات حتى تتزوجني؟!».

وقف ياسر وأخرج من جيبه زجاجة نبيذ صغيرة ليهدأ قليلًا، ثم اتكأ على كرسي سيدرا وقال:

«نعم يا حبيبتي، أخوكِ هو من ضغط عليّ حتى أطلب يدك. دعني أذكرك أنا بما حدث يا زين.

في هذا الوقت طلب هذا المحامي الأبله يد أختك، اعذرني

يا آدم لقد رُفض طلب زواجك من سيدرا ليس لأنك شخص سيئ، بل لأنك أحببت فتاة سيئة.

الآن دعنا نقول الحقيقة أمام الجميع، كان إخوة سيدرا يعلمون نيتك في الزواج منها، بما فيهم زين، الذي ذهب وتحدث معي عن الأمر، بالمناسبة لقد وافق على المشروع الذي ينكر الاعتراف به، كل القضايا التي دافعت وتكفّلت بها من تهرب ضريبي وغسيل أموال وتلاعب في الأرصدة للحاج خورشيد قبل ٣ أعوام كانت مُلفقة، مُمنهجة حتى تنشغل بها وتسعى لبراءة ذمة الحاج خورشيد، وأذهب للحاج وأطلب الزواج من ابنته، وبالطبع وافق بلا تردد، لأنني شخص نبيل جدًّا، لم أسمح بإيداع ابنه في السجن، وفي هذا الوقت كان الحاج يمر بأزمة مادية كارثية، فأعطاني كلمة بالموافقة، وأنت تعلم يا آدم أن كلمة الرجال شرف.

أما جميلتك الوفية فسأخبرك بليلة كتب الكتاب يا آدم، بعد موافقة أبيها رفضت سيدرا التحدث معي، عاملتني بخشونةٍ وجفاء وقالت إنها لا تحبني وتحبك أنت، لقد فشل زين في إقناعها بي، ولم يتحدث أبوها عني، لكن المهمة لم تكن صعبة كمل تظن، أعرف أنها أخبرتك أن ما قامت به كان خضوعًا وإنقاذًا لمكانة وسمعة والدها، بينما في الكواليس أنت تعرف أن سيدرا هي المُضحية الكبرى في هذه العائلة، وهنا كانت

الثغرة التي غلبت حُبها، فقلت لها ليلة كتب الكتاب: سيدرا، أعرف أنكِ تحبين آدم، لكن من السذاجة أن نفوّت الفرص العظيمة من أجل علاقة علاطفية.

وقتها نظرت إليّ باستغراب، فقلت وأنا أقترب منها أكثر:

طوال حياتك أنتِ الطرف المُضحي، الجميلة التي حكم عليها القدر أن تكون أمًا لإخوتها وهي ما زالت في طفولتها، أنهيت حياتك العلمية وتوقفت عند الإعدادية حتى تتفرغين لتربية إخوتك، على عكس أختك المرفهة التي تنعم بكل وسائل الحياة الممكنة: التعليم، الحرية، المال، والمجتمع يضع لها مكانة مُحترمة. انظري لها كم هي ناجحة، انظري واملأي عينيك كيف اهتمت بجمالها وحياتها، انظري لما تمتلكه واندبي حظك الأسود فيما وصلت له حياتك، هل يستطيع أحد من إخوتك بما فيهم أبوك فرض كلمة عليها؟ حتى رأيهم الشخصي لا يقدرون على البوح به، لأنها تتمتع بحياتها، أما أنت الطرف المُضحي المسكين الذي أفنى عمره إرضاءً للآخرين، حتى قرار الزواج نفسه لم يكن باختيارك بل فُرض عليكِ. مسكينة!)».

عاد الصمت من جديد في الغرفة فابتسمت رودينا وقالت موجهة كلماتها لياسر: «وسط كم الضغوطات والتعثرات التي تعاني منها، يظهر لك حمار يحسدك على حياتك».

واصل ياسر دون أن يلتفت لرودينا:

«شعرت أن كلماتي وقتها أثّرت في سيدرا، بدت وكأنني لامست جزءًا خاصًا جدًّا بداخلها، فقلت لها:

زواجنا هو انتقام وترويض لهذه الحياة البائسة، أنا الجانب الخفي منكِ، الجانب الذي تخشين مواجهته، الحقيقة التي تتجنبين مواجهتها يا حبيبتي، سيكون زواجنا هو البداية، سنتزوج ونبني عائلة كبيرة تستطيع التوغل في كل ممتلكات أبيكِ.

نظرت إليّ وقتها، ففهمت أنها لا تفهم ما أقصده، فواصلت: آدم لا يرى الحياة كما نراها نحن، سيحاول إصلاح ما بداخلك، سيحاول وضع مبررات لكل الأحداث المأساوية التي مرت بحياتك، ويخلق لأبيك وإخوتك الأعذار لكل تحكماتهم وسيطرتهم عليكِ، أنا سأحررك من هذا السجن وهذه الأفكار، سنتزوج وننجب أبناءً كثيرين يتوغلون ويديرون التركة بعد وفاة أبيكِ، حينها سيصبح لك ولأولادك النصيب الأكبر من الثروة، زواجنا سيكون هو الشرارة التي تحدث ثورة استرداد وإعادة حقوقك الإنسانية من جديد من أبيك وإخوتك ورودينا التي تمتلك كل شيء».

توقف ياسر وواصل الضحك:

«فهمت الآن سيد آدم العاشق الولهان؟».

فجأة قاطعته سيدرا وهي تبكي:

«حسنًا أعترف، هذا ما حدث، لكن لم أقتل أبي. وافقت على الزواج ليس انتقامًا من أبي أو أحد منكم، لكن انتقامًا من نفسي وحياتي، أنتم لا تتخيليون معنى أن تعيش فتاة تحت سيطرة كل العادات والتقاليد، لا رأي ولا هدف لها، الشمعة التي تُضيء الطريق للجميع لكنها تشعر بالانطفاء. تزوجته لأنني أردت الهروب وألا يعيش أولادي ما عشته، في حياة رودينا الكثير من الذكريات والقصص التي عاشتها، الأحلام والأهداف التي حاربت الجميع من أجل تحقيقها، الشخصية القوية التي تجعل كل شخصٍ يتردد قبل التحدث أو إبداء رأيه في حياتها، أما عني فأنا دائمًا الحائط المائل للجميع.

ماتت أمنا! سيدرا تخلي عن دراستك وحياتك وربي إخوتك.

أبوك يشعر بالتعب! سيدرا راعي والدك ولا تغيبي عنه لحظة.

زين يتعافى من الإدمان.. سيدرا اهتمي بأمر زين.

زوجة طاهر مريضة.. سيدرا اذهبي لمنزلهم وساعديها.

لعبة بين ياسر وزين وأبي سيدفع الثمن! سيدرا قدمي حياتك وقدميها قربانًا لأبيك.

أردت التحرر من هذا القناع العفن، أردت صنع حياتي الخاصة، لكني لم أقتل ولم أشارك في القتل أقسم لكم!».

ثم انهارت في البكاء.

عاد الصمت وانفطر قلبي، لستُ شخصًا عاطفيًّا لكن بما قاله ياسر وأكدته سيدرا؛ سقطت لوحة جميلة بداخلي، البريئة الطفلة التي أحبتتها منذ زمن، تملّك الحسد منها، خضعت لأفكار دخيلة على أفكارها، طوال حياتي ظللت أحافظ على تلك الصورة التي حطمتها في ثوان، طوال حياتي كنت أقاتل كل الظنون السيئة عنها لتبقى كما رأيتها بطُهرها ونقائها، لم أتخيل أن تصبح سيدرا قاتلة في يومٍ من الأيام، لم أرَها يومًا إلا الجانب الليّن في حياة مليئة بالقسوة.

من حبل أفكاري قاطعتني رودينا وهي تتحدث إلى الجميع: «أنتم مجموعة أنجاس! طوال هذه المدة تخططون للنيل من أبيكم، وهو لم يحرمكم من أي شيءٍ طوال حياته! أنتم قتلى حتى إن لم تشاركوا في الجريمة، القتل جريمة، الحسد جريمة، الطمع جريمة، الغل جريمة».

في هذه اللحظة وصلتني رسالة عبر الواتساب من الرقم

الخاص، فتحت الرسالة دون أن يلاحظ أحد، كانت من إحدى كاميرات المراقبة في الشارع ليلة الحادث، تحديدًا في الثالثة فجرًا.

فتاة وامرأة عجوز يمشيان في الشارع المؤدي إلى القصر.

حاولت تحديد الشخصين.

«رودينا» و «أم خالد»!

الفصل الثالث

ظللت أعيد وأركز في الفيديو المُرسل، لاحظ الجميع أنني مشغول، فاقتنص طاهر الفرصة وقال: «تأخر الوقت، لنجتمع غدًا، فبعد ساعتين سأذهب لاجتماعٍ هام».

سأله زين: «كنا في الأول لا نسألك، لكن الآن نريد أن نعرف طبيعة الاجتماع».

همهم طاهر ثم قال: «اجتماع يخص زوجتي».

-المدللة التي تُسيطر عليك؟! حسنًا لنتحدث غدًا.

انتهى اليوم حسبما أرادوا، وحُقيقةً لم أكن مستعدًا لأمورٍ أخرى، خصوصًا بعد الفيديو الذي وصل إلي، حان الوقت العودة للمنزل وترتيب ما سيحدث في اللقاء القادم.

-وأنت يا آدم ما رأيك فيما سمعته من زين وياسر وسيدرا؟

سؤال سألته رودينا، فابتسمت لها وقلت وأنا أجهز نفسي للرحيل: «لست هنا لإبداء رأي، أنا هنا للبحث وإثبات الدلائل ومعرفة الحقيقة. لنرى ما سيحدث غدًا».

خرجت من القصر وفي رأسي الكثير من الأسئلة، وأمامي ظهر من جديد المرزوق يطوف حول القصر ويردد:

«كان أولى تحبني؛ أنا كنت مُخلصًا أكثر منهم.. كان أولى تسمعني أنا أفضل منهم.. كنت أستحق تكرمني».

لم أتردد هذه المرة ووقفت أمامه:

«الحقيقة معك أنت. جاوبني من قتل الحاج خورشيد؟».

ظل يركض ويردد كالمجنون:

«كان أولى تحبني؛ أنا كنت مُخلصًا أكثر منهم.. كان أولى تسمعني أنا أفضل منهم.. كنت أستحق تكرمني».

لم أستطع التحدث معه فعُدت إلى السيارة وانطلقت في طريقي إلى المنزل، الدخول إلى هذا الحي أشبه بدخول عالم افتراضي، كل البيوت مرصوصة بشكلٍ مُنظم وغريب، الإضاءة الخافتة تجعلك ترى المارة بصعوبة، الهدوء الغريب طوال الليل، والحركة السريعة في الصباح، هنا وكأنك عُدت بالزمن مئة عام، والشيء الأكثر غرابة هو قصر الحاج خورشيد المبني على هضبةٍ واضحة، مبنى مَهيب يمكنك تمييزه عن الجميع. من ضمن الأسباب الحقيقية التي عرفتها عن سر بناء هذا البناء هو فرض الهيبة والسيطرة، تمامًا كما تعمّد الفراعنة تشييد المباني الضخمة من أجل إظهار قوّتهم وسيادتهم. كنت أعرف أن مصير خورشيد سيكون لغزًا تمامًا كلغز أولئك الذين أحب طريقتهم في فرض الهيبة والسيطرة.

توقفت العربية فجأة.

الملعونة تفعلها دائمًا في الطرق الصحراوية، الليل بسواده العظيم، رياح قوية تضرب الأزهار المتناثرة، أصوات شجار الكلاب من بعيد، والرطوبة العالية.

اللعنة!

راجعت البنزين، الفرامل، الكهرباء، مؤشر المياه؛ كل شيءٍ على ما يرام.

ربما الحل الآن في سيارةٍ عابرة تنقذني، رغم يقيني أن المستحيل أن تقف سيارة لرجل في هذا الطريق.

عُدت للسيارة من جديد وظللت أفتش عن سبب العطل.

فجأة ربت أحدهم على كتفي.

أم أم أم خالد، صدفة غريبة!

كانت ملامحها ثابتة وباردة، كأنها متجمدة في مكانها.

تسارعت ضربات قلبي.

-أم خالد!

اقتربت مني ثم قالت: «ستظل تُفتش وتبحث طويلًا لأنك تبحث في الطريق الخطأ».

سألت: «ماذا تقصدين؟».

ردت: «ركز فيما سمعته، الكلمات والطريقة والمدخل لكل شخصية، ثم اسأل نفسك من يستطيع استخدام هذه الأساليب».

صدقًا لم أفهم ما تقصده.

فردت: «شعرت بالندم مرتين، هذه المرة الثالثة. صدق إحساسك.. صدق إحساسك».

فجأة اقترب صوت سيارة قادمة نحونا بسرعةٍ جنونية؛ ارتميت على الأرض.

-يا أستاذ يا أستاذ!

نهضت من مكاني، كان رجلًا صعيديًّا يقف أمامي.

-ماذا حدث؟

الشمس ساطعة، الصباح قد أتى في ثوانٍ.

-رأيتك من بعيد تقف في منتصف الطريق، ثم تمشيت ناحية سيارتك، ثم وقفت امام السيارة، ثم سقطت.

-كم لبثت؟

-دقائق.

-كيف؟ لقد تعطلت سيارتي في الظلام.

نظر إليّ الرجل باستحقار وهمهم:

«يلعن المخدرات!» ثم رحل بعيدًا عني.

أدرت المحرك، ثم انطلقت إلى المنزل بسرعةٍ جنونية.

توقف عن التفكير.

صدق إحساسك يا آدم.

صدق إحساسك يا آدم.

وصلت المنزل وارتميت على السرير من شدة التعب وغدوت في نومٍ عميق.

صحراء جرداء.

الليل على أتمه، النجوم خافتة والقمر يتوارى بين السحاب، الرياح الباردة.

ما الذي أتى بي إلى هنا؟

واصلت الركض بحثًا عن مخرج من هذا الخلو القاتم.

لا حياة هنا.

واصلت الركض وقلبي ينخلع من مكانه.

ضوء أبيض هناك.

ركضت نحوه كالمجنون.

اقتربت منه أكثر.. أكثر.

رجل يجلس على كرسي عظيم، يرتدي جلبابًا أبيض، وتاجًا ذهبيًا مرصعًا بالألماظ.

شارد في الظلام.

الحاج خورشيد!

وقفت أمام كرسيه الضخم، بالكاد أصل إلى مقعده بصعوبة.

-يا حاج خورشيد! يا حاج خورشيد.

لم يرد، لم يُعِرني أي اهتمام، لا يراني.

-يا حاج خورشيد أنا آدم.

لا يستجيب.

حاولت الاقتراب والتعلق في الكرسي لعله يراني؛ دون فائدة.

شعرت أنه لا يحتاج للتحدث معي، لكن كيف أجذب انتباهه بشيءٍ أكثر من التحدث؟

طردت من رأسي هذا الشعور وهذا الإحساس عديم الفائدة.

أمسكتُ حجرًا وكدت ألقي به على الأرض.

فجأة ظهرت من العدم امرأة عجوز، أمسكت بيدي وقالت: «لن تتحمل عواقب ما تنوي القيام به».

-أم خالد!

سألتني وكأنها تُعنفني: «لماذا جئت إلى هنا؟».

بخوفٍ وتردد قلت: «صدقيني لا أعرف أكثر من أنني وجدت نفسي هنا. أريد التحدث مع الحاج خورشيد».

-لا يمكنك التحدث معه.

فجأة ظهر طاهر وزين، سيدرا ورودينا.

-يا كلب سأقتلك!

-يا طماع سأنال منك!

-يا عاهرة لن أتركك تنعمي بحياتك!

-يا عديمة الفائدة لن تقدري عليّ!

يتشاجرون، لا بل يتقاتلون.

الغريب سبعة أشخاص يرتدون ملابس غريبة يلتفون حولهم، يضربون بالدفوف ويرقصون وكأنهم يحتفلون بما يحدث.

صعقت مما أرى.

اشتدت الحرب بينهم.

حاولت الاقتراب منهم لكنهم لا يسمعونني ولا يروننني، كلما اقتربت منهم ابتعدوا عني في حركةٍ واحدة.

فجأة دفعتني أم خالد:

«قلت لك: صدق إحساسك.

قلت لك: صدق إحساسك».

***

-صباح الخير يا أستاذ آدم، هل ستأتي اليوم إلى المكتب؟

أيقظني صوت الهاتف، وإن صح التعبير فقد أنقذني من كابوسٍ غريب لم أفهمه، كادت العجوز أن تخلع رأسي من جسدي، أم خالد المربية والست التي تخدمهم منذ زمنٍ طويل، لم تتزوج وتفرغت لتربيتهم، اليد الأمينة والست التي لطالما ليّنت قلب أبيهم عليهم، يجتمعون على حبها، ويكنون لها كل تقديرٍ واحترام، عدا رودينا التي كانت دائمًا تشكك في

هذه السيدة وتقول إنها ليست مريحة.

لم يفهم أفراد العائلة سبب الضغينة التي تحملها رودينا لسيدةٍ في عمر والدتها، حاول والدها كثيرًا تغيير تلك الضغينة لكن بلا فائدة، هي تكرهها بلا سبب واضح، ولهذا السبب أثار الفيديو دهشتي؛ ما الأمر الذي دفع رودينا للقاء أم خالد في هذا الوقت المتأخر؟ وإجابة هذا السؤال لا بُدَّ من معرفتها قبل اللقاء الثاني، وبالتالي قررت الذهاب إلى أم خالد.

نهضت من على سريري واستعديت للنزول، وقبل أن أخرج طرق أحدهم الباب.

-سيدرا!

-آسفة على المجيء بلا ميعاد سابق.

استقبلتها واتجهت إلى المطبخ حتى أُعد قهوتنا وأعيد ترتيب يومي الذي انقلب فجأة بزيارة سيدرا، هل جاءت لتعترف بأنها القاتلة؟ هل جاءت لتخبرني بالحقيقة، أم جاءت لتعتذر عن خطاياها؟ طردت كل الأفكار والأسئلة من رأسي وخرجت لها.

سيدرا جميلة، كفيلة أن تُبعثر كل أوراقي وخططي في التحدث معها بقسوة أو حتى بعقلانية، تبتسم فتنزاح كل

جبال الغضب، تضحك فيرقص العالم. تذكرت فجأة الوضع الحالي وأن لا مجال للعاطفة في هذه الفترة.

تنهدت وأنا أقول لنفسي: «قاسية الدنيا تلك التي تُحوِّل الأبرياء إلى أوغاد، الأنقياء لأشخاصٍ يفكرون ويخططون للنيل من غيرهم. لم أتخيل يومًا أن توافق سيدرا على المشاركة في تلك اللعبة، لم أتخيل أن تكون فريسةً لمطامعها وأهدافها الإنسانية، لكن الحياة تلعب لعبتها، والضغط والظلم يخلقان حالةً من النفور والتمرد، أشياء تقودك لتحطم كل شيء نقي بداخلك وتمضي قدمًا ناحية النيل من شعورك بالظلم، تُحطم كل شيءٍ بما فيهم قلبي يا سيدرا».

استعدت ذهني وخرجت لها، شيء ما يختلف في ملامحها، جميلة لكنها غريبة، شيء ما لا يوحي بالراحة المعتادة في ملامحها.

-لماذا جئتِ يا سيدرا؟

-لأقول لك الحقيقة؟

-أي حقيقة؟

-لم أخنك بالغيب يا آدم.

قاطعتها:

-لقد مضى وقت طويل على هذا الموضوع، نحن الآن أمام جريمة قتلٍ لا بُدَّ من معرفة صاحبها.

-ستعرف القاتل يا آدم، لكن قبل ذلك يهمني أن تعرف أنني لست هذه السيئة التي حطّمت قلبك، دعني أخبرك بالحقيقة وما حدث، لم أشارك في الحدث يا آدم، أقسم لك لا أعرف أيةَ تفاصيل عن هذه العملية القذرة، لكن لو كنت علمت بها لشاركت فيها ألف مرة دون ندم.

نعم وافقت على الزواج من ياسر، لكن ياسر ليس بهذا السوء الذي تظنه، وأبي ليس المغلوب على أمره كما تظن أيضًا. قبل كتب الكتاب جلست معه في غرفة مكتبه وحاولت إقناعه برفض الموضوع:

-أبي، هذا الرجل لا يريد الزواج مني، بل يريد الوصول والاستفادة من مكانتك ونفوذك.

ضحك والدي وقال: «أعلم، لهذا وافقت على طلبه».

نظرت له باستغرابٍ فواصل: «أعلم أنه يريد الزواج منكِ للفوز بكل الامتيازات التي سيحصل عليها من النسب، يعجبني وضوحه وأهدافه، ومثل هؤلاء لا خطر عليهم، الطمع الذي يقود هؤلاء يغمي أعينهم عما يملكون، واسم والده وحده كفيل أن يمرر كل شحنات الاستيراد الخاصة بنا

بعيدًا عن أعين رجال الجمارك والتفتيش والضرائب. منفعة مشتركة يا ابنتي».

قلت وقد بدت نبرة صوتي أكثر حدة:

«لا يهمني ما يملك يا أبي، يهمني أن يحبني وأحبه، لشخصي أنا ولشخصه، بعيدًا عن كل هذه المعطيات والمصالح الشخصية».

هنا وقف بقسوته وقوته وأمسك شعري بعنفٍ ثم قال:

«تقصدين آدم؟! المحامي الجربوع الذي يحاول التقرب مني أكثر ليفوز بكِ، الخبيث مُدعي الوفاء والصدق حتى يتزوجكِ!».

بدأت في الصراخ وقلت: «أنت أيضًا مُدّعي؛ تتظاهر بحبك له لكنك تكن له كل الكره، اتركني أختار ما أشاء كما اختارت رودينا حياتها، تعبت من كوني خادمة لك ولإخوتي، والآن تجبرني على أن أكون خادمة طوال حياتي لمصلحة بينك وبين ياسر؟!».

انهال عليّ بالضرب وهو يقول:

«إياكِ أن أسمعك تقارنين بين حياتك وحياة ورودينا! يا فاجرة! لو ارتفع صوتك مرة أخرى لأدفنك في مكانك»، ثم

بصق على وجهي وركلني حتى أخرج من غرفته.

حينها تدخل طاهر الذي جاء بالصدفة مع زوجته، دخل المكتب مباشرةً وحاول دفع أبي بعيدًا عني، لكن كانت الصدمة حين صفعه أبي وقال: «يا ابن الجارية! بدلًا من أن تدافع عني تقف في وجهي وتدافع عنها؟!».

إهانة لم يتحملها طاهر الذي كاد أن يبادله الصفعة، لكنه تمالك نفسه. لم يكتفِ أبي بل واصل: «خذ زوجتك العاهرة بنت الشوارع، واخرج من هنا ولا تعد إلا وأنت خافض رأسك معتذرًا عن إهانتك لأبيك يا ملعون!».

هنا انفجر طاهر ردًا على إهانته أمام زوجته وقال بنبرةٍ عدوانية: «سأنتقم منك، سأجعل كل أولادك ينقلبون عليك ويعرفون حقيقتك، لن أسامحك، ولن أجعلك تنام نومًا هنيًا بعد هذه الليلة، سأكون كالصداع في رأسك يا خورشيد، تحمد الله وتترجاه أن ينجيك مني».

ثم خرج طاهر وهو في حالةٍ غريبة لم أرَها طوال حياتي.

بدأت سيدرا في البكاء وهي تواصل:

«أبي ليس بريئًا يا آدم، لقد حطمنا جميعًا، أبي ظلمني وحطمني، لكني لم أقتله ولا أعرف من القاتل، وأنا لست خائنة يا آدم، أردت فقط النجاة، أقسم لك!».

كاد عقلي أن يُجن، لم تؤلمني كلمات الحاج خورشيد عني قدر ألمي مما قالته عن والدها، أحب هذا الرجل رغم ظنونه عني، أحترمه كثيرًا وأشفق على نظرته العدائية تجاهي، ومع ذلك أحترم فكرة أنه لا يكابر في احتياجي له، لا يضع للمشاعر الإنسانية حاجزًا في التعامل العملي بيننا.

-لماذا تقولين كل هذا يا سيدرا؟

سؤال ظننت أنني سألته لنفسي، لكنها اقتربت مني بهدوءٍ وبنبرةٍ هادئة مثيرة أجابت:

«لأنني أحبك، ولأنني أشفق على المهمة الموكلة إليك وأريدك أن تبحث في الجهة الصحيحة».

-سيدرا!

واصلث وهي تفتح زرار قميصي:

«طول هذه المدة وأنت لم تلمسني، ألا يحق لي للمرة الأولى أن أكون في حضن الرجل الوحيد الذي أحببته؟».

-سيدرا!

-انتظرت كثيرًا هذه اللحظة يا آدم.

واصلث تقبيلي بنشوةٍ وجنون، وفجأة وقبل أن أغرق

تمامًا، شعرت بثقل جسدها، أنفاس غريبة، وشفايف خشنة.

«صدق إحساسك».

«صدق إحساسك».

رفعت وجهها الغارق في تقبيل رقبتي.

أم خالد!

أم خالد!

دفعتها بعيدًا عني حتى ارتطمت بالأرض وخرجت مسرعًا من الغرفة، بعد ثوانٍ خرجت سيدرا متأثرة بآثار الدفعة.

-ماذا حدث يا آدم؟

كنت أرتعد من الخوف.

-أم خالد لقد رأيتها فيكِ!

ضحكت سيدرا.

-يبدو أنك أثقلت في الشرب، اهدأ يا حبيبي اهدأ.

حاولت تمالك أعصابي.

-سيدرا أنا آسف، ما ترغبين فيه لن يحدث.

شعرت سيدرا بالإحراج، ارتدت ملابسها، ثم استعدت

للخروج.

وهي تغادر سألت: «سيدرا ما علاقة رودينا بأم خالد؟!».

ابتسمت ابتسامة انتصار وقالت:

«اسأل زين»، ثم غادرت منزلي.

تنهدت وأغلقت الباب، عُدت لمكتبي ثم بدأت في كتابة ما يدور في رأسي.

رودينا وأم خالد!

عطل السيارة وظهور أم خالد!

الحلم والرجال السبعة وأم خالد!

سيدرا وظهور أم خالد!

حسنًا كلمة السر الآن معها، هي الوحيدة التي تملك كل الإجابات، لا أستبعد أن تكون هي القاتلة الحقيقية، لكن السؤال الذي خطر في بالي فجأة: لماذا حين سألت عن علاقة رودينا بأم خالد، قالت: اسأل زين، ما علاقة زين بهذه العلاقة الغريبة؟

هندمت ملابسي ثم نزلت متجهًا نحو اللاشيء، لا أعرف أين ستقودني السيارة، أنا تائه تمامًا ولقد زادت سيدرا التيه

أكثر وأكثر، كنت أظن أنني أمسكت بأول خيطٍ نحو معرفة القاتل، لكن فجأة شعرت أنني لم أتمسك إلا بمزيدٍ من الأسئلة والحيرة. أحب سماع الأغاني عبر الراديو، أحب الصدفة والدندنة التلقائية، أحب شعور اللهفة على مقطعٍ اشتقت لسماعه، أنا من أولئك الذين يحبون الأغاني التي تسمعها صدفةً عبر المقاهي، السيارات، أحب الصدفة الجميلة لكن لا أعيشها إلا نادرًا فكوني شخصًا منطقيًّا، يحب أن يأخذ بالأسباب، ويحب أن يحلل ويترجم كل التفاصيل، التركيز بهذا الشكل لعنة مؤذية، لو كانت لدي أمنية واحدة لطلبت أن أعيش ما تبقى من حياتي أجوف التفكير، لا يفكر، لا يدقق في التفاصيل، لو كانت لدي أمنية لعشيت حياتي وأنا لا أبالي بشيءٍ حولي.

في العصرية تقول فيروز: «هل جلست العصر مثلي بين جفنات العنب والعناقيد تدلت كثريات الذهب». لا يا فيروز، نحن هنا في القاهرة، العصرية تعني ميعاد خروج الموظفين والطلاب، رائحة عوادم السيارات يا فيروز كفيلة أن تصيبك بضيق التفس، واللحن والنشيد هنا هي أصوات السائقين وهم يسبّون بعضهم. أشعلت سيجارتي، ثم أمسكت الهاتف وظللت أقلب بين الأسماء.

ياسر.

طاهر.

رودينا.

زين.

سيدرا.

زين!

«اسأل زين» هي الكلمات الأخيرة التي قالتها سيدرا قبل أن تغادر المنزل.

اتصلت بزين.

-أين أنت؟

-ماذا تريد مني؟

بحزمٍ كررت سؤالي:

-هذا ليس جوابي، أين أنت؟

-١٨ حارة مأمون، السيدة زينب، اتصل بي فور وصولك.

أغلقت الهاتف في وجههِ واتجهتُ بسيارتي إلى هناك، القوي يُحب الأقوياء مثله، حتى لو كانوا ألد أعدائه، وزين شخص عدواني، ينال خوف الجميع ويستمتع وهو يرى نظرات الضعف في أعين الخائفين منه، لذلك الحزم معه أمر طبيعي،

فلو شعر أنني أخشى بطشه؛ ستسقط الهيبة ولن يكن لي أي احترام.

وصلت الحارة.

من إحدى زوايا المقاهي الحقيرة ناداني:

«تعال يا مِتر».

دخلت المقهى وجلست بجواره، همهم ساخرًا:

«اعذرني هذا أغنى مقهى هنا».

قلت محاولًا استفزازه:

«هذا يليق بك».

ضحك ثم قال:

«أنت تعرف أن مكانتي أكبر من ذلك، الفكرة أنني أحب هذه الأماكن وأحب الهروب فيها».

قلت مبتسمًا:

«لكنك لن تستطيع الهروب من الحقيقة يا زين».

-قهوة مضبوط يا مِتر، صحيح؟

أشعل سيجارة الحشيش ثم واصل:

«أنت تعرف أنني لم أقتل أبي يا آدم، وتعرف أيضًا أنني آخر شخصٍ يمكن أن يقوم بهذه الجريمة».

قلت وأنا أتأمل ملامحه الثابتة: «إذن لماذا تهرب؟».

سحب نفسًا آخر من سيجارته وقال: «لأنني سئمت الأحداث، حياتي فصول متتالية في قمة الإرهاق، أحداث تتبعها أحداث تتبعها أحداث، كارثة هنا ومصيبة هناك، تحدي في الشرق وهزيمة في الغرب، أنا يا سيدي شخص منذ اللحظة الأولى في حياته وهو في سباق، سباق مع الزمن، مع المحيطين به، مع المجتمع، وأشدهم سباقي وصراعي مع نفسي، أصطدم طوال الوقت بالحياة حتى بمعارك وتفاصيل لست طرفًا فيها، لكل مُحارب فترة استراحة، أما عني فلقد حَكم عليّ القدر بالحرب طوال الوقت وإلا نالت منك أقسى الهزائم، ما دامت الحياة لم تعطِني فرصةً للاستراحة، فالهروب سرقة هو الحل المثالي لنقدر على مواجهة الأوغاد والحمقى ووتيرة الحياة السريعة، حتى لا ننهار أمام الناس أو نعطي فرصة لأمثالك أن يشمتوا في سقوطنا.

قلت غاضبًا: «أمثالي هم من أنقذوك من قضايا التعدي والشروع في قتل!».

قال بثقةٍ: «لا تظن أنني مُمتن لك، أنت لم تدافع عن شخصي، أنت دافعت عن الأموال التي تحصدها من أبي،

والتي تجبرك على الدفاع عني بضراوة، ولو أن صاحب الحق دفع لك ما يزيد جنيهًا واحدًا عن أبي لوضعتني بين القضبان. أنت محامي يا آدم ولاؤك لمن يدفع لك، للمصلحة العائدة من الجاني أو المجني عليه، فانسَ العلاقات الاجتماعية، ودعك من هذه الدراما، ولم تُجِبني على سؤالي.. لماذا أتيت؟».

قلت: «لمعرفة الحقيقة».

فقال: «أنا المهتم في نظرك أليس كذلك؟ لك الحق، فأنا الوحيد الذي يمكن الشك به، الولد المشاغب سليط اللسان، الابن الضال لأبيه، خلفة الندامة لعائلة محترمة، أنا الشيطان في بيت الملائكة، الملحد في بيت المؤمنين، المؤمن بين عشيرة الملحدين، وبالطبع أنا الوحيد الذي جلب لأهله المتاعب بعدما عرفوا طريق المحاكم الجنائية، صدقني لو كنت مكانك لأقسمت أن زين هو الوحيد القادر على القتل».

نهض زين من مكانه ثم واصل:

«ما رأيك أن أصحبك في جولةٍ مُختلفة لترى بعض الحقائق؟».

قلت في نفسي: «كل شخص يقول نفس الكلمة: لترى بعض الحقائق، اللعنة عليهم جميعًا!».

-أتمنى أن يكون الأمر يستحق يا زين.

-يستحق لا تقلق.

-أين سنذهب؟

-طريق مصر- الفيوم.

-نعم!

وهو يشعل سيجارته: «صدقني الأمر يستحق».

انطلقتُ بالسيارةِ التي ملأتُها بالوقود، واستعديت لرحلةٍ لا أعرف متى ستنتهي.

قال دون أن ينظر إليّ وكأنه يتحدث إلى نفسه:

في الحياة قوالب لا يمكن الاعتداء عليها، مفاهيم وثوابت لا يقدر أحد على تحطيمها، أفكار وعادات متوارثة إن خالفتها نعتوك بأسوأ الصفات، واتهموك بكل ما هو ليس فيك، لمجرد أنك حاولت الاعتداء على حرمة هذه الأفكار؛ ستتم معاقبتك من الجميع، والسبب أنك حاولت أن تكون مُختلفًا عنهم.

أبي كان قدوتي ومثلي الأعلى، البطل الخارق الذي يدير حياتنا ويستجيب لكل طلباتنا، كنت أرى في هذا الرجل قوة وهيبة أخشاها كما يخشاها كل الذين يعرفونه، بدأت تدريجيًّا أستوعب الحياة، وأفهم الفرق بين الصالح والفاسد،

الخير والشر، الحلال والحرام، كلها أشياء بدأت تظهر لي بوضوح مع الوقت، بينما ظل أبي هو ذاك البطل الصالح الذي أحبه.

وذات يومٍ في المدرسة حدثت مشاجرة بيني وبين أحد أصدقائي؛ انهلت عليه بالضرب المُبرح حتى تدخل أحد المدرسين فسألني عن اسمي، فقلت: «زين خورشيد».

ما إن سمع اسمي حتى انهال عليّ بالضرب بطريقةٍ جنونية، ثم قرر معاقبتي بالوقوف أمام السبورة حتى نهاية اليوم الدراسي. ذهبت لأبي في المصنع وأخبرته بما حدث، فسأل عن اسم المدرس، فأجبته، وتمامًا كما ثار المدرس، انفجر أبي غاضبًا وظل يردد:

«ابن الدمياطي يضرب ابني! ابن بائعة السمسمية يضرب ابن الحاج خورشيد!».

استدعى أبي أحد الأطباء لمداوة الجروح التي أصابت جسدي، ثم استدعى رجاله وقال لهم: «أريده أمامي حالًا».

قبّل رأسي وقال: «لا تحزن يا بُني، سأعاقبه أشد عقاب».

كنت مراهقًا مُتحمسًا لما سيقوم به أبي.

مر الوقت عليّ وأنا في قمة حماسي حتى غفوت في النوم

في مكتب أبي، وحين استيقظت لم أجده، خرجت مفزوعًا أبحث عنه في المصنع، حتى سمعت صوتًا عاليًا خارجًا من إحدى الطرق، وهناك وجدت أحد مساعدي أبي ينهال بالضرب على المدرس. كنت في حالة نشوة غريبة، أتابعهم من بعيد وأرقص فرحًا، اجتمعوا عليه وواصلوا الضرب والبصق والسخرية.

«لن تخرج من هنا إلا على نقالة».

بدأ المشهد يصبح أكثر عدوانية، تخطى الأمر فكرة أن تتم معاقبة مدرس اعتدى بالضرب على تلميذ، وأصبح تتم عملية قتله، أصبح المشهد دمويًا ومرعبًا، الرجال يتبادلون عليه الضرب والمدرس ينزف من كل مكانٍ في جسده.

-أبي يكفي هذا، يكفي هذا يا أبي.

أزاحني أبي عن طريقه وواصل رجاله الضرب في المدرس.

-يا أبي يكفي هذا.

لم يعجبه اعتراضي، فأمسك يدي:

«تعالَ معي، يكفي هذا يا رجال، انقلوه إلى الفيوم».

عُدنا إلى المنزل وأنا في حالة صدمة.

-ماذا سيحدث له يا أبي؟

-سينال عقابه.

-يكفي هذا أنا المخطئ.

هنا انفجر أبي وقال: «ابن خورشيد لا يُخطئ، ولو أخطأ أنا فقط من أملك حق معاقبته، والآن اذهب إلى النوم وأوقف صوت كلبك الصغير».

وأنا أخرج من الغرفة قال: «إياك أن تقول لأي شخصٍ عما رأيته وإلا سيحدث لك ما حدث معه».

عُدت بالفعل إلى الغرفة وعانقت «روي» كلبي الصغير ونمت، خلال يومين لم أذهب للمدرسة، وفي اليوم الثالث استيقظت على صوت أبي يتحدث مع الدادة أم خالد.

-الصحافة تتحدث عن اختطاف مدرس في الحي يا أبا طاهر.

-دفنته في صحراء الفيوم.

-لكن يا أبا طاهر كل الطلاب يعرفون بما حدث بين زين والمدرس.

-لا تقلقي بشأن هذا، ليس علينا أي دليل إدانة.

هنا اقتحمت مجلسهما.

-أنا رأيت وأعرف كل شيء.

انقض عليّ أبي وربطني، ثم انهال عليّ بالضرب.

-يا ابن الكلب لو تفوهت بحرفٍ آخر سأدفنك معه.

وواصل الضرب حتى أنقذتني أم خالد.

هنا بصق أبي على وجهي وأمرها بمنع خروجي من الغرفة. قالت أم خالد:

«فترة الامتحانات يا حاج».

رد حازمًا:

«لن يستكمل تعليمه بعد الآن».

توقف زين عن الحكي ثم وجه نظره نحوي.

-ليس كما قال لك وأخبر الجميع إنني كنت مشاغبًا وأجلب المتاعب له ولم أفلح في التعليم، كان قرار عدم استكمال مشواري التعليمي بأوامره يا آدم.

-لماذا أصدقك يا زين؟

-لأنك مُغيّب يا آدم، أنت نفسك شربت من كأس قسوة أبي حين وافق على زواج ياسر من سيدرا، وأنت نفسك تعرف الجانب المُظلم من أبي.

-هذا يدفعك لقتله يا زين؟

-لا لم أقتله يا آدم، لكن لا أنكر أنني فكرت مرةً في قتله. بعد انتشار خبر قتل المدرس والعثور على جسده في صحراء الفيوم، ظللت فترة طويلة حبيس المنزل، لكنني كنت أسمع صوت رجلٍ يصرخ كل يومٍ في الشارع: «ابني! صغيري! انظروا لقد قتلوا صغيري.. انظروا لقد قتلوا ابني.. انظروا لقد قتلوا صغيري!».

كان هذا الصوت بمثابة الكابوس لا يتوقف عن رأسي، لا يغيب، أسمع الرجل طوال الوقت، حتى يوم قررت الهروب من المنزل وقول الحقيقة لهذا الرجل، حينها أمسكت بي أم خالد في اللحظة الأخيرة وعادت بي إلى غرفتي، ولسوء الحظ كانت لحظة عودة أبي من العمل وقد علم بكل شيء، فجاء غاضبًا ودخل غرفتي، كتَّف قدميّ ويديّ وأنا أجلس على الكرسي، ثم أمسك روي كلبي الصغير وذبحه أمام عيني.

كان الكلب يصرخ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأنا مكتوف اليدين لا أقدر على مساعدته.

مات روي أمام عينيّ!

غرق في دمه!

كلبي الصغير الوفي.

الوحيد الذي آنس وحدتي وهوّن قسوة معاملتي، قتله أمام عينيّ.

كنت أصرخ لأم خالد: «انظري لقد قتل صغيري.. انظري لقد قتل ابني.. انظري لقد قتل صغيري.. انظري لقد قتل ابني.. انظري لقد قتل صغيري يا أم خالد!».

انهار زين وهو يحكي وكأن المشهد أعيد أمامه مرةً أخرى: «انظر يا آدم لقد قتل صغيري! انظر يا آدم لقد قتل صغيري وصديقي!».

استعاد زين رشده وهدوءه ثم قال:

«انكشف القناع الحقيقي عن أبي، الطيبة التي يظهر بها ما هي إلا قناع يخفي بداخله قسوة تصرفاته، الخير قناع للشر، الحكمة قناع للعنف والعدوانية.

بالمناسبة يا آدم لست وحدك من حُرمت من الأشياء التي تُحبها، دعني أحكي لك ما حدث لتتأكد من حقيقة أبي.

بعد هذه الفترة أدركت أن أبي ملكًا، مجرد التمرد عليه كفيل أن يسجنك أو يقتلك، فهو لا يفهم إلا الدماء، هي لغته في الحوار. استسلمت لهذه الفكرة وقلت في نفسي: (أنا ابن

الحاج خورشيد، لأنعم بما يملكه من سلطة وجاه ونفوذ) هذا كان التجاوز والتقبل الأول في حياتي، قبلت العمل معه دون سؤاله عن المساواة بيني وبين طاهر الذي كان يدير مصنعًا كاملًا وهو لا يزال يافعًا، التزمت الصمت لكنني قررت التمرد عليه بطريقةٍ أخرى، لا يهزم الأب إلا ابن ضال يرهقه في حياته، وهذا ما حدث، تركت نفسي لكل الأشياء التي يمكن أن تدمر حياة أي شخص.

كنت أعمل حتى الخامسة عصرًا مع أبي، ثم أعود إلى المنزل، أرتدي ملابسي وأذهب للسهر.

الخمر كان بالنسبة لي كالمياه، النساء، ما أكثر النساء! السهرات الليلية اليومية، تعجبني هذه الراقصة؛ أملك ما يكفي من المال لتقضي معي ليلة ساخنة، هذا الشاب يبدو متعاليًا؛ تعال يا ابن العاهرة لألقنك درسًا لن تنساه، هذه الإعاقة تليق بك، الآن لن تجرؤ عن رفع عينيك في عيني.

حياة من البلطجة والعربدة وأنا.. أنا ابن الحاج خورشيد، ومن يجرؤ على عقاب أو حتى محاولة النظر لابن الحاج خورشيد؟! حتى أشد الرجال يضعون لوجودي ألف حساب وحساب، ولن يجرؤ أحد على الذهاب لأبي والشكوى مني وإلا سيودّع عائلته للأبد، ولا مانع أن نقهر قلبه ولنسمعه يردد: (انظر لقد قتلوا صغيري). هي الرغبة في تحطيم

أبي، الرغبة في الانتقام من كل شخصٍ جبان لا يقوى على الوقوف أمام أبي، الرغبة في النيل من الضعفاء، الرغبة في فرض السلطة، الرغبة في السيطرة على الجميع.

الرغبة هي من تقود المرء لكل الأفعال الحمقاء الغير إنسانية والإنسانية، نحن من صنع رغبتنا يا آدم.

كنت كالوحش الكاسر لا يمكن الوقوف أمامه أو إيقافه، في الحي وفي المنزل يتجنبون التعامل معي، بما فيهم أبي الذي كان يكفيه أن أذهب كل يوم للعمل، بينما اشتدت الحدة بيني وبين طاهر، لكن قبل أن أحكي لك ما حدث مع طاهر، دعني أقول لك أن حتى أشرس الوحوش يمكن أذيتهم.

عالم جميل، هنا حيث لا يمكن لأي شخصٍ أن يستفزك، لا يمكن لأحدٍ أن يعكر مزاجك، أنت ملك مزاجك الخاص، وأنت أسطورتك المفضلة، في هذا العالم لن تشعر إلا بالسعادة والانتصار.

شعور مُزيف صنعه الكوكاين (البودرة)، وما أدراك بروعة وقسوة ما عشته في هذه الفترة! تغير سلوكي، أصبحت أكثر عدوانية لكني لا أشعر بالندم، أتلذذ بالتعدي على الآخرين، يطربني صوت أوجاعهم وبكائهم، أنينهم هو موسيقتي المفضلة، يا للروعة! صراخ الفقدان، يا لجمال البكاء بلا حيلة! الترجي والضعف كلها مشاهد مُمتعة، أصبحت وحشًا بلا ندم،

الكوكاكين أصبح دائي ودوائي المفضل، خسرت كل وزني تقريبًا، اختفت ملامحي وأصبحت هزيلًا لا أجرؤ على فرض قوتي وسيطرتي على العامة، حتى بدأت في سرقة بعض أغراض إخوتي، مع الوقت انكشف الأمر، وهنا..

انتظرني أبي في ميعاد عودتي، ما إن دخلت غرفتي حتى وجدته يجلس على سريري.

-أبي ماذا تريد؟

-اجلس يا زين.

-أنا مُرهق ومُتعب لنتحدث لاحقًا.

وقف أبي ثم صفعني بقسوة، لم أقوَ على الرد عليه، لقد استعان بطاهر أخي ليربطني ويسهل الأمر على أبي في إلقاء مزيد من الضربات والصفعات، تكرر المشهد من جديد.

انظر لقد قتلوا صغيري!

انظر لقد قتلوا صغيري!

فقدت الوعي تمامًا».

الفصل الرابع

-استيقظت في المستشفى.

أكمل زين بعد أن توقفنا في إحدى محطات البنزين لنشرب بعض القهوة:

-توقعت منذ اللحظة الأولى أنني في مستشفى لعلاج الإدمان.

لم أقاوم ولو ظاهريًّا، فلقد تملك التعب مني قدر المستطاع، مر شهر كامل بروتين يومي معتاد، الفطور الصباحي، الرياضة، الخروج للحديقة، الغداء، جرعة التعافي، ثم النوم، لا أتذكر أنني أصبت بحالة هلع أو غضب هيسترية، كان يمنعني كبريائي على الخضوع، إن خضعت مرة لأبي وخضعت الثانية للكوكاين فلن أخضع في المرة الثالثة لأثر التعافي.

خلال هذه الفترة لم يزرني أحد إلا أم خالد، لقد تركني أصدقائي الذين دافعت عنهم كثيرًا، تركتني عائلتي أيضًا، للمرة الأولى في حياتي أشعر بمعنى الوحدة، كنت أقضي كل تفاصيل يومي وحدي تمامًا، أفتش عن كلمة تُهوّن مأساتي، كلمة تدعمني وتجعلني أواصل التعافي. بدأت أشعر بحالة من الاكتئاب، لم أشعر بالضعف، لكنني شعرت بالخوف، أرجو

أن تفهمني جيدًا، أنا قويٌ بما يكفي لأتجاوز كل التعثرات التي تواجهني، أشد الصدمات لا يمكنها هزيمتي أو تحطيمي، قد تراني أميل وأتأرجح لكن في النهاية أستطيع النجاة قبل أن أسقط في فخ المأساة، لا يهمني شقاء الطريق قدر مخاوفي من الوصول إلى نهاية طريقٍ لم أختره، لديَّ ما يكفي من القوة التي تجعلني أنتصر في مواجهة الحياة مهما كانت صعوبة المعركة.

أرجو أن تفهمني، أنا لا أخشى الهزيمة، لا أخشى الصدمات، لا أخشى الحرب لكنني أخشى أن أقضي حياتي وتضيع أيامي بهذه الطريقة. أتجاوز فترات مختلفة من التعب دون أن أقول لنفسي: «أخيرًا لقد ننتهى كُل شيء».

قضيت فترة بهذه الحالة الغريبة، أقاوم نوبات حزني، وحدتي وضعفي، أقاوم الإدمان وجرعات الكوكاين، أقاوم شعوري بالوحدة، أقاوم رغبتي في الخلاص، وأقاوم رغبتي في الهروب من كل شيء، أقاوم الاكتئاب وأقاوم نفسي.

وذات يوم علمت أن هناك معرضًا صغيرًا للمرضى، يعرضون فيه أعمالهم اليدوية، لم أذهب لمثل هذه المعارض من قبل، لذلك كانت فرصة لتجربة شيء جديد يكسر حالة الملل والاكتئاب.

ظللت أتجول في القاعة المُزدحمة بين اللوحات والمعاطف

والملابس اليديوية، حتى توقفت، استوقفني وشاح أسود وسط مجموعة أوشحة، مكتوب عليه: «قلبي في خصومة مع الحياة».

رددت بين نفسي: «قلبي في خصومة مع الحياة، مع الأصدقاء والعائلة، مع الحظ والسعادة، مع العالم».

نظرت إلى صاحبة المنتجات، لا أخفي عليك كانت فتاة في غاية الجمال، شعرها الأسود المنسدل، ملامحها الحادة، قوامها الممشوق، وابتسامتها الهادئة، صفات لم أتخيل أن تعجبني، فأنا من أنصار (البلدي يؤكل).

بكبرياء رجل يخشى أن تظهر علية علامات الإعجاب قلت: «أريد هذا من فضلك».

أمسكت الوشاح وقالت: «قلبي في خصومة مع الحياة، هذا وشاحي الشخصي، لا أدري من وضعه وسط الأوشحة».

قلت: «أنا آسف، حسنًا سأبحث عن وشاحٍ آخر».

قالت معتذرة عن ردها: «آسفة لم أقصد أن أكون سخيفة معك، هو لك».

-كم ثمنه؟

-لا هو ليس للبيع، هذه هديتي لك.

-شكرًا يا...

-ماريهان، اسمي ماريهان.

-وأنا زين، فرصة سعيدة.

انتهى المعرض وعاد كل منا إلى غرفته، لكن في هذه الليلة لم أنم، ظللت أفكر في أمرها، لقد بدت إليّ جميلة، إعجاب لطيف، أحببت هذا الشعور ولم أقاومه، بل استمتعت به.

في صباح اليوم التالي وجدتها تغزل أحد الأوشحة، استجمعت شجاعتي واتجهت لها.

-هذه المرة سأدفع ثمنه.

ضحكت وقالت: «حسنًا أعدك فور الانتهاء منه».

ومن هنا بدأ كل شيء، يوم يتبعه يوم علمت الكثير عنها، عرفت أنها قضيت طفولتها ومراهقتها في الخارج مع عمتها، ثم عادت لتواصل ما تبقى من تعليمها هنا، ففوجئت بأسرة متهالكة، أب يعمل طوال الوقت، وأم تعيش في عالم موازي وتدمن الكوكاكين. لم تستطع التكيف مع المجتمع، فتكيّفت مع عالم أمها، حتى تم إيداعها في المستشفى، علمت أيضًا أنها ابنة أحد أكبر تجار الحديد في مصر. ظروف متشابهة جعلتني أرتبط بوجودها أكثر، وصدقًا لا أعرف إن كان

ارتباطي بها لإعجابي بها أم إنها الوحدة التي تجعلنا نتشبث بطوق النجاة الذي يقدم لنا حتى لو كان فخًا قد يغرقنا.

قاطعته على الفور:«زين أنا لست هنا لمعرفة قصتك الغرامية مع ماريهان، من قتل أباك؟».

ابتسم ثم قال: «أنا أحكي لك لربما ترى الصورة بوضوح يا آدم».

ثم واصل: «أصبحنا نتشارك كل شيءٍ بالمعنى الحرفي للكلمة، نفطر معًا، تشاركني هوايتها وأحدثها عن أحلامي التي لم تتحقق، تقول: «حين أخرج سأفتتح معرضًا خاصًا بكل الأشياء التي صنعتها هنا»، فأردد في نفسي: «أتمنى ألا أخرج أبدًا». لقد هلكها الكوكايين، لكن لم يهلك أحلامها، لم يتمكن من تحطيم طموحها وأفكارها، كانت حالمة وجميلة لدرجة أن تتعجب كيف وصلت هذه الفتاة لمرحلة الإدمان؟!

للمرة الأولى لم أعد أسأل الدكتور عن ميعاد خروجي، بينما كانت تعد هي الأيام للخروج، كانت تتعافى من الكوكايين، وكنت أتعافى من الكوكايين لكنني أصاب بها، فجأة تحولت المستشفى اللعينة لجنة لا أريد الخروج منها، لا أريد الخروج منها أبدًا، لقد تبدّل الوحش بداخلي فأصبحت وديعًا، لطيفًا، نادمًا على كل ما فعلت، فهمت الدنيا بنظرتها وأحببت تلك البساطة. لقد أصبحت أهدأ، قرأت الكثير من الكتب، أصبحت

أسمع الموسيقى، لقد ولدت معها يا آدم، لم أجرؤ على إخبارها عن حبي، الاعتراف الشفهي آخر مراحل الحب، وقد وقعت في الحب بكل ما أوتي من قوة. رجل مثلي ليس من السهل أن يقع في الحب، ليس من السهل أن ينتظر امرأة ويتابع تفاصيلها، رجل مثلي ليس من السهل أن يتبع امراة ويفكر في امرأة، رجل ثقيل المشاعر لا يخضع لأي أنثى، لقد كانت هي الاستثناء الجميل الذي أحببته، الاستثناء الوحيد في الدنيا التي غيرت سلوكي، زرعت بداخلي الحب، فهمت معنى الاشتياق، اللوعة، الحزن والانتظار، كنت أردد: ما زلت حيًّا، ما زال يمكنني الحياة بطريقة أفضل، ما زالت الحياة تفتح أبوابها لتستقبلني من جديد، لتبتسم في وجهي.

حتى حان الموعد الملعون، يوم خروجها.

-كن بخير يا زين.

ابتسمت لها: سنلتقي مجددًا أليس كذلك؟

ردت وهي تمسك خدي: تعافى سريعًا يا أفندي لنلتقي.

ابتسمت لها وأنا أمسك وشاحها: ألا يحق لي سرقة هذا الوشاح؟

خلعته من رقبتها ثم قالت: هو لك، لكنني أريد أن أعطيك هدية أخرى.

أخرجت من شنطتها قلادة مكتوب عليها.

(القصة لم تنتهِ بعد)، ثم أعطتني جوابًا وطلبت أن أقرأه بعد أن ترحل.

-ستعود المستشفى سجنًا يا ماريهان.

-الجنة في قلبك يا آدم.

أردت معانقتها، التشبث بها، حدوث أي شيءٍ يعيق رحيلها.

تماسكت أكثر محاولًا ألا أبكي: سنلتقي مرة أخرى أليس كذلك؟

أمسكت يدي: أعدك سنلتقي مرة أخرى.

وبدأت تبتعد رويدًا رويدًا، وما إن خرجت من باب المستشفى حتى بكيت.

بكيت لأن حريتي خرجت معها وعدت أنا لسجني.

بكيت لأن قلبي خرج معها وبقيت أشلاؤه في صدري.

بكيت لأن سعادتي خرجت معها وبقيت تعاستي.

بكيت لأن أفضل ما فيّ خرج معها وبقيت مساوئي.

بكيت لأنني للمرة الأولى أشعر حقًّا أنني مريض.

أنا زين خورشيد مُدمن الكوكايين.

ظللت أبكي حتى اختفى النهار، وعدت لغرفتي، أخرجت الجواب وبدأت في قراءته: أعرف أنك شخص قوي لا يمكن هزيمته بسهولة، أعرف أنك شخص عنيد مهما اشتدت صعوبات الحياة تستطيع مواجهتها بكل شموخ وكبرياء، أُؤمن أنك تستطيع تحمل الضغوطات، وتعرف كيف تمتص الصعاب وتواجهها بطريقتك الخاصة، أحب فيك أن طموحك يصل حد السماء، وأحب أنك تحلم طوال الوقت نائمًا كنت أو مستيقظًا، تحلم وتسعى لتحقيق كل أحلامك، وعقلك المسكين ذاك الذي لا يتوقف أبدًا عن التفكير والرغبة في ابتكار وصنع حياة تليق به. ما زلت أؤمن أنك شخص مسؤول يُعتمد عليه، لا يهرب من المسؤولية، لا يلقي اللوم على الآخرين، شخص يدافع عن أفكاره وأحلامه وطموحاته حتى الرمق الأخير.

لكنني أخشى عليك يا عزيزي.

أخشى أن تبغض الحياة هذه القوة فتستدرجك لدروبٍ مُنهكة وقاسية حتى تسلب قوتك تمامًا، فتصبح كل خطواتك بانكسارٍ وهزيمة، تبغض هذا الكبرياء والعند فتقرر إذلالك وتجبرك على الانحناء أمامها. أخشى أن تنهال عليك بأحداث ومواقف تأكل فيك، أخشى أن تقرر الحياة النيل من هذا

الطموح فتصبح أقرب نجمة تراها في السماء البعيدة أسهل لك من الوصول إلى طموحاتك وآمالك، أن تقضي سنوات لتشيد أحلامك، ثم فجأة تراها تتساقط رويدًا رويدًا أمام عينيك وأنت تقف مكتوف اليدين لا حيلة ولا قوة لإنقاذها، أخشى عليك من الهلوسة، أن تفقد الثقة في تفكيرك على الخروج من الأزمات، أخشى عليك من تنهيدات اليأس والخيبة، الآلام، أنك كل هذا الوقت كنت تطارد سربًا من الدخان أو تكتشف أنك كنت في الطريق الخطأ.

صدقني يا عزيزي.

أنا أثق بك، لكنني أخشى عليك من الحياة.

وتذكر دائمًا، القصة لم تنتهِ بعد.

توقف زين عن الحكي ثم قال: «هانت، لنعد للسيارة؛ لقد اقتربنا من وجهتنا».

ثم واصل: «بعد فترةٍ وجيزة قرابة الشهرين خرجت من المستشفى، تعافيت تمامًا لأنني أدركت أن الخروج من هنا يعني الفوز بماريهان. أول ما اتجهت له بعد الخروج كان منزل والدها، فوجئت أنهم انتقلوا لمنزلٍ آخر، حاولت معرفته لكن دون جدوى، عُدت إلى المنزل وهناك كان استقبال في غاية البرود، كأنني لم أغِب لقرابة عام كامل. فوجئت أن

طاهر قد سيطر بشكلٍ كامل على إدارة أعمال أبي، ويبدو أنه نجح في زرع القسوة في قلبه تجاهي، فاستقبال أبي كان أكثر برودًا من استقبال إخوتي؛ لم أتأثر، وعزمت على التحدث مع أبي لأثبت له أنني شخص آخر غير ذلك الذي أودعه في المستشفى؛ كل محاولاتي لتغيير نظرته السيئة عني كُتب عليها الفشل، لقد ساد انطباعه عني، نظرته وفكرته، كنت أريد أن أقول له أنت السبب فيما وصلت له، لكني أتراجع لأثبت أنني لم أعد شخصًا عدوانيًّا، كنت أقاوم الانتكاسات بكل الطرق الممكنة: أستيقظ صباحًا، أذهب إلى العمل، أعود إلى المنزل، أنام، أستيقظ للعمل، أذهب للعمل، أعود إلى المنزل، وأنام.

حياة مملة وبائسة، فترة من التيه، لم تتقبلني عائلتي ولم يعد لدي أصدقاء، أما الوحيدة التي وجدتُ ضالتي ونفسي معها اختفت بين دروب الحياة، وذات يوم وحين عودتي إلى المنزل مساءً وجدت طاهر يجلس مع أبي، كان مجرى حديثهما هادئًا على غير العادة، اقتحمت مجلسهما فلم يعارضا.

-عليك أن تتقبل الفكرة، المصلحة العامة تحتم علينا هذه الخطوة.

كلمات رد عليها طاهر وقال: أبي، أنت تعرف أنني أُفضّل

مصلحة العائلة دائمًا لكن هذه الخطوة لا أستطيع تقبلها.

رد أبي: يا بُني نحن في الدنيا، أقدّر مشاعرك النبيلة، وأعرف أنني أقسو وأحكم عليك في أمر في غاية الخصوصية، لكنك ابني الكبير، وهذا يستدعيك للتضحية من أجل عائلتك، الحُب والمشاعر لا قيمة لها في حياة سريعة ومتهورة، لا بُدَّ أن نؤمّن أنفسنا بكل الطرق الممكنة، لا أحد يعرف تقلبات الظروف، وأخشى عليكم من الفقر وتدمير كل ما حققنا طيلة هذه السنوات.

تنهد طاهر: حسنًا يا أبي.. حسنًا.

لم أفهم كلماتهما ولم يشاركانني الرأي، فالتزمت الصمت.

خرج طاهر من الغرفة فتابعته: طاهر آسف على كل السخافات التي حدثت بيننا، لقد تعافيت وفهمت الدنيا من منظورٍ آخر، وأريد أن نفتح معًا صفحة جديدة، أنا أخوك الصغير، والله في كتابه العزيز قال: (سنشد عضدك بأخيك)، سأبقى بجانبك وأثبت لك أنني تغيرت، وأريدك أن تساعدني وتقبل الشخص الجديد الذي يقف أمامك، أنا أحبك يا طاهر.

ظل ينظر إليّ وفي داخله كنت أسمع: أخي المُدمن، المشرد، البلطجي، الآن يحدثني بكلمات الله!

عانقني وقال: حمدلله على السلامة يا حبيبي.

تحسنت علاقاتي مع الجميع تدريجيًا بما فيهم أبي؛ ذلك دفعه لزيادة صلاحياتي في العمل، شخص جديد وحياة جديدة، اشتريت كلبًا جديدًا بنفس اسم كلبي القديم «روي» ليؤنس وحدتي، لكن كان ينقصني فقط وجود الفتاة التي كانت سببًا في كل هذا.

وذات يومٍ أخبرني طاهر بميعاد خطبته؛ فرحت له، صحيح حزنت لأنه لم يشاركني الأمر من البداية، لكن الأمر لم يكن شخصيًا، بل علمت أن أبي لم يشارك أحدًا تفاصيل الأمر، من الأساس نحن لا نتشارك تفاصيلنا الخاصة.

وجاء اليوم المنتظر.

-ستكون في غاية الأناقة يا أخي.

كلمات قلتها لطاهر وهو يرتدي البذلة بعد أن قضيت معه كل تفاصيل اليوم، وعدته بزفة تحكي بها البلد. خرج من المنزل واتجه إلى المصور، فانتظرته مع رجال الزفة أمام القاعة، نويت أن أجعله يومًا لا ينسى في حياته، وقد كان، ما إن خرج من السيارة حتى فوجئ بعدد مهول من الألعاب النارية، الفرق النوبية، الفرق الشعبية، مُغني من كبار المغنيين الشعبيين يقف ينتظره ويستقبله في الشارع (عبد الباسط عبودة) تعرفه يا آدم بالتأكيد. واصلت الرقص والاحتفالات

مع الناس، أولئك الذين تفاجأوا مما أعددته لأخي الكبير، ثم خاطفًا ووسط الزحمة، رأيتها، ماريهان.

واصلت الرقص والغناء وأبعدت تلك التخيلات عن رأسي.

حالة سعادة وفرح، شعرت أنني نجحت في صنع حدث بسيط سيظل في ذاكرة طاهر، ثم خاطفًا، ماريهان عروس أخي!

هززت رأسي محاولًا إبعاد هذه الفكرة.

الألعاب النارية تحجب الرؤية يا زين، لنواصل الرقص.

ماريهان عروس أخي!

اقتربت لتأكد وأبعد تلك التخيلات من رأسي.

-ماريهان؟

-زين، حمدلله على السلامة، لم أتوقع خروجك بهذه السرعة، حدثني طاهر كثيرًا عنك، وأخبرته أنني التقيت بك في المستشفى.

ابتسمت لها محاولًا التظاهر بالقوة:

-تهانينا.

ثم تراجعت وسط الحشود، كل الناس يضحكون ويرددون

مع الأغاني، يتراقصون، بينما العزاء.. العزاء في قلبي وروحي.. لقد تحطم قلبي.

مر اليوم ولم يلحظ أحد تغيري المفاجئ، مر يوم هو الأسوأ في حياتي، أسبوع كامل في غرفتي فاقد للنطق، فاقد القدرة على التحدث والنهوض من على سريري.

تخيل أن تُحب شخصًا، تحلم بالحياة معه، ترسم مستقبلكما. تخيل أن تصنع ذكرياتك الوحيدة مع شخص، يُهوّن عليك وتهوّن عليه، ينقذك من وحدتك وتساعده في النهوض من تعثره، تحمل همه ويحمل همك، تحزن لحزنه، وأنت الذي لم تفكر في أمر غيرك أصبحت لا تفكر في أمره. تخيل أن تجد ضالتك بعد سنوات الضلال، أنت الذي لم تنحنِ لرأي أحد، أنت الذي كنت ترفض المناقشة أو التحدث عن تصرفاتك، أنت الذي كنت ترى الحب ضعفًا، وأنت الذي هاجمت كل من محاول اكتشاف الجانب اللطيف في شخصيتك، أنت الذي واجهت الحب بالرفض، والعطف بالقسوة، واللين بالكبرياء، أنت من رفضت مشاركة أحد لتفاصيل يومك، اقتحم حياتك شخص، وأصبح جزءًا أصيلًا من يومك، أقصد كل يومك، علّمك معنى الحُب، انحنيت لاشتياقه وانتظاره، غيرت من نفسك وعدلت كل سلوكياتك ورتبت كل فوضى قلبك وعقلك ليليق به، أصبحت تشتاق

لكلمته ودعمه، وتنتظر أن يرافقك الطريق. أنت الوحش الكاسر الذي لا يملك قلبًا، أصبحت شخصًا مُهذبًا لينًا يحب العالم ويعامله بلطف، ثم فجأة يختفي هذا الشخص، فتظل تبحث عنه بدلًا من أن تبحث عن نفسك، تبحث وتقضي فترة من التيه، وبدلًا من اليأس ترتب فوضويتك أكثر، تسعى لتكون أكثر صدقًا وخلقًا، تستعد أفضل استعداد لحين عودته، ترتب وتستعد وتستعد حتى تكون في أفضل حالاتك.

ثم تحقق الحياة رجاءك فيعود الشخص وتراه، لكن بجوار شخصٍ آخر، تحقق الحياة رجاءك وتراه لكن مع شخصٍ آخر، فلا يحق لك عتابه على الفراق، لا يحق لك التحدث عن مدى اشتياقك له ومرارة انتظاره، لا يحق لك أن تُظهر له أفضل ما فيك حتى يُحبك، لا يحق لك إلا أن تراه من بعيد محرومًا منه بلا حول ولا قوة.

كانت فترة قاسية، واكتملت حين جلست مع أبي وطاهر وأخبرتهما بمشاعري تجاهها.

-هل قالت إنها تحبك؟

قلت: لا لكن أنا من أحببتها.

سأل أبي سؤاله مرة أخرى.

فقلت: ما دام الهدف هو المصلحة فأنا الأولى والأحق.

قال أبي في هدوء: لقد فات الوقت يا زين.

قلت غاضبًا:

لقد حرمتني الكثير من الأشياء، والآن تريد أن تحرمني من الإنسانة التي أحببتها. أنت ظالم يا أبي!

هنا انفجر أبي: أعطي فتاة والدها يملك أكبر مصانع في مصر لابني البلطجي المدمن، أعطي صفقة العمر لشخصٍ مستهتر مهمل مثلك؟! إياك أن تظن أنني أصدق نواياك الطيبة، أنت ملعون يا زين، قلبي غضبان عليك ليوم الدين، وما تقوم به ما هو إلا قناع تخفي وراءه كوارث الله ينجينا منها!

في هذه اللحظة تحطمت بالمعنى الحرفي للكلمة.

لو كان صادقًا في كلماته لما شعرت بكل هذا الحزن، تحطمت يا آدم لأنني شعرت بأنني ملعون مهما فعلت، منبوذ مهما بدوت لطيفًا، قاسٍ مهما كنت لينًا. تحطمت لأنني أدركت أن كل محاولاتي لتحسين الصورة ضاعت هباءً، بأن كل محاولاتي للفوز برضائهم ظنوها خبثًا مني، عوقبت لكن هذه المرة على حسن نيتي. تؤلمنا الظنون السيئة عنا، تؤلمنا نظراتهم السوداء لنا، وأن لوحتنا ستظل بهذا السوء، يؤلمنا أن يساء الظن بنا ونحن نملك كل الخير، وأن تضعنا

الظروف في موضع اتهام بدلًا من الرفق بنا وإعطائنا فرصة أخرى. ربما هذه هي المشكلة يا آدم، أن الناس يستمرون في انطباعهم الأولي عنا، وكأن أخطاءنا القديمة ستظل وصمة عار طوال حياتنا.

تأقلمت كالعادة على الوضع، وبعيدًا عن الدراما التي لا قيمة لها، بدأت في فترة مقاومة جديدة. ألا تتذكر كلماتي الأولى لك أن الأزمة ليست في قسوة الحرب إنما في سرعتها وتتابعها المرهق؟ القسوة في أحداث الحياة السريعة في كل معركة تخوضها قبل أن تنتهي من آثار المعركة القديمة. لقد اكتشفت أنني أخوض معركة بداخلها مئات المعارك، ولا رفاهية إلا المقاومة والمواصلة، حتى الخلاص رفاهية لا أمتلكها. صدقني أنا أحارب طوال الوقت، مهما ازدادت الأمور سوءًا تجدني أقاتل وأحارب، أمام الناس ما زلت حيًّا، لكن لم يرَ أحد أنني احترقت مرارًا من قسوة أبي، أمام الناس ما زلت حيًا لكن لم يرَ أحد أنني قُتلت حين أدركت حقيقة المحيطين بي، وأننا نعيش في غابة لا ترحم الضعفاء، ما زلت أمامهم حيًّا لكن لم يرَ أحد هزيمتي حين أدركت أنني شخص سيئ أيضًا لا يستحق الحب، حين أدركت أن للحياة قواعد لا بُدَّ من احترامها والخضوع لها وإلا دهستك، أمامهم ما زلت حيًّا لكن لم يرَ أحد عدد المرات التي ربت على قلبي وشددت بنفسي حتى أواصل الحرب التي فُرضت عليّ، كنت أبتسم

بينما يحترق قلبي من قسوة الفقدان، الحرمان، الخضوع، وتقبل حقائق لا تعجبني، أمام الناس ما زلت حيًّا لكن لم يرَ أحد أنني احترقت كثيرًا في الخفاء».

صمتَ فجأة ثم ظل يردد باكيًا:

«انظر لقد سرقوا مني صغيرتي.

انظر لقد سرقوا مني صغيرتي.

لقد حطموا قلبي يا آدم.

انظر لقد سرقوا مني صغيرتي».

تغيرت نبرة زين فجأة وأصبحت أكثر حدة وعدوانية:

«وفي الجولة الأخيرة لم أستطع المقاومة، لم أقوَ على مواصلة القتال ضد كل هذه الأحداث، فعادت الرغبة، الرغبة في السلطة، الرغبة في السيطرة، الرغبة في الانتقام، الرغبة في تدمير حياة الجميع، الرغبة في إخضاع الجميع لكلمتي وأوامري، وإذاقتهم من كأس الحرمان والقسوة الذي عانيت منه، سأحرمهم من كل الأشياء التي يحبونها، وأرى قلوبهم تتقطع من الحرمان والتعاسة. نجحت في الكثير من الأشياء، تمامًا كما حدث معك أنت وسيدرا. رغبتي في تدمير هذه العائلة بما فيهم أبي».

نظر إليّ باسمًا ثم قال: «قف هنا واجعلني أقود السيارة».

قلت وأنا أنظر حولي: «نحن في الصحراء».

ضحك ساخرًا: «لهذا قلت لك قف هنا».

نزلت من السيارة وتركت له القيادة، فوجئت بأنه دخل أحد «المدقات الصحراوية».

-أين سنذهب؟

-لا تقلق، قلت لك الأمر يستحق.

واصل القيادة في السواد العظيم حتى وقفنا أمام مبنى ضخم مجهول الهوية، أوقف المحرك ثم قال:

«لم أندم على هذه الرغبة، لم أشعر بالشفقة تجاه أحد، والآن حان الوقت لأخبرك من القاتل الحقيقي يا آدم.. تعال معي».

ما إن اقتربنا حتى ظهر رجل ضخم بشارب كثيف يحمل بندقية وينظر إليّ بحذر؛ ارتجفت فضحك زين: «عيب يا متر، لا تقلق».

-البقاء لله يا زين بيه.

-عم حِميدة لا تخبر طاهر بزيارتنا.

ثم أخرج من جيبه قطعة (حشيش وشريط برشام).

-هذا لك أعد لنا الشاي.

دخلنا المبنى الغربب المظلم، اقتحمنا أحد الأبواب ثم فجأة...

-كوكايين!

ضحك زين:

-بإمكان هذه الكمية صنع نهرٍ موازٍ في مصر بدلًا من صراعاتها مع إثيوبيا على نهر النيل.

-الحاج خورشيد يتاجر في الكوكايين؟!

رد مستهزءًا:

-يتاجر! أبي أكبر مهرب كوكاين في الشرق الأوسط يا آدم.

-أنت تكذب يا زين، أنت تكذب، لا يمكن تصديق ذلك.

ضحك وقال وهو يصحبني في جولةٍ في أركان المبنى:

«قلت لك إنك مُغيب يا آدم، لكنك لم تصدقني».

دخلنا غرفة أخرى وهو يضحك:

«وهذه غرفة الأسلحة لحمايتنا.

بالطبع لا تصدق أن أبي هذا الطيب الوديع كان أكبر مُهرب مخدرات وأسلحة في الشرق الأوسط، هذا ما قصدته في البداية؛ الكواليس دائمًا مرعبة، وأننا نعيش في حفلة تنكرية أفضلهم من يمكنه الحفاظ لأطول وقتٍ ممكن على قناعه المُزيف. أبي حلل لنفسه كل شيءٍ بمنطقيةٍ وطريقة مقنعة، الكوكايين ليتحمل الناس عبء يومهم لأن الحياة لا تعطي لهم فرصة للهروب، الأسلحة ليدافع الضعفاء عن أنفسهم لأن القوي يأكل الضعيف، وبلا شك الأعمال الخيرية ليغفر الله لنا إن كنا مخطئين.

وقد نجح أبي في ذلك، في إبعاد كل الشبهات عنه، كيف تجرؤ على التشكيك في ذمة رجل يعيش أهل قرية بأكملها من خيره وفضله؟ كيف تجرؤ لمجرد التفكير في التفتيش وراء رجل لا يرغب في منصب أو سلطة ومع ذلك يهابه ويحترمه الجميع؟ سيرة طيبة يحسب ويشهد لها الجميع، حتى قبل أسبوعين من وفاته، أراد أن يواجه حقيقته وأنه رجل فاسد. لا أحد يعرف سر هذا التغيير المفاجئ، أتذكر يومها دعانا أنا وطاهر إلى مكتبه.

جلسنا لوقتٍ طويل في صمت، لقد بدا أبي مُتعبًا، لكنني لم أشعر بأي تعاطف معه، فقلت: هل تريدنا لنسمع هذا الصمت؟

نظر إليّ أبي بإنهاك وقال: اخرس يا ملعون!

ثم بدأ: لقد فكرت كثيرًا فيما أنوي، كنت أنوي اتخاذ قراري منذ زمن، لكنني كنت أخشى عليكم من الفقر والجوع، وبما أن هذا لم يحدث، شعرت أنها رسالة من الله لأتخذ قراري، عليكم تصريف كل البضاعة التي نمتلكها.

قلت وقتها: أي بضاعة؟

قال: الكوكايين والأسلحة وكل مصدر دخل يغضب الله.

هنا قال طاهر ساخرًا: أبي كل الاحترام لك، لكن ما زلت لا أفهم ماذا تريد منا؟

قال بحزم: لا أريد منكم، إنما أريد من الله أن يتقبل توبتي ويغفر لي كل ما حدث.

نهضت من مكاني وقلت مستهزءًا:

بارك الله فيك يا شيخنا! لكن القرار ليس قرارك وحدك.

-اخرس يا ملعون!

هنا انضم طاهر لموقفي وقال: لا، زين على حق، القرار ليس قرارك وحدك، بعد أن تستمتع أنت بكل الثروة الطائلة تريد منا أن نضحي بها قبل أن نستفيد بها؟!

قال أبي وبدأ صوته يصبح أكثر حدة: لقد وهبتها لكما والآن حان وقت العودة لطريق الاستقامة.

كنت مُستعدًا للرد عليه، لكنها فرصة مناسبة للصمت وترك حمية الحوار لطاهر الذي انفعل عليه: عُد أو اذهب أنت حيثما تشاء، لكني لن أترك نصيبي في هذه التركة لتخاريفك.

-تخاريفي!

واصل طاهر: نعم تخاريفك، لقد اشتد عليك العمر وأصبحت لا تعي كلماتك وقراراتك، ربما حان وقت التقاعد، الله الذي تحدثني عنه كان يراك من البداية، الآن تذكرت أن تجارتنا تغضبه، وتريد التضحية بنا؟ هذا لن يحدث.

رد أبي محاولًا فرض سيطرته: أتشكك في قواي العقلية يا ابن الكلب؟!

رد طاهر متمردًا: نعم، أنا أفضل من زين لذلك جعلتني المسؤول عن كل شيء، وأنا أفضل منك؛ لولاي لما استطعت أن تصل لما وصلت له، والآن قرارك يثبت أنني أفضل منك ولن أسمح لك بتصديق هذه التخاريف.

نهض أبي من مكانه وقال متفاجئًا: طاهر ماذا أصابك يا بُني؟

-ما لم يُصِبك يا أبي. أقسم لك إن لم تتراجع عن قرارك لبلغت عنك وأنت تعلم أن كل الأوراق مسجلة باسمك، وبدلًا

من أن تقضي أيامك الأخيرة في سريرك تنتظر عزرائيل، ستنتظره خلف القضبان في السجن.

صدم أبي مما سمعه وهو يردد: ارجع لرشدك يا طاهر.

-لا يا أبي لن أعود، ومن الآن وحسب أنت ألد أعدائي إن لم تتراجع عن قرارك، وإلا سيكون رد اعتباري في غاية القسوة.

أصيب أبي بدهشة، لقد فقد النطق، وخرج طاهر وفي عينيه كل شرور الدنيا».

توقف زين عن الحكي بعد أن عزمنا العودة إلى القاهرة، ركبنا السيارة بينما كان يودع عم حميدة وهو يؤكد عليه ألا يقول لطاهر عن زيارتنا.

عاد زين للسيارة وواصل: «في هذا الوقت تدخلت أم خالد وقالت لأبي: لا تحزن منه، هذا حماس الشباب ورغبتهم في الثراء، أرى أن عليك التفكير مرة أخرى في قرارك».

انتهزت الفرصة وقلت: «نعم يا أبي، أرجو أن تعيد التفكير مرة أخرى».

فجأة انفجر أبي: «اخرجا.. اخرجا من مكتبي».

وخرجنا بالفعل.

خلال هذه الفترة اختفى طاهر لمدة أسبوع، لم يذهب إلى

العمل، لم نجده في المنزل، لم نستطع الوصول إليه، ثم عاد من جديد ليعتذر لأبي عما بدر منه. مرت الأوضاع هادئة حتى علمت أن خلافًا حدث بين أبي وطاهر بسبب سيدرا، لكنني لم أهتم بالتفاصيل، للأمانة كنت أنتظر رد فعل طاهر الذي تصنّع الود واللين بعد العودة، الذي كان يراقب بشكلٍ يومي المبنى ويراقب تحركات أبي دون أن يشعر به أحد. طاهر عدواني وانتقامي أكثر مني لكنه أكثر هدوءًا، ويجيد تخبئة الكوارث بطريقةٍ تجعلك لا تشك في أمره، صديقك وأنت تعرفه جيدًا يا آدم، على أي حال ظلت الأوضاع هادئة حتى مقتل أبي».

تنهد زين وهو يشعل سيجارته: «ربما تعرف الآن من القاتل الحقيقي يا آدم».

تنهدت وأنا أقول لنفسي: طاهر! لا مستحيل، هو صديقي الذي أعرفه وأحبه وأعرف نواياه، صحيح في هذه القصة هدمت كل الأصنام والمعتقدات عن العائلة، لكن طاهر أضعف من أن يقتل والده، لقد تغير مؤخرًا، شعرت بذلك، لقد تغير بفعل فاعل، أصبح عدوانيًا ويتحدث كثيرًا عن أفضليته على الآخرين، هو الذي لم يهتم بشكله ومظهره أصبح يهندم نفسه طوال الوقت، لقد تغير وأصبح أكثر عربدة، هو الذي قضى حياته يخجل من ظله، لكن كلها تصرفات ونزوات يمر بها أي

رجل، لا لا مستحيل أن يكون طاهر.

«صدق إحساسك يا آدم صدق إحساسك».

أفزعني صوت أم خالد، نظرت للمرآة فلم أجدها، بينما كان زين غارقًا في سيجارة الحشيش.

واصلت القيادة.

«صدق إحساسك يا آدم.. صدق إحساسك».

نظرت مرة أخرى وقلبي يخفق.

أم خالد!

أوقفت السيارة بشكلٍ مفاجئ، هنا قال زين ساخرًا:

«يا متر دخان الحشيش سطلك؟!».

-أنا مرهق، تعالَ وواصل القيادة يا زين.

ضحك مرة أخرى:

«أنا آسف لهدم كل نظرتك الجميلة عن أبي وصديقك، لكنها الدنيا».

وصلنا القاهرة بعد صمتٍ طويل، توقفنا أمام منزلي.

-حمدلله على السلامة يا متر.

قلت يائسًا: «ما علاقة رودينا بأم خالد؟».

ضحك زين: «متى سنلتقي؟».

-غدًا سنلتقي في القصر، والآن أجبني، ما علاقة رودينا بأم خالد؟

قال: «اسأل صديقها عابر».

خرجت من السيارة.

-السيارة يا مترا!

-اتركها في مكانها يا زين.

الآن حان وقت العودة إلى المنزل والنوم، فحتى رأسي لم يعد قادرًا على تحمل فكرة واحدة.

غدوت في نومٍ عميق، وفي الصباح استيقظتُ مُنهكًا؛ جسدي لا يساعدني على النهوض، قدماي لا تساعداننني على الوقوف، التفكير قد وصل لحدته وبدا وكأنه يبتلعني، لقد اعتدت على هذه الحالة لكنها أصبحت أكثر بؤسًا وقسوة، الاعتيادية لا تعني غياب الآلام، إنما تعني غياب حزننا على ما وصلنا له. استيقظت وفي رأسي كل الأفكار تتصارع وتتخبط، الآن كل أصابع الاتهام تشير ناحية طاهر، الذي وحتمًا سيجمعني به لقاء، لكن اليوم اللقاء الثاني مع العائلة

ولا بُدَّ أن أستعد ذهنيًّا لهم.

نهضت من على الفراش أخيرًا، أعددت قهوتي، ثم أعدت تنظيم العائلة.

سيدرا تلقي الاتهام على رودينا وطاهر.

ياسر يلقي الاتهام على زين.

زين يلقي الاتهام على طاهر.

الحقيقة لا تزال تائهة بين هؤلاء، كلما أمسكت بخيط فوجئت أنني أطارد سربًا من الدخان، إحساسي لا يزال مشوشًا، ثم في القضية الحرجة آخر ما يمكن الاستناد علية هو الإحساس الشخصي.

أم خالد، عابرا!

شخصيات ربما تملك الحقيقة.

غاضبًا مزقت الورقة، ثم خرجت، ما إن دخلت السيارة حتى وجدت ورقة على مقعدي.

«ما دمت تملك حارسًا أمينًا لن يستطيع اللصوص دخول القصر».

قرأت الورقة أكثر من مرة، ثم فهمت.

عم حميدة!

الفصل الخامس

مُسرعًا انطلقت بسيارتي إلى المبنى القديم، عم حِميدة يملك الحقيقة، لا وقت للتفكير، أريد أن ينتهي كل هذا وما دامت هذه اللعبة تقودها الرسائل فلنركض خلف رسائلها ونحاول اكتشاف الحقيقة، عم حميدة مفتاح حل هذه اللعبة بكل تأكيد، هو الشاهد الوحيد على اجتماعاتهم ولقاءاتهم، وأبعدهم عن الكواليس.

ما إن بدأت في الطريق المؤدي إلى الفيوم حتى رن الهاتف.

-مساء الخير أ/ آدم.

أوقفت المُحرك.

-مساء النور.

-أنا عابر صديق رودينا هل يمكنني مقابلتك؟

-متى؟

-الآن إن استطعت، أنا في ميدان التحرير.

تنهدت ثم أدرت المحرك وعُدت من جديد للطريق المؤدي إلى وسط المدينة: «سأعود لك لاحقًا يا عم حميدة».

وصلت إلى ميدان التحرير، وهناك اتصلت بعابر الذي

وصف لي أحد المقاهي الشبابية ينتظرني هناك.

في حي وسط البلد هنا حيث ذكريات المراهقة وبداية الشباب، كل الفنانين والمُبدعين، السياسيين والفاسدين والمتطرفين، هنا تعاقب الأفكار واجتماعها في طاولةٍ واحدة، هنا حيث أكبر ملتقى للأمراض والتشوهات النفسية، وهنا حيث انطلاقة حملات التمرد والثورة، وهنا حيث نشأة المُلحد والمؤمن والعاقل والمجنون، تتغير الأجيال ويبقى هذا الحي ثابتًا بكل ما فيه.

شخصيًا لم أعد أحب هذا المحيط، الذي لم يعد يكترث كثيرًا بما يحدث حوله، ما زال مرتادوه لا يحملون للدنيا عبئًا، حتى من يفكرون فيها تجد نظراتهم سطحية ومُبتذلة، لكن حتى هذه النظرة ترجع لأعمارهم الصغيرة، عقولهم المشتتة، وقلوبهم الهشة.

-أعرف أن المكان لا يلائمك يا أستاذ آدم.

كلمات افتتح بها عابر حديثه معي فقلت: «لا يهم، كان من المفترض أن نلتقي اليوم في القصر، فلماذا طلبت مقابلتي الآن؟».

-لعقد معك صفقة.

نظرت حولي ساخرًا من حقارة المكان.

قال بثقة: «نعم هذا هو المكان المناسب، من مثل هذه الأماكن خرجت القرارت المصيرية، الأحداث التي غيّرت مصير الأمم، الثورات وحتى الانقلابات».

وضعت يدي على خدي: «ها وماذا بعد يا عابر؟».

قال: «كلانا يبحث عن المصلحة، أنت تريد معرفة الحقيقة والفوز بمستحقاتك، وأنا أعرف الحقيقة وأريد تأمين مستقبلي، إذن نحن متساويان، ينقصنا الاتفاق فقط».

في لغة الجسد لا يبدو كاذبًا، لكنني لا أثق في هؤلاء المراهقين.

واصل عابر الذي بدا هادئًا أكثر مما ينبغي:

«ولأثبت لك حسن النية، غدًا سأرسل لك ظرفًا، لا تفتحه إلا في اللقاء الأخير مع العائلة، إن ساعدك فلن تبخس حقي، وإن عثرت على الحقيقة دون اللجوء له فكأن شيئًا لم يكن».

-ظرف؟

هز رأسه: «اعتبر ما قلته هذيانًا. لننتظر ما سيحدث اليوم، لكن تذكر.. نسبتي من أرباحك ٢٥٪».

ضحكت ساخرًا ثم نهضت من مكاني.

قال وهو يبادلني الضحك: «أعدك ستعاود الاتصال بي».

خرجتُ نادمًا على الوقت الضائع مع شخصٍ تافه مثل عابرا! لا يزال هناك متسع من الوقت للذهاب إلى عم حميدة والتحدث معه.

اتجهت إلى طريق الفيوم، وهناك انطلقت بسرعةٍ جنونية وفي رأسي هدأ استهزائي بعابر وعاتبت نفسي لأنني لم أُعطِ له فرصة لتمهيد ما يملكه من حقائق والمساومة عليها كما أراد. غريب تصرفك رغم أن مهنتك تجعلك تفتش عن الحقيقة ولو في رأس مخبول، أظن كان يستحق فرصة لنستمع له.

وصلت المبنى ومعه أوقفت المُحرك والأفكار التي في رأسي، المثير للانتباه أن المبنى تغير شكله عما ذهبت له أمس، شيء ما غير طبيعي في المبنى، اقتربت أكثر فلم أجد عم حميدة، وصلت للباب ففوجئت بأنه مفتوح.

«عم حميدة! يا عم حميدة!».

ظهر أخيرًا بملامح عبثة.

-ما الذي أتى بك؟ وأين زين بيه؟

قلت بعد أن ابتلعت ريقي:

«جئت لأخبرك جزءًا من وصية الحاج خورشيد».

نظر حولي حتى يتأكد أنني جئت وحدي، ثم قال مشيرًا للسيارة: «هذا ليس المكان المناسب لها»، أشار بإصبعه ناحية أحد أبواب المبنى وقال:

«انتظرني بسيارتك أمام هذه البوابة»، ثم تركني واتجه للبوابة الموعودة، بينما عدت لسيارتي لأغيّر مكان ثباتها.

فتح البوابة ثم أشار ناحية البدروم وقال:

«ضعها هناك ولا تتأخر».

دخلت بالسيارة ففوجئت بعددٍ كبير من السيارات ثابتة في مكانها، بينهما من تشعر وكأنها لم تتحرك منذ سنوات.

-قلت لا تتأخر.

خرجت مسرعًا فوجدته ينتظرني عابثًا.

تابعته حتى وصلنا لغرفته، دون أن يتحدث معي قدم الشاي، ثم أمسك الجوزة وقال:

«ها يا أفندي، ماذا قال الحاج خورشيد عني؟».

قلت محاولًا افتعال كذبة منطقية:

«قبل وفاته قال إنك الصندوق الأسود لهذه العائلة،

وحمايتك حتى يتم تقسيم الميراث أمر حتمي عليّ».

رد ساخرًا وهو يرمق جسدي النحيل:

«أنت تحميني أنا؟!».

قلت دون أن ألتفت لسخريته:

«نعم، وقد أهدى لك أمرًا طلبته منه كثيرًا».

رد الرجل: «أرض الزيتون؟».

هززت رأسي: «نعم، في مقابل مساعدتك لي في بعض الأسئلة حتى يتم تقسيم الميراث وتوزيع التركة بعدل الله».

قال بعفوية: «أي أسئلة؟ وما الضمانات لما تقوله؟».

قلت: «أنت تعرف يا عم حميدة أنني المحامي المسؤول عن العائلة، صحيح لم ترَني من قبل، لكنني المسؤول عن عائلتك أيضًا. أنت لم ترَ عائلتك منذ خمسة أعوام تقريبًا، تحديدًا بعد قتلك لابن عمك لخلافكما على أرض الزيتون، وقد تكفل الحاج خورشيد بحماية زوجتك وابنك الوحيد. ألم تحن العودة للديار والعيش مع ابنك وزوجتك في أرضكم المنهوبة؟».

صب لنفسه كوبَ شاي آخر.

إذن هو مُستعد للاستماع، فواصلت: «تعرف أن الحاج خورشيد رجل الخير والكرم رحمة الله عليه، كان عادلًا بين أبنائه، لكن في أيامه الأخيرة ظهرت بعض الخلافات بين أبنائه، خصوصًا بعدما أراد التوبة عن تجارة الكوكاين والأسلحة والاعتكاف على تجارة الأخشاب والأعمال الخيرية».

نظر إليّ الرجل باستغراب وهمهم: «التوبة عن ماذا؟».

رددت بين نفسي: «حسنًا هذا الأبله لا يؤمن أن هذه التجارة إثمًا كبيرًا، سيلقي اللوم على الحكومة أنها لا تساعد الفقراء، وبالتأكيد سيحدثني عن الأعمال الخيرية التي يقوم بها الحاج خورشيد، وأن المخدرات هي المادة السحرية التي تجعل الناس يتحملون ضغوطات وأعباء الحياة. هذه الفلسفة القبيحة التي يؤمن بها كل متعاطي وتاجر مخدرات، وأنا مثلهم».

لكنه قال غاضبًا: «حاشا لله، الحاج خورشيد لا يعلم بأمر هذه التجارة من الأساس».

-ماذا قلت؟

واصل بعفويةٍ وثقة: «نعم يا بيه، الحاج خورشيد لم يأتِ ولو مرة واحدة، لقد شدد عليّ أبناؤه ألا يعرف بهذا الأمر

وإلا نلت ما أستحق منهم من عقاب».

كنت في حالة صدمة مما سمعت، لكن خوفًا من تفاقم الأمور بدأت في لعبة جديدة، فقلت:

«حسنًا، الآن يمكنني الوثوق بك يا عم حميدة بعدما تأكدت أنك تعرف تفاصيل هذه العائلة جيدًا. دعني أسألك سؤالًا أخيرًا:

«لم يشعر الحاج خورشيد بهذه التجارة ولو مرة واحدة؟».

ضحك الرجل وقال:

«الأب يا آدم بيه يحاول بشتى الطرق أن ينصح أبناءه ويوجههم، لكن حين يصرون على أفعالهم يسعى بكل الطرق لحمايتهم من شيطانهم، حتى فترة ليست بالقريبة كنت أسمع طاهر وزين يتناقشان حول هذا الموضوع، حتى هدأت الأوضاع تمامًا واشتدت ثورتها من جديد قبل وفاة أبيهم، كانا يجتمعان طوال الوقت، أسمعهما يقولان أن ما ينوي أبوهما القيام به أمر جنوني سيجعلهما يقضيان حياتهما في السجن. لم أفهم ماذا يقصدان؟ لكنني عرفت أن الخلافات القديمة عادت مرة أخرى».

-ويبدو أنها لن تنتهي أبدًا يا عم حميدة. ستسمر هذه الخلافات ما دام كل شخص لا يفكر إلا في مصلحته

الشخصية والنجاة وحده، ما دام كل هؤلاء يتعاملون مع الدنيا بمبدأ «أنا ومن بعدي الطوفان» فحتمًا سيغرقهم جميعًا. سنلتقي مرة أخرى يا عم حميدة، وفي المرة القادمة سأصحبك لتعود وتعيش حياة سالمة هادئة مع عائلتك.. أعدك.

ابتسم الرجل الذي ارتاح لحديثه معي: «الله يظهر الحق».

خرجت من غرفته الوضيعة وعدت لمخزن السيارات، محاولًا العثور على أي خيطٍ آخر يمكنني الاعتماد عليه.

لقد رأيت هذه السيارة من قبل.

-عم حميدة، من صاحب هذه السيارة؟

-رودينا هانم.

-رودينا؟!

-نعم رودينا هانم، هذه سيارتها القديمة.

سألته وأنا أفتح باب سيارتها، سألت محاولًا معرفة إن كانت رودينا معهما وتعرف كل هذه التفاصيل أم تجهلها:

«من أتى بها إلى هنا؟».

فجأة سمعنا صوت سيارة قادم من الخارج، تسمرت في

مكاني، وجودي هنا كارثة حقيقية قد يعطل مسار كل شيء.

-اهرب يا آدم بيه، لو أن أحدًا رآك هنا حتمًا سينالون مني.

عدت مسرعًا لسيارتي، أشار إلى بوابة داخلية.

صوت السيارة يقترب أكثر.

-هذه بوابة نفق داخلية ستخرج منها على الطريق الرئيسي، أسرع.

-نفق!

-نعم نفق، أسرع.

انطلقت بسيارتي داخل النفق الذي صُنع بإتقان حتى وصلت للطريق الرئيسي، ومن هناك سلكت طريق العودة للقاهرة، وفي رأسي تساؤلات أخرى، تساؤلات تكاد أن تبتلعني.

من البداية لم أصدق أن الحاج خورشيد يتاجر في المخدرات والأسلحة، هذا الذي أعرفه جيدًا، صحيح لم أرَ في عينيه الحب، وكانت علاقتنا عملية من الدرجة الأولى، لكنني أعرفه وأعرف رفضه التام لهذه التجارة الدنيئة، أعرف أيضًا أنه كان يسعى للحفاظ على أبنائه من أهواء الدنيا، فمن المستحيل أن يساعدهما في هذه التجارة. شعرت بشيءٍ من

الرضاء أن نظرتي تجاه الحاج خورشيد لم تتغير، لكن ثمة تساؤلات أخرى.

لماذا تعمد كل هؤلاء تشويه صورته؟ ولماذا ألقوا التهمة على بعضهم البعض؟ من المستفيد الحقيقي من وفاته؟

ثم.. هل حقًّا رودينا أحد أطراف هذه القضية؟

تأخر الوقت والآن العائلة تنتظرني. من جديد إلى القصر حيث اللقاء الثالث، الآن أعود لهم بتساؤلات جديدة، معلومات ومواجهات حقيقية، الآن يمكننا البدء مرة أخرى.

وصلت القصر وهناك وجدتهم جميعًا مُجتمعين، لكن نظراتهم كانت غريبة، كأنهم يخبئون أمرًا ما عني، جلست على الكرسي.

-ماذا حدث؟

تشاوروا بالأعين.

همهم بعضهم فاحترمت رغبتهم في إخفاء ما لا أعلمه.

أشعلت سيجارتي ثم بدأت:

«تعرفون من البداية أنني مُنصفًا تجاهكم، وأنني لن أبني أحساسيسَ إلا بعد التأكد من وجود دلائل، كل يوم يحدث أمر يشير ناحية القاتل، لكن سرعان ما يختفي، ما زلت أبحث

وما زال القاتل الحقيقي بينكم».

ابتسم دكتور ياسر بخبثٍ وقال:

«ربما المشكلة أنك ما زلت تعتقد أنك تبحث في المكان المناسب».

هذا الخبيث لا ينطق عبثًا، إن نطق أصاب، وإن صمت خطط. نظرت إليه وقلت: «ماذا تقصد؟».

أجاب وهو ينظر لعابر: «يعني أنك حاولت مع زين، ثم حاولت مع سيدرا، وحاولت معي، وربما اليوم ستبدأ محاولاتك مع رودينا، وغدًا مع طاهر، وأكاد أقسم أن النتيجة ستكون واحدة؛ بلا جدوى».

ضحكت ثم نهضت متجاهلًا كلماته، ثم أخرجت الهاتف من جيبي ووضعته في منتصف الطاولة:

«لقد أرسل إليّ أحدهم مقطعَ فيديو لرودينا بالفعل، لكن ليست برفقة عابر، إنما برفقة أم خالد يوم الحادثة في تمام الساعة الثالث فجرًا».

ضحكت سيدرا:

«الدجالة التي لم تحبها يومًا. المصالح هي الوحيدة القادرة على جمع ألد الأعداء من أجل هدفٍ مشترك».

نهضت رودينا غاضبة: «كفى هذا الأسلوب الوضيع! الأمر لا علاقة له بما يدور في رأسك».

-حسنًا دعكِ من الأسلوب الوضيع وأخبريهم سبب لقائك بها.

-لا يمكنني قول هذا.

-نعم فأنتِ لا تملكين أبًا يتحكم فيكِ ويسجنك لخدمته في المنزل! تسيرين على حل شعرك بلا رقابة!

نهض طاهر واقترب من رودينا غاضبًا:

«ماذا كنتِ تفعلين في هذا الوقت المتأخر؟».

تلعثمت رودينا ولم ترد.

كرر طاهر سؤاله، فرد دكتور ياسر: «لإسقاط الجنين يا طاهر».

كلمات أثارت غضب طاهر الذي انقض عليها بالضرب المبرح، وسط حالة ذهول وصمت من الجميع إلا عابر الذي حاول إنقاذ رودينا من قبضة أخيها. هنا تدخل ياسر قائلًا:

«مسكين عابر! يدافع عن ابنه الذي مات، وزوجته التي قتلت أبيها».

-اخرس يا كلب!

كلمات تبعتها صفعة قوية من عابر على وجه ياسر الذي بادله الضرب، وعمّت الفوضى وبدأ شجار لا مبرر له.

لا أعرف ماذا حدث؟ لكنني كنت في حالة ذهول، شجار عدواني وكأنهم في ساحة قتال؛ زين وطاهر ينهالا بالضرب على بعضهما، سيدرا تحاول قتل رودينا، بينما احتد الشجار بين ياسر وعابر، ثم فجأة، اقتحم أحدهم الغرفة، وبصوتٍ حاد: «أهذه تربية أبيكم لكم؟».

توقف الجميع !

-أم خالد !

-عودوا لأماكنكم ولا تنطقوا إلا بعد أن آذن لكم.

عاد الجميع إلا رودينا التي كانت تجلس على الأرض وتنظر لها بعدوانية، فوجهت أم خالد نظرتها لها وقالت في حزم: «قلت عودوا لأماكنكم».

سادت حالة صمت منقطعة النظير، كانت العجوز الهادئة تنظر لهم جميعًا في غيظٍ شديد ثم قالت:

«أعرف أن أباكم قد قُتل، وأعرف أن القاتل بينكم، لكنكم لا تبحثون عن الحقيقة، لا تبحثون عن القاتل، لكن تلقون التهم

على بعضكم البعض؛ هذا ما يجعلكم جميعًا في موضع اتهام. في اليوم الأول كان زين هو المُتهم، وثبتت كل الدلائل عليه، وفي اليوم الثاني اتجهت الاتهامات لسيدرا وزوجها، والآن لرودينا، وغدًا سيكون طاهر، كأنكم تفعلون ما فعل إخوة يوسف مع أخيهم. لن أتدخل في الأمر حتى يظهر الحق، لكنني سأدافع عما أعرفه.

ليلة الجريمة التقيت برودينا، وتمامًا كما لمّح ياسر لعملية إجهاض، لكن لا علاقة لعابر بالأمر، كان ابن حسن».

هنا نهض طاهر من مكانه متجهًا لرودينا:

«العاهرة التي تجلب العار لنا!».

-اخرس يا حقير!

ردت أم خالد: «من جلب العار لأهله يا طاهر هو أنت».

نظر طاهر إلى العجوز متوترًا ساخرًا:

«هذا ليس محل نقاشٍ الآن».

-لكن كان بإمكانك تدارك الموقف سريعًا بدلًا من تشويه صورة حسن أمام أبيك لأنك كنت تخشى على مكانتك.

قالت سيدرا: «تحاولين الدفاع عن عاهرة يا أم خالد؟!».

ردت العجوز: «رودينا لم تقتل بنفسها حتى لو كانت أكثر من لديها دافع للقتل».

ردت سيدرا متحفزة: «أي دافع؟! هي أفضل من تعيش وتستمع بالحياة بيننا، الابنة المرفهة التي يخضع العالم لأوامرها، الحسناء التي حققت كل أمنياتها وأحلامها، أي دافع للقتل؟ ألا ترين ما حققته؟».

رد ياسر موجهًا غضبه لعابر:

«وهذا الأبله هو من ساعدها على القتل».

هنا ابتسم طاهر وقال:

«القاتل هو حسن الذي أراد الانتقام من عائلتنا وتشتيتها».

لم ترد رودينا. طاهر بغضبٍ وعدوانية وهو يستعد للرحيل:

«سأعود بحق أبي وشرف أختي، ثم نصفي الحسابات بيننا يا رودينا».

رد عابر ساخرًا: «الجميل في شخصك يا طاهر أنك تسعى بكل الطرق الممكنة لإبعاد الشبهات عنك، مع أنك تعرف أن في الكواليس ربما أنت الوحيد الذي تجيد مثل هذه الأفعال الدنيئة».

واصل طاهر غضبه: «يا ابن الغازية!».

ضحك عابر: «الغازية التي احتجت لخدماتها أليس كذلك؟».

عمت فوضى من جديد، توقفها أم خالد من حينٍ لآخر، ثم تعود وتشتعل من جديد.

ظللت صامتًا أتابعهم، أسمع كلماتهم وانفعالاتهم وتفضحهم ملامحهم، فوضى وهروب، لكن مسألة معرفة القاتل أصبحت قريبة، أقرب من أي وقتٍ مضى.

-كيف الوصول إلى حسن؟

-حسن لم يقتل يا آدم صدقني.

كلمات رودينا قاطعتها سيدرا:

«تدافعين عن قاتل أبيك يا عاهرة؟!».

صرخت رودينا: «لم يقتل حسن، لم يقتل».

رن هاتف زين.

-ماذا؟

ساد الصمت فجأة.

-العثور على جثة غفير ملقى على طريق مصر الفيوم.

عم حميدة!

هذا ما كنت أشعر به.

أخذ زين مفاتيحه الخاصة وخرج على الفور، تبعه طاهر، ثم تبعتهما، فأوقفني طاهر: «لن تأتي معنا يا صاحبي».

ثم انطلق بسيارته.

وقفت عند مدخل القصر عاجزًا عن القيام بأي شيء، حتى خرجت رودينا عليّ بانكسار فتاةٍ انفضح أمرها.

-لم أقتله يا آدم، لم أقتل أبي صدقني.

نظرت لها وقلت: «الكذب والصدق لا علاقة لهما بما نحن فيه يا رودينا، أنا أصدق الدلائل والمعطيات، أصدق الإثباتات، أما صدق كلماتك دون دليل فتبقى مجرد كلمات ومحاولات للدفاع عن نفسك، أليست هذه فلسفتك في أعمالك الأدبية؟ على أي حال دعينا ننتظر ما سيحدث فيما بعد».

تنهدت رودينا وعادت إلى القصر. عاودت التفكير في أمر عم حميدة، لقد شاركت في قتله دون قصد، لقد كان خائفًا حين رآني، لكن كبرياءه الصعيدي منعه من إظهار كل مشاعر الخوف. كنت أعرف خطورة الذهاب لـه بمفردي، وأن للحفاظ

على سرهم الدنيء لا بُدَّ أن يكون حارسهم أمينًا.

لقد اعتبروا لقائي به بمفردي خيانة، كنت أتوقع حدوث ذلك.

لقد ضحيت به من أجل الحقيقة.

فكرت في إنهاء هذا الكابوس، فكرت في نفسي ومعرفة القاتل، فتسببت في قتل شخصٍ آخر يعول أسرة كاملة.

رن الهاتف، رسالة جديدة.

«الفيل الذي قُتل كان بإمكانه تهديد الملك، الحصان ما زال حيًّا، يمكننا المحاولة مرة أخرى».

رميت الهاتف على الأرض.

المختل الذي يلعب بعقلي وأفكاري وظنوني.

المُختل الذي يعرف الحقيقة ويبخل عليّ بإخباري بها.

المُختل الذي يقودني ناحية الجنون.

انطلقت بسيارتي إلى المكتب.

تعبت.

تعبت من هذه اللعبة.

تعبت من التفكير.

والآن عليّ مواصلة الثبات والمواجهة.

لقد كلفني كثيرًا هذا الهدوء.

ربما عليّ التصرف بأكثر عدوانية وحدة.

أخرجت ما تبقى من الهاتف، وبصوتٍ عالٍ قلت:

«اسمعيني يا رودينا، أقسم لكِ إن لم تساعديني سأودعكم جميعًا في السجن، هل تفهمينني؟ أقسم لكِ سيلتف حبل المشنقة حول رقبتكم جميعًا».

بصوتٍ متردد قالت: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

-أعطِني عنوان حسن.

-لا أعرفه.

-لقد أقسمت أنني لن أترككم إلا بعد أن يلتف حبل المشنقة حول رقبتكم.

-أقسم لا أعرفه، لقد غيّر عنوانه منذ فترة.

أغلقتُ الهاتف في وجهها وأنا أعرف أن الوحيدة التي لن تتردد في مساعدتي انتقامًا منها هي سيدرا، وكما توقعت تمامًا لم تبخل عليّ بالمساعدة، بل قالت إنها تعرف عنوانه

الجديد. سألتها: «كيف عرِفتِ عنوانه؟»، فتهرّبت من سؤالي: «هذا ليس الوقت المناسب للاستجواب».

على الأقل عرفت بعض الأشياء عن مخزن الفيوم وحياة عم حميدة، لنذهب إلى حسن. انطلقت بالسيارة إلى العنوان الذي أخبرتني به سيدرا، ما إن وصلت حتى فوجئت أنه عنوان أحد الفنادق القديمة في ميدان طلعت حرب (وسط البلد).

-مساء الخير.

بملامح عبثة قال موظف الاستقبال: «لا توجد غرف خالية».

-أريد أن أسألك عن شخصٍ ما يقيم هنا.

سحب الشاب العابث النفس الأخير في سيجارته، ثم قال بتوترٍ واضح: «خير يا معالي الباشا، لقد أرسلنا الكشف الدوري للزبائن للقسم».

شعرت أنه أساء فهمي وظن عني أنني أحد رجال الأمن، والحقيقة كانت فرصة مناسبة لمعرفة ما أريده منه، فقلت: «الأمر أكبر من كشف دوري عن الزبائن، حسن ماذا تعرف عنه؟».

-حسن الصياد هو مقيم دائم في الغرفة رقم ٧٧.

نظرت إليه نظرة رجال المباحث الذين أتعامل معهم بشكلٍ يومي، فقال: «تعال يا باشا، هو بالخارج ولن يعود الآن، إن أردت تفتيش الغرفة.

ابتسمت ابتسامة رضاء عنه، ثم تبِعته:

«هذه غرفته يا قائد، هو يقيم هنا منذ شهرين».

قلت بثقةٍ حتى يكتمل الدور:

-نعم أعرف هذا.

فتح الغرفة ثم وقف على بابها وقال:

«أنا أحترم رجال الشرطة، بعضهم يأتي إلى هنا بإذن رسمي لتفتيش الغرف، والآخر يأتي لمهام سرية، لكن لهذا ضريبة أيضًا، أنت تعلم يا قائد أن الحياة صعبة».

أخرجت من جيبي قطعة حشيش أحتفظ بها لحل الكثير من الأزمات المشابهة: «ستجعل الحياة سهلة».

ابتسم الشاب المهترئ، ثم أفسح الطريق وعاد لمكانه. دخلت غرفة الشاب الذي لا أعرف عنه إلا اسمه «حسن الصياد».

غرفة فوضوية أقرب لمقلب زبالة، ملابس على الأرض، زجاجات كحول في كل مكان، أوراق مبعثرة على السرير، آلات موسيقية، ملابس تنكرية، وصناديق تخرج منها أدوات كهربائية وإلكترونية لم تُستخدم من قبل، الشيء الوحيد اللافت في الأمر هو كم الكتب المرصوصة بعناية على الأرض.

«الجريمة والعقاب» ديستوفيسكي، «هكذا تحدث نيتشة»، «مقدمة ابن خلدون»، «عالم صوفي»، «رجال حول الرسول»، «مئة عام من العزلة»، «الدودة الهائلة»، «الدين والسياسة»، «فتوحات إسلامية»، «محاكمة الآلهة».

مكتبة غريبة ولا توضح ميول وتوجه صاحبها. بين الكتب وجدت مطوية، فتحتها لأكتشف أنها رسالة شخصية:

«عزيزتي رودي..

في الحرب يُقتل الأبرياء، كل الأبرياء، حتى أولئك الذي ينفذون أوامر السادة. في الحرب لا بُدَّ من التضحية حتى تنتصر، كل شيءٍ مباح في سبيل أن تنتصر، كل ما تملك فداء للحرب ما دمت قررت خوضها وتقبل قوانينها وأحكامها. في الحرب تهدم الأحلام من أجل بناء أحلامٍ جديدة، تقطف الأزهار في ربيعها حتى تُزرع أزهار جديدة، الحياة صعبة، وللفوز بمعركةٍ واحدة لا بُدَّ أن تنهزم وتنكسر آلالف المرات،

والوصول إلى النهاية لا يحتاج إلا أن تتعثر مئات المرات، تيأس وتشعر بالهزيمة، ثم تعاود الركض وتنطلق وتندفع بكل قوةٍ ناحية طريقك، وأنا قد قدمت نحوك بكل قوة، قدمت نحوك بكل ما أوتيت من طاقةٍ حاملًا معي كل أحلامي وأهدافي وطموحي الذي لا حدود له. كنتِ في الجانب الآخر من الدنيا تطالبين مني عبور النهر للفوز بكِ، ورغم استعدادي لهذا العبور الذي أنت تعلمين كم سيكلفني هذا، إلا أنني تراجعت حين شعرت بأنك أضعف من إرشادي على بوصلة الطريق، تطالبين مني العبور لكنكِ لا ترشدينني للطريق الصحيح، تطالبين مني خوض كل الحروب لأجلك، لكن يديك ترتعشان ما إن تأتي فكرة أن تكوني طرفًا فيها، حتى تتوارين بين الغيوم، فتتوقف قداماي، وأقرر العودة لدياري، فتبكين مرة أخرى، فتشتعل النيران في صدري وأعزم على البدء من جديد، آمالًا أن تكون دموعك استفاقة جديدة لطاقتك، لإدراكك لحقيقة أن يضحي كلانا حتى نحصل على ما نريد، ثم تعودين مرة أخرى بين الغيوم. لقد تعبت يا رودي من هذه اللعبة، الشد والجذب والركض نحوك والاقتراب مني والابتعاد عني».

شعرت بالملل، أغلقت الرسالة التي لم أفهم منها حرفًا واحدًا، لم أجد شيئًا واحدًا يمكنني العثور عليه يربط الأحداث ببعضها. في النهاية قررت مواجهة الصياد، فخرجت

من الغرفة ورحت للشاب الهذيل موظف الاستقبال، سألته: «أين أجد حسن الصياد؟».

أجاب: «كباريه حدوتة في الهرم، لكن لا تنسَ أن تقل لهم أنك من طرف الصياد حتى يسمحوا لك بالدخول».

خرجت من الفندق وانطلقت لحي الهرم هناك في أحد الشوارع الضيقة، مبنى قديم على وجهته صورة لراقصة استعراضية «نعمة»، وحارس مفتول العضلات، أوقفت السيارة ثم اقتربت منه؛ اعترض طريقي غاضبًا وسألني: «هل تعرف أحد لتأتي إلى هنا؟».

ابتلعت ريقي من غضبه وقلت: «حسن الصياد».

أفسح الطريق وواصل غضبه، دخلت الملهى الليلي، هنا لا أحد في وعيه، الجميع سكارى تفوح منهم رائحة البيرة الرخيصة، ضحكات نساء هنا، شجار وصدام هناك، راقصة رشيقة تتمايل على أجساد الرجال، خصوصًا الذين يرتدون الملابس الخليجية، ويلقون عليها الأموال، ونادل يسب ويلعن الجميع، فوضى وضجيج ولا أحد يمكنني سؤاله عن حسن الصياد.

في الزاوية هناك وجدت شابًا يجلس وحيدًا، يرتدي بذلة رمادية، شعره كثيف بملامح خمرية حادة، وشارب ثقيل،

ويتابع الحضور بنظراتٍ خاطفة، ثم يعود ليصب لنفسه كأسًا من زجاجة الفودكا الموضوعة أمامه، وبنرجسيةٍ يسحب نفسًا من سيجارته ليطلقها في العنان وهو يختلس نظرات جديدة للحضور.

اقتربت من طاولته، سحبتُ كرسيًّا وجلست أمامه، فقال وهو يبتسم: «أهلًا أستاذ آدم».

-هل تعرفني؟

أجاب: «بالطبع، أنت المحامي الخاص بالحاج خورشيد، ولقد جئت إليّ حتى تعرف حقيقة وفاته، لقد توقعت هذا».

أعجبني ذكاؤه، لكنني استخدمت أسلوبًا مغايرًا في التفكير، فقلت: «لا، صحيح أن الأمر يرهق عقلي، لكنني جئت لأعرف طبيعة العلاقة التي جمعتك برودينا».

نظر إليّ باستغراب وسأل: «وما قيمة هذا في قضيتك؟».

قلت: «لأنني مثلك لم أحب هذا الرجل، ولأن كل أصابع الاتهام تشير نحوك، ورغم أنني عاهدت نفسي أن أبقى على الحياد، لكنني أريد منك ما يجعلني أدافع عنك لأنني أشعر بأنك لست طرفًا في هذا الصراع».

أشعلت سيجارتي ثم واصلت:

«ولأنني علمت أن رودينا قد قامت بعملية إجهاضٍ لابنك».

-إجهاض؟

نهض من مكانه فجأة.

-هذا ليس المكان المناسب للتحدث عن هذه الأشياء، تعال معي.

تبِعته وهو يتحرك بين السكارى حتى وصلنا لأحد الممرات، ثم دخلنا إحدى الغرف المُغلقة.

غرفة صغيرة تكفي لفردين، ضوؤها خافت وفوضوية، كرسيان وطاولة صغيرة عليها زجاجة نبيذ وكأس صغير.

-من أخبرك بعملية الإجهاض؟

قلت بعدما تأكدت أن الأمر تم في سرية كاملة:

«لقد اعترفت بهذا حين واجهتها بما رصدته كاميرات أحد الجيران وهي تسير مع أم خالد يوم الحادث».

راوغته بالكلمات لعدما تأكدت أيضًا أنه لا يعلم ما قامت به رودينا:

-أنت نفسك تعرف ما قمات به بلا شك في ذلك أبدًا.

قلت بعدما تأكدت أيضًا من أنه لا يعلم بما قامت به رودينا.

تظاهر أمامي بمعرفة رجل يدري بشؤون ما يحدث في حياته، ثم قال: «حسنًا، ماذا تريد مني يا آدم؟».

قلت: «من الذي قتل الحاج خورشيد؟».

سأل وهو يلف سيجارته: «لماذا أقول لك الحقيقة؟».

سأدعمك للزواج من رودينا.

ضحك ساخرًا: «هذا ليس العرض المُغري الذي أحتاجه، أنت لا تجيد التفاوض».

تنهدت وأنا أردد في نفسي: «الكل يطمع في الثراء»، ثم قلت: «حسنًا، ماذا تريد؟».

قال وهو يستعد للنهوض: «سنتبادل الثقة، سأخبرك بكل ما أعرفه شرط أن تنفذ الطلب الوحيد الذي سأطلبه منك. تعاهدني؟».

ترددت للحظة فقلت: «لا يمكنني الموافقة إن كان الأمر خارج استطاعتي».

-جميل، لن نتفق، واصل رحلة التيه والتشتت.

في طريقه للخروج وهو يغلق الباب قال: «ولن تجد ضالتك أبدًا لأنك تبحث عن الإجابة في بيت الأفاعي».

تركني في الغرفة وحدي، اليأس من جديد، التعب والضغط، الكابوس الذي لن ينتهي، ذاك الذي جعلني أتخبط وأتشتت لأصل إلى نهايته، لتعود حياتي الطبيعية كما كانت. لقد رفضت الكثير من القضايا الهامة خلال هذه الرحلة، لم أحضر مرافعة واحدة منذ وفاة الحاج خورشيد، وقد بدأ المساس بكفاءتي وسمعتي العملية، حسنًا ماذا سيطلب مني هذا الأبله؟ إن كان الطلب أكثر من استطاعتي سأرفضه لا محال، كلمة الرجل شرف، لكنني في بيت الأفاعي كما قال بالضبط، كلهم مخادعون.

خرجت من الغرفة وعُدت لطاولته.

-موافق.

ابتسم بثقة واتفقنا أن نلتقي في مكتبي في تمام الساعة السابعة مساءً. ها هو الصباح قد بدأ يفرض سيطرته، خرجت من الملهى، وأنا في الطريق إلى المنزل اتصلت بزين لأعرف منه ما حدث بشأن عم حميدة، فقال: «الخائن لقد نال مصيره، لكن ما زال هناك شخص آخر سينال ضريبة تهوره وفضوله».

ابتعلت ريقي ثم أغلقت الهاتف في وجهه.

عُدت إلى المنزل.

أخيرًا النوم لساعات قبل مواصلة البحث.

بملابسي ارتميت على السرير وغلبني النوم.

الفصل السادس

حديث مع النفس

«حسن الصياد».

«الخروج من المستشفى كان واحدًا من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها في حياتي، لو كنت أعلم ما ينتظرني في الخارج لادعيت المرض حتى أعيش ما تبقى من حياتي هناك. يقولون إننا من نصنع الأحداث، نولد وعاءً فارغًا لتبدأ الحياة في صب السم والعسل، اللحظات الحلوة واللحظات المُرة، الاختيارات الجيدة التي تصل بك لبر الأمان، والاختيارات السيئة التي قد تضلك طوال حياتك. المرهق أنك في البداية لا تتعرف على هذه المواقف، ترآها كلها متشابهة وعادية، تمامًا كما لم يستطع موسى التفرقة بين الجمرة والتمر، فاختار ما أصاب لسانه لتصبح علته الأبدية.

بكامل إرادتك قد تندفع وتختار وتحارب من أجل اختيارٍ خاطئ لن تنجو منه، نفق مُظلم تدخله وتركض طويلًا عسى تصل للنهاية ثم تكتشف أنك سُجنت في متاهة لا مخرج لها، تدرك كل هذا بعد سنوات وسنوات، تدرك الفوارق والأصلح والنسب بعد أن تذوق الأمرين وتتجرع من مرارة اختياراتك الخاطئة، تكتشف أنك خضت معارك طويلة بلا فائدة بعد

أن تُقتل، تكتشف أنك قدمت كل شيء للشخص الخاطئ بعد أن تستهلك تمامًا، وتفرغ مشاعرك من العطاء، تكتشف أنك ضحيت وتجاوزت عقبات كثيرة للوصول إلى هدفٍ لم يناسبك من البداية، تكتشف هذا بعد أن تُبتر قدماك وتفقد القدرة على المشي. فلسفة الحياة الوقحة أنك لن تتعلم إلا بعد أن تتألم وتنكسر، لن يتغذى عقلك بالحذر والخبرة إلا بعد أن يتحطم قلبك».

ضحكت نعمة وهي تصب لنفسها كأس نبيذ، ثم نهضت وتحركت بأنوثة على خشبة المسرح:

«أو بعد أن تفني عمرك في حُب فتاة لم تحبك، تمامًا كما حدث معك».

قلت وأنا أتحرك نحوها:

«لكنني أحسنت الاختيار بعدها».

أمسكت يديّ وبدأنا في الرقص على أغنية منير.

«الدنيا ريشة في هوا، طايرة بغير جناحين، إحنا النهاردا سوا، وبكرة هنكون فين، في الدنيا».

واصلث وهي تراقصني:

«لكنك سيطرت عليّ وجعلتني أختار الأسوأ عمدًا».

قلت وأنا أداعبها:

«لقد حافظت عليكِ من الدنيا يا نعمة».

دفعتني بحنيةٍ وهي تواصل دلالها:

«ربما لو خيرتني من البداية لاخترت أن أواجهها بنفسي».

أبتسم وأنا أضمها إلى صدري:

«ستمضي هذه الأيام ونعيش أيامًا حلوة».

دفعتني مرة أخرى وهي تواصل الرقص:

«قلت لك لا أحب الجمل التي قلتها لرودي».

ثم سألتني: «متى سنغادر بلدتنا؟».

تنهدت وقلت: «مغادرتنا في هذا التوقيت ستفتح علينا أبواب الجحيم، دعينا ننتظر الوقت المناسب لهذه الخطوة».

توقفت نعمة عن الرقص ثم قالت:

«لا تقل أنك ما زلت تنتظر أن تهدأ الأمور ويعود كل شيءٍ على ما يرام حتى تتزوجها».

قلت ضاحكًا وأنا أسخر منها:

«ومنذ متى والأمور بيننا كانت على ما يرام؟».

فجأة عاد شريط الذكريات ليصدمني، صحيح منذ متى والأمور بيننا كانت على ما يرام لنحب بعضنا البعض؟ منذ البداية وكل الإشارات مشوشة وسخيفة و...، سحبتُ نفسًا عميقًا من سيجارتي، ثم أخبرتها بقصة لقائي برودي، ذلك الحدث الذي سيظل نقطة فارقة في حياتي: الأمر باختصار أنني أحببت هذا الرجل من كل قلبي، كان بالنسبة لي بمثابة الأب والمُعلم والقدوة، أحببت شخصيته وأحببت أفكاره ومبادئه، حتى آرائه ونظرته العميقة للأشياء. رغم الخلاف الكبير بينه وبين أبي منافسه في السوق، كنت دائمًا أتحدث في منزلي عن أنني لستُ طرفًا في هذه القضية، تجمعهما المحاكم، ويجمعني به فنجان قهوة لنتحدث عن الفن والموسيقى والأدب، لقد أظهر في علاقتنا الجانب الفني من شخصيته، حدث هذا سريعًا حين رآني في أحد اللقاءات العابرة، وأخبرني عن قراءته لبعض القصص القصيرة التي أكتبها في إحدى الجرائد الأسبوعية، كنت لا أتخيل أن يكون رجل مثله مُهتمًا بالفن، كنا نجتمع سرًا في أحد المقاهي الثقافية، يناقشني عن فلسفته في الدنيا، أحلام الشباب التي لم تتحقق، والنقاط الفارقة في حياة المرء التي تغير كل حياته رأسًا على عقب. توطدت علاقتنا حتى أصبحت صديقه السري، وابنه الذي رأى منه وجهًا لم يره أحد من قبل، وكأنني لست ابن عدوه اللدود، وكأن كل المعايير والمفاهيم

التي نضعها ونتعامل معها لم تكن. في هذا الوقت كانت رودينا في مرحلة الثانوية، ورغم حديثه القليل عن عائلته وأحواله الشخصية، إلا أنه لم يخفِ حبه لها، كان يميزها عن كل أولاده، ويهتم كثيرًا لأمرها. حين يحدثك شخص تُحبه عن شخصٍ يحبه تقع في حب هذا الشخص رغمًا عنك، هذا ما يفعله الحب يا آدم، لكن الأمر كان مُختلفًا هنا.

ذات يومٍ كنت في رحلةٍ إلى الإسكندرية مع أصدقائي، حتى فوجئت باتصال الحاج خورشيد، فهو ليس معتادًا على الاتصال بي في هذا الوقت.

بصوتٍ يغلب عليه القلق قال: «حسن أين أنت؟».

قلت: «كما أخبرتك، إنني في رحلة مع أصدقائي في الإسكندرية».

سألني: «هل ما زلت هناك؟».

قلت: «نعم، سأعود في نهاية اليوم».

فقال: «رودي في رحلةٍ أيضًا مع أصدقائها، لكنها تعبت فجأة، سأرسل لك رقم هاتفها، اذهب وطمئن قلبي عليها».

-حالًا.

دون ترددٍ اتصلت بها بعدما أرسل لي الرقم، وعلمت أنها في

محيط محطة الرمل، وستقف تنتظرني أمام أحد المطاعم الشهيرة هناك «Mac». لحسن الحظ كنت قريبًا منها، فودّعت أصدقائي واتجهت لها.

وسط زحام المارة، ومن بين الجميع عرفتها أو لأكون صادقًا أكثر، تخيّل أن ترى شخصًا ما وسط الزحام، ثم تتمنى أن تربطك بهذا الشخص علاقة ما، تتمنى لو أنكما صديقان أو عاشقان أو حتى شخصين يعرفان بعضهما البعض، المهم أن تجمعك بهذا الشخص علاقة ولو لفترة قصيرة.

اقتربت منها وما أجمل أن تراها عن قرب! يرتجف القلب حين يقترب من الأشياء الجميلة، سحر الجبال بعد ليلةٍ مُمطرة، هدوء البحر بعد عاصفةٍ عنيفة، لقاء الشمس مع السماء في لحظات الشروق لتزيل صقيع الظلام، حبات الندى وهي تتساقط على أوراق الشجر، البرية في لحظة سكون، ألحان الطبيعة العذبة- كلها أشياء تخطف القلب وتجعله يرتجف، وكل هذا حدث حين رأيتها.

أتذكر جيدًا تفاصيل هذا اللقاء، توترها وتعبها وابتسامتها حين عرّفتها بنفسي وأخبرتها أنني جئت بعد أن اتصل بي والدها، صُدفة غريبة وتدابير أغرب، وأجمل.

اتصلت بوالدها وأخبرته إنني لن أتركها أبدًا، وحينها لا أعرف هل حقًّا كنت أقصد أنني لن أتركها في مدينة غريبة

وحدها، أم إنني لن أتركها تغادر قلبي مهما حدث؟ قضينا يومًا من أجمل أيام حياتي، عرفت معنى أن تجمعك الصدفة بشخصٍ فيلون كل أيامك، ويجعلك تندم وتلعن كل أيامك الضائعة قبل أن تلتقي به.

وأكثر ما أسعد قلبي أنها كانت تعرفني، قرأت الكثير من المقالات التي كتبتها والتي يحتفظ بها والدها في مكتبته. واصلنا المشي على كورنيش الإسكندرية، لا أعرف وجهتنا، لا أعرف كم الساعة، لا أعرف متى ستنتهي رحلتنا، الفكرة الوحيدة التي عرفتها في هذا اليوم والنظرة التي رأيتها وعرفتها؛ لماذا يرى ويكتب الشعراء كل كلمات الحب في الإسكندرية؟ لماذا الإسكندرية وحدها دون كل بلدان الدنيا التي كتب لها كل هؤلاء الشعراء والأدباء، وغنى لها كل الفنانين، وتغزل فيها كل عاشق ومُحب؟ لأنه ببساطة حين تجتمع مع شخصك المُفضل على أرض مدينة تحتضنك ما إن تطأ قدماك عليها، لأنك ببساطة تشعر بالحب حين يغزو هواء البحر صدرك وينعشك، والأجمل أن تكون رفقة من تحب، هنا تكتمل لوحتك المُفضل، هنا تملك العالم.

عُدنا إلى القاهرة لينتهي يوم تمنيت أن يتكرر كل يوم، عُدنا لأستيقظ على واقع أنني مجرد شاب أراد أن يسرق من العالم لحظة سعادة، ثم عاد لواقع أن الطريق صعب، أصعب

مما تتخيل.

تنهدت فقالت نعمة التي بدا عليها الغيظ حين أحكي مثل هذه التفاصيل: «ليت علاقتك بوالدها ظلت كما كانت حيث هو مثلك الأعلى وقدوته، ليتك لم تحبها!».

ضحكت ساخرًا، لكن في نفسي كنت أقول:

«الأمر كان أكبر من الحب بين طرفين، كلما اقتربت منها كنت أقول لنفسي: (كفاك هراء يا حسن، إن ما تشعر به ليس حبًا، الحب فكرة فلسفية من الدرجة الأولى، والفلسفة ليست وليدة اللحظة، الفلسفة أعمق من تلخيصها في مشاعر سخيفة مُبتذلة شعرت بها لثوانٍ ثم اختفت)».

واصلت مستعيدًا كل ذكرياتي الحزينة: «عاد كل شيء لطبيعته، وعادت نظرتي العملية الفلسفية تجاه الأشياء، ومرت الأيام محاولًا تناسي ما حدث، لكن في نفسي كنت أحاول اقتناص أية فرصة للتحدث مع الحاج خورشيد عن رودي، وما دام كل الطرق لا تؤدي إليها، فلمَ لا أتحلى ببعض الشجاعة لأتحدث معها مباشرة عن والدها؟ وقد كان، قررت أن أرسل لها رسالة نصية عبر أحد مواقع التواصل الاجتماعي:

(مساء الخير رودينا، آسف على مراسلتك، أردت فقط

التحدث إلى والدك لكن هاتفه مغلق، هل يمكنك إخباره إنني أريد التحدث معه في أمرٍ طارئ؟).

مرت ساعة.. ساعتان.

وأنا أفتح ملف الصور الخاص بها وأعرف كل تفاصيلها.

محمد منير، عمرو دياب، أم كلثوم وفيروز المفضلون عندها.

روما بلدتها المُفضلة.

الوردي لونها الجميل.

تُحب الأفيال والقطط.

وتعشق الفراولة والشوكلاتة.

التفاصيل التي تجعلنا نقع في غرام أحدهم، التفاصيل التي تسلب العقل وتجعلنا نغرق أكثر وأكثر في غرام من نُحبه.

-مساء النور، لقد أخبرته أنك حاولت الاتصال به.

فجأة اتصل والدها متعجبًا من طريقتي في الوصول إليه، وجدني أتلعثم فلم أفكر في ابتكار أي موضوعٍ طارئ يليق بهذه المراوغة. في النهاية استطعت خلق أمرٍ كاذب وانتهت المكالمة.

ومرت الأيام وتشاء الصدفة الأهم التي غيّرت مسار كل شيء. قبل ليلة الامتحان النهائي للثانوية العامة، وجدت الحاج خورشيد مهمومًا، سألته عما حدث فقال إن امتحان رودي في الصباح، وإنه اعتاد على انتظارها أمام المدرسة، لكن هذا لن يحدث غدًا لارتباطه بمواعيد ضرورية، انتظرت أن يختم كلماته بطلب الذهاب إليها وانتظارها، لكن هذا ما لم يحدث، وبمشاغبة شاب مراهق انتظرت حتى الصباح، اتجهت لأحد محلات الحلوى وملأت شنطة حلوى من كل الأصناف والأنواع المفضلة عندها، ثم وقفت في الرصيف الموازي للمدرسة وسط الأمهات اللائي ينتظرن بناتهن. مر الوقت والنساء يتهامسن عني، لكنني لم أبال، وما إن خرجت الطالبات حتى راقبت خروجهن، ومن بعيد خرجت رودي تبحث عن أبيها كالعادة، وقفت أتابعها من بعيد حتى لوّحت لها.

-رودي!

-حسن!

توتَّرت كثيرًا:

-ارحل، ارحل؛ أبي قادم.

اتجهث للرصيف الآخر وبدأت تمشي بسرعة، تابعتها وأنا

أضحك حتى وقفت أمامها وقدمت لها شنطة الحلوى:

«هذه لكِ، أتمنى أن تكوني قد أجبتِ بشكلٍ صحيح في الامتحان، بالمناسبة الزي المدرسي جميل عليك».

ابتسمت ثم واصلت المشي.

ربما لم أحبها وقتها، لكن الشعور الأول الذي ولد تجاهي، لقد شعرت في بداية الأمر إنها (طفلتي).

أقصد أنه بدأ بداخلي شعور المسؤولية تجاه هذه الفتاة المراهقة، أتابع تفاصيلها، ليس لأنني أريدها في علاقةٍ عاطفية، لكنني أريدها بجواري، أحب تفاصيلها لأسعدها وأعرف الأشياء التي تُحبها حتى أقوم بها، وأعرف الأشياء التي تكرهها حتى أكرهها مثلها وأتجنب القيام بها. كنت أراها طفلتي المدللة تمامًا كما كان يراها والدها، وهنا كانت اللعنة، حيث ورغمًا عني بدأت أشعر بالأحقية أن كل ما فيها يخصني وملك لي، وأنها وبطريقةٍ لا أفهمها جزء أصيل مني».

أعادتني نعمة من شرودي وهي تبتسم وتقول:

«غريبة الدنيا وظالمة، تخيّل أن هناك فتاة تبدأ حياتها وهي محاطة بكل هذا الحب والمسؤولية، وأخرى تولد وتعيش وهي تبحث عن شخصٍ تحتمي به من الدنيا، تستنجد به،

تميل عليه، ولا تخشى الدنيا في وجوده».

قلت محاولًا منع دراما على وشك البدء:

«ألا يكفي أن تحتمي بي؟».

-أنا أحتمي بك لأنني أريد الاحتماء بك يا حسن، لأنني تعثرت بك في بداية حياتي، ولأنك الرجل الوحيد الذي شعرت معه بالأمان حتى لو لست أنا الفتاة التي تحلم بها، أنت موجود لأنني أريد هذا، لو كنت تريدني لما وافقت على ما حدث، لجن جنونك من الفكرة نفسها، لكنك وافقت بكل إرادتك، بل خططت ودفعتني له بكامل إرادتك، ألا تتذكر ما قمت به في الماضي؟

لم أرد عليها، لكن بداخلي انفجر بركان من الكلمات، اللوم والعتاب، بداخلي انفجرت رغبة في تحطيم كل شيءٍ أمامي، المؤسف أنني حاولت تجنب الاصطدام بهذه الليلة القاسية. أتذكر أنني احتفظت بمشاعري ولم أعبر لرودي عنها لفترةٍ طويلة جدًّا، ثلاث سنوات أحتفظ بمشاعري ورغبتي في البقاء معها؛ الخوف من مواجهة الحقيقة ربما يجنب صدامًا مع الحياة أو مع الشخص الوحيد الذي أقتدي به، فأنا ورغم ما كان يمتلكه أبي، لكنني شاب من صنع نفسي، ليس فقط المسؤول عن نفسي، بل المسؤول عن إتاحة الفرص لها، أنا المسؤول عن خلق الأهداف، وأنا الذي أتحمل عواقب

إضاعتها.

كنت أعرف أن الفوز برودينا معركة خاسرة، وأن من الغباء البدء في طريقٍ مُبهم أو الموافقة على خوض معركة محكوم عليها الفشل قبل البدء. كل الكتب التي قرأتها، كل الفلسفة التي آمنت بها، كل الأفكار التي تبنيتها، كل التحذيرات والرسائل التي سمعتها ورأيتها، كانت تؤكد أن البدء معها يعني طريقًا مليئًا بالمخاطر، لكن إنها قوة الحب التي تدفعك للمغامرة، جاذبيته التي تجعلك ترتدي معطفك المُهلهل وتقف بكل ضراوة أمام عاصفة ثلجية، بل وتؤمن أنك ستنجو منها. رهاني وقتها كان على أفكار ومبادئ والدها، على إنسانيته التي لطالما أظهرها معي. كنت أقول لها: «كيف حالك يا صديقتي؟»، بينما أريد أن أقول لها: «كيف حالك يا كل حالي؟»، كنت أقول لها: «أتمنى لكِ حياة سعيدة»، وبداخلي أقول: «أريد أن نصنع حياتنا معًا يدًا بيد»، كانت تحدثني عن أوجاعها والأشياء التي تزعجها، فأقول لها: «أنا معك»، بينما كنت أريد أن أخبئها بين أضلعي وأحميها من العالم، كانت تحدثني عن رجل مُعجب بها، فأقول لها: «لا يناسبك»، بينما كنت أريد الذهاب لهذا الوغد والنيل منه لأنه فكر في الاقتراب منها، كانت تسألني: «متى ستتزوج؟»، فأقول لها: «لم يحن الوقت بعد»، بينما بداخلي كنت أقول لها: «ما زلت أنتظرك». سنوات من الانتظار، كل العالم يظن عنا أننا عشاق،

بينما نحن مجرد أصدقاء، لتجنب الاصطدام بالحقيقة.

ومرت السنوات وأصبحت شاهدًا على كل تعثرات الحاج خورشيد، وبدأت أفهم نوايا المحيطين به، ورغم كل المحيطين به إلا أنه كان لا يشعر بُحبهم له، مصاب هو بوسواس يجعله يظن أن كل المحيطين به لا يحبونه ويدبرون للنيل منه، أحيانًا كنت أشفق عليه من شعور الخطر الدائم الذي يعيشه، وأحيانًا كنت أعترض معه في نفسي. هذا الشعور الذي أفسد كل لحظة في حياته، لقد أثر كثيرًا في شخصيتي، علمني كيف أبدأ حياتي، كيف أفكر بطريقةٍ صحيحة، كيف أجتاز معارك طويلة، ومتى أهدأ وأنسحب من معارك لا تخصني. لا أخفي عليك يا آدم لقد كان بمثابة البطل الذي آمنت به، في الوقت نفسه تطورت علاقتي برودينا، بحكم أنها مُحبة للكتابة والرسم، فبدأنا نلتقي سرًا في المكتبات والمعارض الثقافية والفنية، المتاحف والأماكن الأثرية، أعجبت بعقلها الذي يوحي بشخصية في قمة النضج، حاولت دعمها في كل أحلامها، كانت أشبه بطفلة تتعلم الزحف ثم الوقوف حتى المشي والركض، بدت وكأنها مُستسلمة لفكرة أن أعلمها كيف تدار الحياة. رغم حُب والدها الشديد لها، لكنه أوهمها بحياة وردية لا أساس لها من الصحة، كان يخشى عليها من الاصطدام بالواقع الذي لطالما عاش حياته يحتك ويعاني منه، وهذا ما كان الاختلاف

ونقطة التحول.

معي تحررت من نفسها أو ربما اكتشفتها، تمسك يدي وهي تتعلم كيف تواجه الواقع وتصطدم به، تبتعد فترة لترى الحياة من بعيد، ثم تعود لتمسك بيدي وتخبرني بما رأته لإنقاذها من أزماتها وأخطائها. كنت أسأل نفسي أحيانًا: لماذا أتعلق بهذه الفتاة لهذا الحد الذي يجعني مُستعدًا للقتال من أجلها؟ رودينا كانت وما زالت وستظل أجمل حدث في حياتي، ومرت السنوات علينا مرورًا سريعًا وغريبًا، نكبر معًا، وتكبر أحلامنا، والطفلة التي كانت تخشى الحياة أصبحت الآن قادرة على مواجهتها ومحاربتها. مرت السنوات وعلاقتنا في الخفاء، وذات يوم وفي أحد أيام ديسمبر الباردة، قضينا الصباح في قصر الملكة عائشة في الزمالك، ثم انطلقنا إلى السينما، ومع نهاية الفيلم وحلول الظلام، تسكعنا في شوارع وسط البلد حتى وصلنا لكورنيش النيل.

القمر يتوارى خلف غيوم السماء الكثيفة، الهواء البارد، حبات المطر التي تتساقط على حياء، أصوات الأغاني التي تظهر وتختفي عشوائيًا من عربات الترمس والذرة المشوي.

«إمتى الزمن يسمح يا جميل واسهر معاك على شط النيل».

دندنت مع كلمات الأغنية وهي تضحك.

-كل هذه السنوات ولم تعترف بعد يا حسن؟

قلت وأنا أبتسم: «ألا يكفي ما أقدمه لكِ يا رودي؟».

قالت ولأول مرة أراها تتحدث بهذه الثقة:

«لا، لا يكفي، أنت تُقدم لي النجوم لكنك ترى أن هناك مئات النجوم التى يمكن لأي شخصٍ أن يهديني بها، تدعمني وتسمعني لكنك ترى هذا من باب العلاقات السوية، أنت تُضحي لأجلي وتسعى لتكون شخصًا مُلائمًا دائمًا لشخصيتي، لكنني أرى في عينيك أنك مُقيد في تصرفاتك، تحدثني عن مدى روعة لقائي بك، لكنك لا تخبرني في نهاية كل لقاء أنك تنتظر لقاءنا مرة أخرى».

كلمات عرّت بداخلي شعورًا ما أحاول تُجنبه منذ اللحظة الأولى.

استأنفت حديثها:

«المرأة يمكنها أن تقبل الوردة الأولى، تشكرك على الثانية، لكنها ستقف في المرة الثالثة وتتساءل عن سبب إهدائك لهذه الورود. نحن مراوغات الطبع، لكننا نُحب أن نظل الطرف المراوغ، نُحب فكرة أن نجعل الرجال يطرحون الأسئلة وليس العكس. المرأة حين تشعر أن بإمكانها تقديم كل شيءٍ للرجل الذي تُحبه، تتراجع خطوة للخلف ثم تتساءل: «هل

يستحق؟ هل هو شخص جيد؟»، ثم تبدأ في رحلة طويلة مع المخاوف والتكهنات.

الخوف من القرب.

الخوف من الهجر.

الخوف من الأمل.

الخوف من اليأس.

الخوف من التُعلق، والخذلان.

ثم تبحث بين كلماتك، تصرفاتك، مواقفك معها، تفتش عن الشعور الأسمى بالنسبة لكل أنثى، تبحث عن الطمأنينة، وهذا أكثر ما أفتقده في علاقتنا».

صمتت ثم نظرت إلي قائلة: «هل فهمت وجهة نظري؟».

رغمًا عني اقتربت أكثر منها، تجرأت وداعبت أناملها، وقلت وللمرة الأولى: «أنا أحبك يا رودي».

وهنا كانت النقطة الثانية التي غيّرت مسار حياتي.

ابتسمت نعمة التي لم تقطع شرودي حتى انتهيت فقالت:

«أشك أنك كنت تتذكر ليلتك الكئيبة.. مؤسف أنك ما زلت تتذكر تلك التفاصيل!».

-وكيف أنساها؟ لقد تجاوزتها لكنني لن أنساها.

تنهدت نعمة وهي ترتدي ملابسها: «وحين أردت الانتقام منها اخترتني دون الجميع لأنفذ خططك».

قلت: «لأنكِ الوحيدة التي لن تتردد في مساعدتي؛ كرهًا فيها».

ردت ساخرة: «نعم! حتى لو كان الثمن هو حياتي، يا لسذاجتي! أتمنى أن تفشل محاولات آدم، أتمنى أن يشعر باليأس، معرفته للحقيقة ستنال منا جميعًا».

-لا تقلقي، كل شيءٍ يسير بطريقةٍ طبيعية.

***

«رودينا».

النهاية

ثم مات البطل واقفًا.

عزيزي القارئ، الآن نصل لنهاية الرواية التي كتبتها لكم بكل صدق، لو كانت لدي أمنية واحدة فهي ألا يتحقق المشهد الأخير الذي كتبته لكم، لأن من المؤسف أن كل المشاهد التي كتبتها توقعت حدوثها قبل أن تحدث في الحقيقة، ومع الأسف تحقق جميعها. أتمنى أن تخيب

توقعاتي هذه المرة، أقصد إصابتي اللعينة بـ القلق العام.

إلى اللقاء.

الكاتبة: رودي خورشيد

أغلقت الرواية بعدما أنهيت للتو كتابتها، أجمل ما فيها أنها انتهت، وأسوأ ما فيها أن كل ما توقعته وكتبته قد حدث في الحقيقة، هو لعنة القلق العام، التوقع الذي يجذب الأشياء نحوي، التوقع الذي يجذب الأحداث نفسها، ولهذه اللعنة آثار لا يصدقها ولا يعلمها إلا أولئك الذين يملكون طاقة جذب للأحداث، فلقد كنت أكتب حياتي ونسيت أن ثمة آخرين فيها قد تصيبهم لعنتي، وأولهم أبي وحسن الصياد وابني.

اللعنة! لا أستطيع إخفاء الحقيقة.

أنا ضعيفة، أضعف من مواجهة الحياة وحدي، لا يمكنني تحمل المزيد، أريد الهروب من كل شيءٍ حولي، أشعر بثقل كل شيءٍ حولي، حتى أنفاسي تخرج بصعوبةٍ بالغة وكأن صخرًا موضوعًا على صدري، لا أقدر على القيام بأي شيء، أفكاري تطاردني، ورأسي يؤلمني، وفشلت كل محاولاتي في الهروب من حقيقة أنني خسرت نفسي، نعم عشت مدللة، الفتاة التي تطلب فتجد كل ما تطلبه، طريق مُمهد لكل أحلامي، حتى أشد العقبات التي قد أواجهها يتكفل أحبائي

بإزالتها. كنت أسمع عن صعوبة الحياة، حروبها وضغوطاتها والتحديات التي يخوضها الإنسان بشكلٍ يومي عن الحياة، أسمع من أبي وإخوتي، كلهم كانوا يتهمونني بالاستهتار لأنني لا أشعر بهم، إلا حسن، فقد كان الوحيد الذي يؤيد أن أحفظ نفسي بعيدًا عن هذه الضغوطات، الوحيد الذي لم يعترض على نظرتي الوردية للحياة، بل كان يحافظ عليها وعليّ من رماديتها وتقلباتها، لكنني في لحظةٍ قررت أن أقتل كل هؤلاء، أقتل من كان يطالبني بالنظرة الواقعية ومن كان يحاول الحفاظ على نظرتي الوردية، قررت قتل الجاني والمجني عليه وقتل نفسي وابني معهما.

-ألو.

-كيف حالك يا رودي؟

-من المتصل؟

لم تجب على سؤالي وقالت:

«سماع صوتك وأنتِ حزينة بهذا الشكل، أمر انتظرته طويلًا. كنت أعرف أنك لن تقدري النعمة التي وهبها الله لكِ».

-ماذا تقصدين؟

ردت وهي تضحك مواصلة كلماتها دون أن تكترث لكلماتي:

«لقد خانك ذكاؤك هذه المرة، توقعتِ أن تكوني بعيدة عن الشبهات لأنكِ قتلتِ ابنك خوفًا من رد فعل أبيك، فبالتالي أنتِ بريئة من دم أبيكِ ولن يشك أحد في أمرك، لكنني أملك دليلًا قاطعًا على فعلتك الدنيئة».

-لم أقتله.

ردت وهي تضحك:

«الأيام ستثبت ذلك».

أغلقت الهاتف في وجهها، اتجهت إلى الشرفة، أشعلت سيجارتي، ثم هاجمني القلق من جديد، قلت لنفسي هذه المرة لن أسمح ببدء حديثي مع نفسي، حسن لن يستجيب إلى مكالماتي، آدم الوحيد الذي سيفهم ما أعاني منه.

-ألو.

-رودينا.

-آدم، لقد اجتاحتني نوبة قلق ولا يمكنني تحملها وحدي، أريد التحدث معك في أمرٍ هام، سأنتظرك في مقهى البستان.

-متى؟

-الآن يا آدم.

خرجت من منزلي في حالة توتر جنونية، صوت سيدرا في رأسي، تضحك وتصرخ: «أنت القاتلة.. أنت القاتلة». يا رب أريد الخلاص من هذا الكابوس، أراها في كل شيءٍ حولي الآن: «أنتِ القاتلة.. أنتِ القاتلة»، رددت بصوتٍ عالٍ وأنا أتجه مشيًا للمقهى الذي يبعد دقائق عن منزلي: «لم أقتله، لم أقتله يا سيدرا»، تتبعني خطوات، أنظر خلفي فلا أرى شيئًا، سيجن جنوني، لم أقتله، لم أقتله.

كنت أركض منها وهي تركض ورائي؛ تريد النيل مني.

تصرخ: «يا قاتلة يا قاتلة!».

أركض وهي ورائي.

أريد النجاة والهروب، لن أسمح لها بالإمساك بي.

ما إن رأيت آدم حتى ركضت نحوه وأنا أصرخ:

«أنقذني، أنقذني من سيدرا».

-ماذا حدث؟

-تركض ورائي تريد النيل مني.

ظل آدم ينظر إلى الممر عسى تظهر سيدرا، لكنه عاد مبتسمًا:

«لا تقلقي، لن تأتي إلى هنا».

جلسنا على المقهى.

«ماذا تريدين؟ ولماذا أصريتِ على مقابلتي؟».

قلت وأنا أشعل سيجارتي: «أنت الوحيد الذي تحتاج لفهم ما يحدث، لقد اتصلت بي سيدرا واتهمتني بأنني قتلت والدي، وأنها تملك الدليل القاطع على ما قمت به».

قال: «لكنك لم تقتليه، أليس كذلك؟».

ردت: «لقد وبختها على كلماتها، لكن في نفسي بدأ الشك يراودني، لا أعرف تحديدًا ما أشعر به، لكنني لست متأكدة من أنني لم أقتله، لقد قمت بأشياء عديدة تحت تأثير القلق، لا يمكنني أن أراهن على أفعالي في هذه الحالة، ما زلت أتذكر كلمات حسن الصياد حين قال: (القلق يقودنا أحيانًا لارتكاب أفعال لا تشبهنا، القلق يقودنا أحيانًا لافتعال المشكلات والبحث عن الأزمات، القلق كفيل أن يجعلنا نحطم كل شيءٍ حولنا أو يجعلنا نفكر في إلقاء أنفسنا من الشرفة، القلق يدفعنا للقيام بأشياء جنونية، يمكن أن يقودك للبكاء بلا سبب، تفسير أمور غير منطقية لن تحدث، التصرف بعدوانية مع كل المحيطين بك، قد يقودك لقتل نفسك أو حتى لقتل شخص، ربما الكارثة أن في لحظات قلقك القاسية

لن تستوعب ولن تدرك ما قمت به، قد تخونك مشاعرك وانفعالاتك وذاكرتك، فلن تتذكر حتى ما قمت به، قد تحرق العالم وتقلبه رأسًا على عقب، لكنك لن تتذكر أنك قمت بكل هذا).

ربما سيدرا على حق، ربما قتلت والدي بالفعل، من يعلم؟ لقد ارتكبت الكثير من الأفعال والتصرفات التي لم أدركها إلا بعد أن قمت بها بالفعل. لقد فشل الطب النفسي في علاجي، ولقد عانى كثيرًا حسن معي حتى أتعافى، لكنه أيضًا لم ينجح، لقد خسرت كل صديقاتي ولا أتذكر أسباب هذه الخسائر الفادحة، ما أعرفه أن بعد نهاية العلاقة يقولون إنني فتاة تستنفد الطاقة والمشاعر، إنني تعودت على عطاء الآخرين وتقديمهم وتضحياتهم، كلمات مُزعجة واتهامات لا أستحقها».

قاطعني آدم: «دعك من أصدقائك وحسن، دعينا نحاول البحث عن الحقيقة، لو صدقت رواية سيدرا بأنكِ القاتلة، تُرى ما الأسباب التي تدفعك لقتل والدك؟ ما أعرفه وما يعرفه الجميع أنك ابنته المفضلة والمدللة، فما الدافع لقتله؟».

سألت: «ما قيمة معرفة الأسباب ما دمت قتلت؟».

أجاب: «قانونيًّا لن تفيد، وأقصى استفادة قد تكون تخفيف

الحكم عليكِ، لكن إنسانيًّا سأحاول بذل كل طاقتي للتأكد من الحقيقة لعل إصابتك تشفع لكِ أمام المحكمة، اِحكي فقط ولا تشغلي رأسك بما سيحدث».

أشعلت سيجارتي ثم تذكرت:

«لقد قادني أبي للتفكير في الانتحار وهذا ما لم يصدقه أحد، لقد أحببت والدي بكل طاقتي، كان بالنسبة لي الرجل المثالي في كل تصرفاته، لقد وفر كل متطلباتي حتى التي لا يفهمها، كانت لدي معاملة خاصة لأنني آخر العنقود، ولأنني الوحيدة التي لم تحتضنها أمها، كل شيءٍ كان مثاليًّا، كان يحميني من الدنيا ومن إخوتي، الشيء الوحيد الذي لم أحبه هي القيود التي وضعها حولي، لقد شعرت دائمًا بأنني مُطاردة من شيءٍ ما لا أعرفه؛ حين أذهب إلى المدرسة لا بُدَّ أن تصحبني سيارة خاصة؛ أذهب مع صديقاتي لا بُدَّ أن يتبعني أحد من رجاله حتى لو لم يخبرني، كنت أعرف هذا، يتصل بي ليتأكد أنني معهم، وما إن أعود حتى أكتشف أنه فتش غرفتي تفتيشًا كاملًا بطريقةٍ مُزعجة. أرهقتني هذه التصرفات كثيرًا، لكن كنت في نفسي أقول: (هو يحبني ويخشى عليّ). قضيت فترة طويلة أعاني الأمرين، ما بين التمرد وتُقبل طبيعته، حتى ظهر حسن الصياد، هنا انقلبت حياتي تمامًا، لقد علمني الدنُيا أو كيف تسير الدنيا، كنت أرى

الحياة هادئة بسيطة، وقد حاول الحفاظ على هذه النظرة شرط أن يعلمني كيف أرى الناس بصورتها الحقيقية.

كانت الأيام هادئة، وكنت أتعلم منه كل شيء، لم أحبه حُب عاشق لعشيقته، بل أحبّته طفلة تتعلم من مُدرسها في مدرسة الحياة، توطدت علاقتنا حتى حدث وأحببته الحب الذي جعلنا نقترب خطوة ناحية الارتباط، وقد كان، وقضيت أيامًا حلوة معه؛ أيامًا تمنيت أن تدوم، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. كان حسن عازمًا على الارتباط الرسمي رغم ظروفه الصعبة، أتذكر أنه كان يعمل أكثر من ثمان عشرة ساعة حتى يستجيب لطلبات أبي المتوقعة، لرفض مساعدة والده كان يقول: (لو لم أعانِ حتى أفوز بكِ لن أُقدّر قيمة الفوز، المعاناة في الحب هي أسمى معاناة يخوضها المرء في حياته، الفائز فيها يعيش حياته في النعيم، يمتلك الدنيا وما عليها، يتمنى لو يعيش للأبد في هذه الحالة الخاصة، والمنهزم فيها مكسور لن يُرمم قلبه أبدًا، وحيد مهما كثر الزحام حوله، وغريب في أشد لحظات الألفة والونس).

أحببت فكرته وفلسفته، وأحببت كل ما حدث بيننا، حتى حانت اللحظة الحاسمة، وحدث الخلاف الذي غيّر كل تفاصيل حياتي وأسقط كل الأقنعة حولي، لقد بدأ اللقاء في غاية الهدوء والود، يتحدثان عن الشعر، يحكي أبي عن

تفاصيل ندواته القديمة، ويتحدث الصياد عن التطورات التي ظهرت في عالم الكتابة، بدا كل شيءٍ مثاليًّا، حتى تحدث عن رغبته في الزواج مني، هنا انفجر أبي غاضبًا، انهال علية بأفظع الكلمات وأشدهم قسوة عليه، كل الكلمات التي لم أسمعها من أبي طوال حياتي، لم يكتفِ بكل كلمات الإهانة والتقليل من شأنه ومن شأن عائلته، بل تطور الأمر حتى طرده من البيت طردًا مُهينًا؛ أدركت حينها أن الكثير من المتاعب تنتظرنا، وقد كان.

كان اليوم الأخير في حياة علاقتنا البريئة، اليوم الذي حدث فيه شرخ، ولن تعود الأمور كما كانت عليه أبدًا. حاولت فهم أسباب هذه الثورة، لكنني رأيت في أبي وجهه الآخر، كرد فعلٍ أول منه عاملني كسجينة، لم أغادر غرفتي لفترة طويلة، حُرمت من كل الأشياء الجميلة التي تؤنس حياتي، تصرفات غريبة عليّ. ما كنت أحتاجه هو فهم ومعرفة الحقيقة، هذا كل ما في الأمر، ليهدأ قلبي ويرتاح عقلي. أشد عقاب على المرء أن يُعاقب على جريمة لا يعرفها، يخضع رغمًا عنه لأشياء لا يدركها، وسواء قبلها أو رفض هو لا يملك إلا ممارستها والتعايش معها».

أبتسم آدم ثم سأل ساخرًا:

«نهاية علاقتك بحسن كانت كفيلة أن تفكري في

الانتحار؟!».

رددت: «بالطبع لا، لست أنا الفتاة التي يهزمها الحب، أنا أقوى مما تتخيل في هذا الموضوع، أستطيع التجاوز سريعًا والتأقلم أسرع حتى على الأوضاع التي لا تناسبني، ليعتبرها البعض قسوة أو أنانية، المهم أنني أعرف كيف أنجو بنفسي قبل أن أقع في المأساة. ما دفعني للتفكير في الانتحار هو الحقيقة، حقيقة المشاعر التي حولي، كانت الصدمة أن كل المشاعر التي استقبلتها من أبي لم تكن صادقة كما أظن، بل كان الحُب المُغلف بأنني أكثر جمالًا من سيدرا، شخصيتي أقوى، خططي في الحياة واضحة، أُقدّر نفسي وأعرفها، ولدي كل ما يجعلني جميلة ومميزة. لقد أراد هذا واستطاع أن يوفر كل هذه الإمكانيات، وقد كان، وذات يوم قررت التمرد وقلت لأم خالد مباشرةً: (إن لم يخبرني أحد أسباب رفض والدي لحسن، سأفعل ما لم يستطع عقلكم تخيله).

بعد يومين التقيت بوالدي لأتحدث معه عن أسباب رفضه، لكنني فوجئت بما هو أفظع: حسنًا لماذا رفضته؟

قال في هدوئه المعتاد: لم أرفضه ولن أرفض أي رجلٍ ينوي خطبتك، شرط أن يستجيب لطلباتي ويوفرها.

قلت مُعترضة: أنت لم تتناقش معه من الأساس، ما إن عرض عليك حتى انفجرت في وجهه وكأنه أراد قتلك.

-ليس هذا الشخص المناسب الذي أردته لكِ.

قلت: المسألة تخصني أنا يا أبي، أنا من أقرر هذا.

هنا نهض أبي غاضبًا: لقد علمتك، وفرت لك كل متطلباتك، فضلتك على إخوتك، صنعتك بيدي، وميّزتك عن الجميع، حتى وفرت لك حياة يتمناها كل الناس، والآن تتحدثين عن رغبتك الشخصية؟

قلت بعد أن اشتد الصراع: القرارت التي تخص حياتي هي ملك لي وحدي، ليس من حق أي شخصٍ التدخل فيها حتى لو كنت أنت.

هنا انفجر في وجهي: لن تغادري غرفتك مهما حدث.

وقد كان، وأمر بعدم خروجي من الغرفةِ تأديبًا لعصياني على قراره. كانت المرة الأولى التي أرى فيها هذا الوجه من أبي، عشرة أيام عشت خلالهن في عزلةٍ تامة عن العالم الخارجي، أتعامل معاملة السجناء. تجنبني إخوتي، وظهرت شماتة سيدرا، عشرة أيام كانت كفيلة بأن يتضاعف شعور بالوسواس العام، مع إصابتي المُزمنة في القلب. كنت أتعذب، بدأت أفكاري تتخيل أشياءَ لا تحدث، أتوقع أشياءَ بعيدة كل البُعد عن المنطق، أتحدث إلى نفسي، أجلدها وأُصرخها، ثم أرضيها وأهون عليها، أشعر أنني أقوى امرأة في الدنيا،

وفجأة أشعر بالضعف والهذيان، أيام ثقال وعالم عدواني على قلب فتاة هشة ورقيقة. ظللت أعاني بهذه الطريقة التي رفض قلبي تحملها حتى تمرد عليّ وبات أضعف من تحمل أنفاسي.

حتى جاءت الليلة التي لن أنساها، سمعت أبي يتحدث مع أم خالد عن نيته في الموافقة: «أرى أنه رجل مثالي ومناسب لها يا أم خالد، هي فرصة لن تكرر كثيرًا».

فرح قلبي؛ ظننت أنه يتحدث معها، وأن رأيه قد تغيّر بالفعل.

«يملك كل المقوّمات التي تسد الثغرة العملية التي نعاني منها هذه الفترة، ثم إن والده مُرحب جدًّا بالتقرب منا».

-لا أظن أن فكرتك ستلقى ترحيبًا كبيرًا منها يا أبا طاهر.

هنا قال: «هذه ليست فكرة، هذا قرار وأمر غير قابل للنقاش، لقد وفرت وحققت لها ما يجعلها إنسانة سوية كما فعلت مع طاهر بالضبط حتى يساعدني كل منهما بالطريقة التي أراها مناسبة لحياتنا».

قاطعت حديثهما من خلف الباب:

«هذا لن يحدث، هذا لن يحدث».

لم يكترث أحد لغضبي وصراخي، وكأنني أصرخ وسط أصماء لا يسمعون أوجاعي. لم يتحمل قلبي هذا الصراخ، وفي النهاية سقطت على الأرض ولم أعِ ما حدث إلا وأنا في المستشفى والدكتور يقول لأبي: «لقد تم إنقاذها بصعوبةٍ بالغة، يؤسفني أن أقول لك هذا، لكن أتمنى ألا تصل لهذه المرحلة مرة أخرى، حفاظًا على حياتها».

توقعت أن تتغير حياتي وتعود لطبيعتها، يطلق أبي صراح رغباتي ويُغيّر نظرته تقديرًا لما أصابني؛ ظل الأمر مُبهمًا طوال فترة التعافي حتى عُدت إلى المنزل، وهنا لم يستمر الأمر طويلًا، وبدأت المناقشة التي غيرت حياتي، ذات يوم قرر أن يدعوني لرحلة خاصة بيننا، لطالما أحببت التنزه معه، كان صديقي الوحيد قبل أن يظهر حسن الصياد، خلال اليوم كان يحاول بشتى الطرق أن يتجنب التحدث معي في هذا الموضوع، الكثير من الهدايا والأزياء التي أحبها، لا أنكر لقد نجح في تغيير مزاجي العام؛ يعرف كيف يعاملني وكيف يسعدني.

في ختام اليوم جلسنا في أحد المقاهي على شط النيل، الصدفة كانت أن المقهى بجوار المكان الذي اعترف لي الصياد بمشاعره.

-حمدًا لله على سلامة ابنتي المدللة.

-أبي، أرجوك لا تُحطم حياتي.

قال وهو يضع يديه على كتفي بهدء:

«أحطم حياتك! أنا أكثر رجل في الدنيا يحمل هم حياتك، لكنك تريدين تدمير حياتنا».

قلت: «أنا لا أريد إلا الحياة الهادئة».

قال: «الكاملة، وهنا تكمن مشكلتك يا ابنتي، في الدنيا نحن لا نحصل على الأشياء كلها، لن تنجو من الحياة سالمًا، لا بُدَّ أن ترضى بالنصيب الذي كُتب لك، برزقك في الحياة، وبما تملكه لتنعم بما تملك».

قاطعته غاضبة: «ماذا تريد أن تقول يا أبي؟».

قال بهدوءٍ تام: «أنتِ تريدين من الدنيا امتلاك كل شيءٍ يا رودينا وهذا لن يحدث أبدًا، وإصرارك على هذا التحدي لن يفيدك لأنني لن أوافق مهما حدث لو كان آخر رجل على الأرض، لن تتزوجي حسن، أريدك أن تنضجي وتفهمي أن هذا قرار نهائي، وأمامك اختيار إما مواصلة العناد وخسارة كل شيء، أو القبول بما تملكينه من رفاهية وسعادة وحرية، وتفضيلي لكِ عن الجميع، صدقيني لو كنت مكانك لفكرت كثيرًا قبل العناد، لأنكِ لن تتحملي أن تغيب عنكِ كل الأشياء التي اعتدتِ عليها».

لم أجد كلمات مناسبة للرد عليه، فواصل: «أنا أحاول المحافظة على حياتك وليس تدميرها كما تظنين، اجلسي مع العريس الذي ينوي خطبتك لإرضاء أبيكِ، لرد الجميل يا ابنتي، صدقيني لن يفيد التمرد».

-لكني أحبه يا أبي، أريد الحياة معه.

-لكنكِ تحبين الحياة أكثر، أنا أعرف عنكِ ما لم تعرفيه عن نفسك، أنتِ ابنتي التي ربيتها وعلمتها وجعلتها بهذا النضج، والآن عليّ توجيهها للطريق الصحيح، وأبوكِ الذي وفر لك كل هذا يستحق أن تضحي من أجله.

عانقني وقبّل رأسي:

«وأنا أعرف أنكِ لن تقبلي أن يقضي أبوكِ أيامه في حزنٍ وتعاسة بسببه، لأن حتى عدم موافقتي لن تعطي لك الضوء الأخضر في ممارسة حياتك، بل ستعيشين في غرفتك محرومة من كل شيء، ويصعب عليّ زهرتي أن تعيش حياةً بهذه الصورة».

عُدنا إلى المنزل ورأسي يكاد ينفجر من التفكير.

ما بين القلب والعقل تتحطم الكثير من الأشياء، تتحطم أفكارك، مبادئك، تتبدل أمنياتك وأهدافك، ترضى بما كان

يزعجك وتقبل ما كنت ترفضه، وتتعايش مع من تمردت عليه، ما بين الخضوع لرغبة قلبك، والسير في الطريق الذي يرسمه عقلك؛ تتمزق وتتبدل وتصبح شخصًا آخر. كنت طفلة لا أقوى على اتخاذ قرارت متعلقة بحياتي، كنت أرى أنني قاسية حين فكرت بهذه الصورة، لكن هي الحياة.

في النهاية قررت النجاة من المأساة والعيش برفاهية، فأنا لا أرى نفسي فتاة مقاتلة أو ترغب في العيش بهذه الفكرة، لا شيء في الدنيا يستحق القتال، حتى لو كان الحب.

وافقت بالفعل على قرار أبي، لكنني لم أدرك أن موافقتي كانت المسمار الأخير الذي أصابني بالوسواس القهري. بعد خطبتي لم يظهر رد فعل حسن الصياد، سمعت أن الاكتئاب قد نال منه، سمعت أنه تم إيداعه في مستشفى الأمراض النفسية، سمعت أنه سلك طريق الإدمان، سمعت أنه بدأ في الكتابة وأنه تجاوز فراقنا.

(بتيجي سيرتك قدام بشر وناس كتير، بتيجي سيرتك وافرح أوي لو جت في خير، ناس بتقول لي قريب قريب، ناس بتقول لي بعيد بعيد، ناس بتقول لي حزين حزين، وناس بتقول لي سعيد سعيد).

مرت فترة أتأرجح ما بين الحنين والاعتيادية، الاعتيادية على الفراق والاستمتاع بالحياة التي فضّلتها واخترتها،

صحيح أنني الآن مع رجلٍ لم أحبه ولم أختَره، لكن كان وجوده لا يُشكل ميزة أو حتى عائق، كانت علاقتنا جافة وباردة.

تعافيت تدريجيًا من أثر الفراق، على الأقل تظاهرت بهذا، لكن شيئًا واحدًا كان يرعبني؛ الخوف من الموت يا آدم، كل مجهود كنت أبذله كنت أشعر بعده أنني سأموت اليوم، مع كل حركةٍ أشعر أن النهاية قد شارفت وأنني لن أستيقظ في صباح اليوم التالي، طاردني كل شيء حولي بطريقةٍ كادت أن تسلب عقلي، كدت أصاب بالجنون؛ تطورت مراحل الوسواس، فبعدما كنت أظن أنني سأموت بسبب الضغط والمجهود الإضافي، أصبحت أتخيّل وفاتي بحادث سيارة، بتسمم، بماس كهربائي، سيدرا ستقوم بهذا، ربما سيعود حسن الصياد للانتقام مني. بدأت آخذ الحذر في كل خطواتي وتصرفاتي، بدا العالم مكانًا في غاية الخطورة والقلق، تضاعف الأمر حين وجدت في مكتبتي ورقة كان مكتوبًا فيها: لن أتركك أبدًا إلا وأنتِ غارقة في دمائك.

أفزعتني الرسالة وأصابتني بنوبة قلق، عاد صراخي وبكائي، لا أحد في البيت يعلم بأمر هذه الورقة.

هل تفهم معنى أن تهرب من الموت؟

أن تظل دائمًا على حافة الموت، تراه أمامك في كل مكان،

كلما وصلت لنقطة أمان تجده ينتظرك ويبتسم، وكأنه يقول: «لن تهرب مني أبدًا»، لا مفر منه فهو حولك، تشعر به مع كل حركة، يتبعك ويحاوطك ويريد النيل منك، لكنه لن يفعل، تشعر به حولك وتلمسه ويلمسك، وحين تظن أنك قد وصلت للنهاية لينتهي هذا الكابوس؛ يبتسم ويبتعد من جديد لتعاد اللعبة من الأول. هل تتذكر قصة الخونة الثلاثة الذين قرر هتلر النيل منهم؟ لقد وضع كلًّا منهم في غرفةٍ خاصة، وأخبرهم أن في الهواء غازًا أبيض سامًا سيقتلهم تدريجيًّا، والحقيقة أن الثلاثة جنود قد ماتوا بالفعل، لكن لم يموتوا بسبب الغاز الذي لم يكن موجودًا من الأساس، لكن ماتوا بسبب التهيُّئ للموت، القلق والاستعداد له، الوهم والترقب، هذا بالضبط ما حدث، لقد قتلني القلق والترقب والخوف حتى قررت أخيرًا المواجهة.

-أبي أريد الذهاب إلى طبيب نفسي.

رن هاتفي فجأة فقاطعني عن مواصلة حديثي مع آدم.

-رودينا.

-من معي؟

-رودينا أنا نعمة، حسن الصياد في العناية المركزة ويحتاج رؤيتك حالًا، قابليني عند تمثال طلعت حرب.

نهضت من مكاني مسرعة، لم أودع آدم، لم أحكِ له تفاصيل المكالمة، وركضت بسرعة للميدان.

***

«طاهر».

أبي الذي لم يرحمنا في حياته ولم يرحمنا في مماته.

في منزلي هنا كل خطوةٍ بحساب، ولا أتبرأ أبدًا من أنني تعلمت هذا من أبي، لست متاحًا لهم طوال الوقت، فهناك أوقات للمناقشة، هناك أوقات للتحدث في الأمور العامة، ولا يمكن لأي شخصٍ أن يتخذ قرارًا إلا بعد موافقتي حتى في أبسط القرارت، هذه طبيعة حياتي التي بنيتها وأسستها، أنا رجل جاد جدًّا لا أتهاون أبدًا في مثل هذه التفاصيل، استقرار منزلي أمر لا تهاون فيه، ولا يمكن أبدًا التغاضي عنه، لقد اعتدت على هذا.

لقد كان أبي على حق حين قال أن المسؤولية تبني الرجال، والاحتكاك المبكر في طفولتهم بالواقع تجعلهم أكثر نضجًا في حياتهم، كان يقول دائمًا أن القسوة التي تزرعها في الطفل تجعل منه رجلًا مقاتلًا لا ينهزم أمام صعوبات الحياة وتحدياتها. كنت أستقبل كل هذه الكلمات وأتجرعها وأزرعها في قلبي، أخبرني أن الرجل لا يبكي، لا يتألم، أخبرني أن

الرجل لا يقع في الحب، وأن المشاعر الجميلة لا تخلق إلا رجالًا ضعفاء، مهمشين لا يقدرون على مواصلة حياتهم، كان يعلمني أن التضحية والتخلي كلها أشياء أساسية لا بُدَّ أن توجد في شخصية الرجل، وقد كان، لقد تخليت عن الكثير من الأشياء رغمًا عني ووافقت على الكثير التي لا أهواها، أن يكون اختيارك الأول والأخير لعقلك ولمصلحتك، المنفعة العامة من كل علاقة مهما كانت، ما دامت ستبقيك حيًّا وتجعل حياتك أفضل، ما دامت ستوفر لك احتياجاتك الملموسة الرجولية مثل السلطة والنفوذ، العلاقات، المال، والقوة. كنت أسمعه في طفولتي يقول ويردد:

«ستكون الوريث الشرعي لكل ما أملك، أريدك أن تتخلى عن كل شيءٍ في سبيل الحفاظ على ما سأتركه لك، تخلّ عن كل شيءٍ لتحافظ على الأمانة».

كان يزرع هذه الكلمات في قلبي وعقلي، وقد نجحت في هذا يا أبي، وضحيت بكل شيءٍ للحفاظ على الأمانة ولمصلحتي الخاصة.

نادتني مريهان لتخبرني أن العشاء جاهز، خرجت من غرفتي إلى الصالة، جلست بجواري وبدأت في إعداد الأطباق وهي تسأل:

«هل وصل آدم للقاتل الحقيقي يا طاهر؟».

قلت: «ولن يصل يا مريهان».

بذكاء زوجة تعرف زوجها قالت: «أشعر أنك تعرف شيئًا ما عن الحقيقة، لكنك لا تريد مشاركتي التفاصيل».

قلت: «لا يوجد شيء ملموس يا مريهان، ستظل الحقيقة غائبة لفترة ولا أتوقع أن ينجح».

قالت وهي تبتسم: «الحقيقة أن تصرفات أبيك في آخر أيامه كانت غريبة، هذا سيصعب الأمر كثيرًا على آدم لأنه سيظل يبحث عن خيوطٍ كثيرًا ليصل إلى الحقيقة».

أنهيت العشاء، ثم جلست على الأريكة أتابع الأخبار والشبهات حول قتل عم حميدة، هنا استغلت مريهان متابعتي وواصلت سيل أسئلتها: «من قتل عم حميدة يا طاهر؟».

كان يستحق القتل يا مريهان، لقد خان العهد والاتفاق.

ردت وهي تصب الشاي لنا: «لديك دخل في هذا الأمر صحيح؟».

قلت: «أنا أنفذ وصية أبي يا حبيبتي».

-لقد وصاك أبوك أن تحافظ على كل شيء، لكن أظن أنه لم يقصد أمر مخزن الفيوم، أنت تعرف أنه لا يعلم عنه أي شيء.

أنهيت حديثي مستعدًا للخروج ولقاء ياسر زوج سيدرا:

«المشكلة أن الناس يؤمنون بكل الأشياء التي يسمعونها لكنهم لا يتدبرون في أمرها، يصدقون الصورة التي تظهر لهم من الأشخاص، وكأن الخداع أمر غير محتمل في كل علاقة إنسانية».

في الطريق ظلت كلمات أبي تتردد في أذني وكأن لم تمر سنوات وسنوات عليها:

«ضحي بكل شيءٍ من أجل الحفاظ على ما تركته لك».

لقد ضحيت بكل شيءٍ بالفعل، فترة شبابي لم تكن مثالية، كنت أشبه بعسكري في ساحة حرب، لم أستمتع بها كأغلب من هم في مثلي، فرغم ثراء أبي إلا أنه كان يفرض عليّ نظامًا روتينيًّا؛ المدرسة صباحًا والعودة إلى الورشة بعد الظهيرة حتى آخر الليل، وما بينهما يمكنني الذهاب إلى بعض الدروس، لقد حرمني أبي من كل الرفاهيات التي كان ينبغي علي ممارستها في هذا السن، القوة واحدة من أهم شيم الرجال التي ينبغي على الابن البكر أن يتحلّى بها ليحافظ على الأمانة والعتق الذي على رقبته.

طوال حياتي لم أحب أي شخص، طوال حياتي أتعامل مع الناس على المنفعة والمصلحة المتبادلة. لقد نجح أبي في

دفن مشاعري بالفعل، وأراد فعل ذلك مع زين أيضًا وقد نجح.

كنت شابًا يمكنه اتخاذ قرارت مصيرية، لقد طردت الكثير من العمال لتكاسلهم، كان يعارضني زين على هذه القرارت، يحدثني أن الفصل وقطع الأرزاق ليسا الحل المثالي للمشكلات؛ كان أبي يوافقني في كل هذه القرارت ويقول: «لا يهم، حتى لو أخطأ فيما بعد سيتعلم من هذه الأخطاء». أنا من قررت أن تتوقف مسيرة سيدرا العملية وتجلس في المنزل لخدمتنا، وأنا من قررت تحجيم دور زين في طبيعة عملنا، ثم قررت ركله تمامًا بعيدًا عنّا وإيداعه في مستشفى علاج الإدمان، وكنت أعرف أنه تجمعه ذكريات بزوجتي مريهان، لكن زواجي منها كان لمصلحتنا كما قال أبي، فوالدها يملك نفوذًا ستساعدنا كثيرًا في طبيعة عملنا. لم يهمني كثيرًا أن تحبني مريهان أو إن كان قلبها ما زال متعلقًا بزين، المهم أن تتم الأمور كما خُطط لها، وقد كان. لم تهمني مشاعرها ما دامت لم تجرؤ على الاقتراب منه أكثر من كونه أخًا لزوجها، وزميلها القديم في المستشفى. هي عاطفية جدًّا، لكنها مادية وتحب الثراء، لذلك اتفقنا من البداية أن علاقتنا تجمعها المنفعة المتبادلة بين الطرفين: «سنعيش لحظات حلوة مع بعضنا البعض، الأهم أن نحافظ على تبادل المنفعة بيننا»، كانت قاعدة تبدو قاسية، لكنها كانت واقعية جدًّا، ومثالية لبدء العلاقة الزوجية، وقد كان، ولا أنكر أننا

نعيش أيامًا عظيمة بالفعل.

أنا من قررت أن يعتزل والد آدم مهنة المحاماة حين شعرت أنه يعطل مسيرتنا العملية بأفكاره ومعارضته الدائمة لقرارتي، وأنا من قررت أن يكون ابنه هو المحامي الجديد الخاص بنا، صحيح آدم هو صديقي الذي أحبه، لكنني قررت أيضًا أن يكون صديقي في بعض الأشياء فقط. أظهرت له الجانب اللطيف في حياتي، وأنا يضًا من قررت أن أؤذيه في قلبه وأجعل أبي يرفض رفضًا تامًا فكرة زواجه من سيدرا؛ لم أحب فكرة أن يشاركنا في المنزل رجل قد يعارضنا يومًا في قرارتنا، والسبب الآخر أنني لم أُرِد لصديقي أن يكون عاطفيًا، لقد زرع أبي المسؤولية في قلبي حد أنني أصبحت أشعر بدوري العظيم تجاه كل المحيطين بي. الحب نقطة ضعف الرجال، هذه هي الحقيقة الوحيدة التي أؤمن بها، وصديقي لن يكون بهذا الضعف، لذلك لقد سهلت كل طرق الزواج أيضًا لياسر، ما أعجبني في هذا الدكتور هو غياب العاطفة في كلماته، تتحدث معه فتشعر أنك تتحدث مع ريبورت، لا يفهم شيئًا عن العاطفة، لا يفقه شيئًا عن الحب، يُخطط لاقتناص كل الفرص ولا مانع من التخلي والتنازل عن كل شيءٍ في سبيل إرضاء نجاحه ورغبته. هو لا يحب سيدرا، لكنه سينجح معها لأنه يعلم كل العلم أنني لن أقبل باستمراره في حياتها إن لم يحقق لنا النجاح المرغوب، الأمر أشبه بأن تلعب

وحدك لعبة الشطرنج، أنت المسؤول عن كل العساكر الخاصة بك والخاصة بالخصم، أنت من تدير، تحكم، تُقرر من يموت ومن يحيا، تقرر نهاية الأشخاص وتقرر بدء وولادة أشخاص جدد. كل هذا حدث بدعم أبي الذي توارى بين الكواليس، وطوال هذه المدة لم أسمح لأي شخصٍ أن يتمرد عليّ، اتخذت القرار الأصعب في حياتي.

تركت كل ذكرياتي القديمة في السيارة وخرجت منها إلى منزل ياسر، هناك كان ينتظرني مع زين.

على طاولة الشطرنج جلسنا بعدما أعدت لنا سيدرا زجاجات النبيذ.

زين بالقطع البيضاء.

ياسر بالقطع السوداء.

اتفقت أن يكون العشاء على حسابي للمنتصر.

بدأت اللعبة، كعادتنا نتخذ القرارت المهمة ونحن نلعب وتبدأ مبارزات كلامية وتلميحات سخيفة بيننا.

التنظيم يا أصدقاء، من يهتم بالتنظيم في البداية، ينتصر في النهاية.

استمر حراك القطع من الطرفين حتى انقضّ الفيل الأسود

على الطابية.

ابتسم ياسر وهو يستمتع بأول الخسائر التي تسبب فيها لقطع زين: «أحب اللعب بالفيل، يقطع مسافات طويلة لينال من فريسته، لا يهتم بالمسافة التي يقطعها، الأهم أن يحقق غرضه في النهاية».

أشعل زين سيجارته وواصل حركة العساكر حتى حانت الفرصة له باستخدام الطابية ليأكل أحد العساكر وهو يقول: «المهم ألا تنسى أن تأكل وأنت في طريقك لهدفك الرئيسي».

للمرة الأولى هدد ياسر الملك الأسود بالوزير: «أحب اللعب بالوزير، قوي ويخشاه الجميع، ويخشى تحركاته، لا أحد يمكنه الوقوف أمامه مهما كانت قوته وصلابته، ولا يمكن لأي قطع مضاهاته، إنها القوة الخارقة الفائقة».

فاجأه زين بحماية ملكه بالطابية، بل إنه هدد الوزير الذي يحتاج الآن للهروب منه وإلا سيأكله: «لكن مشكلته أنه لا يعطي القوة لصاحبه حالة الهجوم عليه، خططه واضحة جدًّا، ووضوحه يجعل الخصم يعرف ويبني الخطط قبل أن يتحرك من الأساس، ثم إن قوته المبالغ فيها تجعلك تتردد كثيرًا قبل التضحية به، وهنا نقطة ضعف أخرى لمالكه، على أي حال اللعب لا يزال في بدايته».

قال ياسر وهو يفكر في الحركة التي ستنقذ الوزير: «بالضبط، خططه الواضحة قد تكون في صالح الخصم، لكنها قد تنقذه أكثر لو كانت واضحة مع زملائه، أقصد أن من الشرف أن يوضح الوزير خطواته لبقية القطع حتى يمكنهم الدفاع عنه».

تدخلت في الحوار بينهما وأنا أحرك قطعة الحصان لحماية الوزير مع إنذار تهديد لملك زين: «أحب اللعب بالحصان، يتوارى بين القطع ولا يكلف نفسه الكثير من التحركات للفوز بغنائمه، يملك أكثر من خيار للهجوم والدفاع، وأكثر ما يميزه أنه بحركةٍ واحدة يمكنه الفوز بأكثر من معركة».

أخطأ زين في لعبة الدفاع وضحى بالوزير الخاص به، هنا ابتسمت لياسر وأنا أقول له: «هذا بالضبط ما قصدته، إن حركة الحصان جعلت زين يفكر في الدفاع عن الملك والحفاظ على الوزير، بينما عقله لم يدرك أن الفيل أيضًا مهدد بالقتل. تخيل حركة واحدة أصابته بالضرر ثلاث مرات، لذلك الشطرنج لعبة تحتاج للأعصاب القوية مع الصبر والحيل المتنوعة، الثبات الانفعالي في هذه المواقف سينقذك لا محال حتى لو كنت الطرف الأضعف».

اتجهت ناحية زين مستعدًا لألعب مكانه لعبة، تمامًا كما فعلت مع ياسر، ظللت أتابع كل نقاط القوة والضعف عند

ياسر، ثم بحركة عسكري واحد أصبحت الطابية والحصان مهددين: «الدرس الثاني ألا يخطر على بالك من أين سيأتي الخطر، أن تكون نقاط قوتك هي آخر ما يخطر على بال خصمك. التوتر الذي أصاب زين في لعبتي الأولى لك، والدهشة التي أصابتك الآن بعدما هددت قطعك، فكن حريصًا فالتهديد لا يحدث إلا مرة واحدة، وبعدها ينتهي الأمر».

استمر اللعب وسط حالة صمت قطعه ياسر:

«لا أتوقع أن ينجح آدم في هدفه، القاتل الحقيقي أذكى من أن يترك أثرًا خلفه، لمصلحته أن يبقى الحال كما هو عليه حتى يجن جنون الباحث عن الحقيقة فيعلن استسلامه».

حرك زين إحدى القطع التي هددت الملك بشكلٍ مباشر مرة أخرى: «أظن أنك تحتاج لترتيب أفكارك أكثر من هذا، أنت تلعب بفوضوية شديدة».

ردها ياسر بحركةٍ أخرى أنهت اللعبة بالتعادل.

هنا قلت: «حسنًا، وهذا الدرس الثالث والأخير لكما.. لقد وقعتما في الفخ وسمحتما لي بالتحكم في مصير القطع الخاصة بكما، فمن الطبيعي أن تكون كل تحركاتكما مبنية على خططي، والطبيعي أن تنتهي المبارزة بالتعادل وأنتصر

أنا في هذه المعركة، فلن أدفع حق عشاء أيٍّ منكما».

ابتسم الاثنان وظللنا نتحدث عن أشياءٍ عامة، حتى فوجئنا باتصال السكرتير الخاص بياسر وهو يصرخ: «أحضر فورًا يا دكتور، لقد اندلع حريق في المستشفى ونحتاجك».

هرولنا نحن الثلاثة مسرعين لننقذ الموقف.

السادسة صباحًا.

صحراء جرداء، أقرب نقطة للحياة تبعد عنها ما يقارب ثلاث ساعات، لا يمكن لأي شخصٍ لا يعرف تفاصيل الطريق أن يصل إلى هنا، لا بُدَّ من متمرسٍ يجيد ويعرف خبايا الصحراء حتى يصل إلى مقصده، وإن صح التعبير إلى هذا السجن العظيم الذي يملك كل مقومات الحياة، ولا حياة فيه.

تمم الرجل على الغرف المنفردة، ثم أمسك هاتفه واتصل بأحدهم.

-صباح الخير يا قائد، لقد نصبنا الفخ لكل أفراد العائلة وتم خداعهم بـ مكالمات مُزيفة كما أمرتنا، ثم تم نقلهم جميعًا إلى الوجهة التي حددتها لنا.. كل شيء جاهز لاستقبالك الآن.

ثم أنهى المكالمة.

الفصل السابع

ما حدث مع هذه العائلة أمر جنوني، تتبُّع الأحداث، ترابطهم في البداية ثم فراقهم عن بعضهم البعض، التحديثات التي واجهوها، المواقف التي كشفت نواياهم، والاختيارات التي أظهرت رغبتهم الحقيقية. لقد ضحى طاهر بإنسانيته من أجل السلطة، وضحى زين بنعيم أبيه مقابل حريته، ضحت سيدرا بتعليمها وكيانها من أجل المال، بينما ضحت رودينا بقلبها من أجل رفاهيتها، تضحيات اختاروها عمدًا مهما اشتكوا من قسوة اختياراتهم، لقد اختار كل منهم طريقه منذ البداية، حتى قتل والدهم كان بسبب اختيار أحدهم لهذا القرار، والآن تغيرت اللعبة، وبعدما ضحوا بكل شيءٍ من أجل مواصلة حياتهم بالطريقة التي تناسبهم، حدث ما لم يتوقعه أحد.

بعد عشرة أيام.

غرفة واسعة لا شيء فيها مثير للاهتمام أكثر من شاشة عريضة تسيطر على الحائط بشكلٍ كامل، تظهر فيها تغطية الكاميرات والمسجلات الصوتية للمبنى بشكلٍ كامل، حتى الهواء العابر في الجو يمكن سماعه بوضوح، على المكتب تجلس دكتورة يارا.

«حمدًا لله على السلامة يا آدم، أشكرك على تعاونك معنا، صدقني لم نكن نملك أيةَ حلولٍ أخرى إلا هذه الطريقة».

قلت: «لقد ساعدتك بعد مكالمة السيد وزير الصحة وإخباري بالتفاصيل، وأُقدّر تمامًا احترامه لرغبتي في تنفيذ وصية الحاج خورشيد، ووعدته بتقديم كل طرق المساعدة الممكنة حتى تنكشف الحقيقة التي تبحثون عنها، لكنني ما زلت أملك الكثير من الأسئلة وأتمنى الإجابة عنها».

هزت الدكتورة يارا رأسها مستعدة لسماع أسئلتي.

«ماذا لو لم ينجح الباحثون في إيجاد المصل؟».

أجابت بكل برود:

«سيبقون هنا حتى تتعفن جثثهم».

-ماذا عن الأطفال؟

نهَضت من مكانها وأخبرت أحد مساعديها بإيقاظ أفراد العائلة.

متجاهلة سؤالي قالت: «استعد للقائك بهم يا متر».

من المسجلات الصوتية في كل غرف بدأ صفير مزعج حتى استيقظ الجميع، يرتدون ملابس طبية، كل منهم في غرفةٍ منعزلة عن الآخر، غرفة فارغة من كل شيءٍ عدا سرير

وتلفاز.

ثم قلت: «صباح الخير عائلة خورشيد. يؤسفني أن أقول لكم هذا، لكن حتى لا يجن جنونكم مما يحدث، بعد وفاة والدكم وبالصدفة البحتة تم إعادة فحص الجثة مرة أخرى، لقد علمت الحكومة بأمر جريمة القتل التي حدثت له، كانت الحكومة قد بدأت بالفعل في إجراءات تتبع القاتل ومعرفة الحقيقة، الخبر الجيد أن الحكومة قد توقفت بالفعل عن معرفة حقيقة القاتل، والخبر السيئ أنها اكتشفت أن والدكم يحمل جينًا وراثيًا معديًا وخطيرًا ونادرًا، يصيب مراكز المخ باضطرابات عدوانية كفيلة أن تجعلك تقتل العشرات، وربما المئات، وتتغذى على أجسادهم حتى تبدأ في التهام نفسك، المرض ينتقل عن طريق المعاشرة الجنسية أو نقل الدم، وقد بدأنا في جمع كل من يحمل الجين ومن انتقل له عن طريق المعاشرة الجنسية».

بدأت حالة هياج وسخرية وغضب، كل منهم عبّر عن استقبال كلمات آدم بطريقةٍ مختلفة، طاهر الذي ابتسم وعاد إلى سريره هادئًا، بينما زين الذي انفجر غاضبًا وكاد أن يحطم شاشة التلفاز، بينما بدأت سيدرا في نوبة ضحك هستيرية، عكس رودينا التي اجتاحتها نوبة بكاء قاسية حتى الصراخ، بدأ ياسر في حالة سباب للجميع، بينما

ماريهان ظلت تداعب شعرها أمام التلفاز وكأنها تتحسس جمالها.

-لقد تم الاتفاق على إيداعكم هنا حتى يتم العثور على المصل المناسب لإنقاذكم، فوجودكم في الخارج يُشكل خطرًا عليكم وعلى الجميع، وجودكم في هذه الغرف أمر مؤقت، أنتم في قصر مجهز بكل الرفاهيات التي تحتاجونها والتي تجعلكم تعيشون أيامكم بشكلٍ أفضل، وتمارسون كل عاداتكم اليومية، لكنكم لن تستطيعوا الهروب أبدًا، فأنتم تحت النظر طوال الوقت، غير أن في الخارج حراسة مشددة لديها تعليمات مباشرة بإطلاق النيران على كل من يحاول الاقتراب من الخط الفاصل بينكم وبين السور الخارجي.

هنا استوعب طاهر سريعًا الوضع وقال بـ كبريائه المعتاد:

«إلى متى سنظل هنا؟».

تدخلت يارا وأجابت: «أهلًا طاهر، أنا دكتور يارا المشرفة الصحية عليكم، ستبقون هنا حتى يتم اكتشاف المصل».

واصل السؤال الذي سألته من قبل: «وإن لم يتم اكتشافه؟».

أجابت: «سيتم بقاؤكم هنا للأبد».

ضحك طاهر: «أنتِ تمزحين؟!».

بحزمٍ تعمدت إظهاره: «أظن أن من السخافة أن ترى في هذا الموقف شيئًا من المزاح».

واصل طاهر: «وماذا عن أعمالنا وتجارتنا؟».

أجابت دكتورة يارا: «تم التحفظ على كل شيءٍ إلى أن يجد جديد، وكما قال السيد آدم في حال اكتشاف المصل الحكومة ستنفذ وصية الحاج خورشيد بعدم القبض على القاتل وتركه ليغادر البلاد، لكن مع الاحتفاظ بنصيبه في الميراث إلى الجمعيات الخيرية كما وصى الحاج خورشيد. من الغد ستبدأون حياتكم هنا كالمعتاد، وإلى أن يجد جديد في أمركم، تذكروا عدم محاولة التمرد أو إثارة المشكلات فلدى الحراس أمر بالتدخل وإطلاق النيران المباشر دون رحمة، لذلك حافظوا على حياتكم».

بقلب أمٍ تخشى على ابنتها سألت ماريهان: «وماذا عن الأطفال؟».

أجابت: «هذا السؤال سابق لأوانه».

هنا تمالكت سيدرا نفسها وسألت: «ما الضمانات التي لديك لنصدق أن أموالنا ستبقى محفوظة حين نخرج من هنا؟».

أجابت: «من الجنون أن تطالبي الحكومة بضمانات، نحن ملتزمان بكلمتنا».

سألت رودينا: «هل سيمكننا مغادرة البلاد بعد الخروج من هنا؟».

أجابت يارا: «هذا يعتمد على نتيجة المصل وتأثيره. سيبدأ يومكم غدًا، أرجو أن تحتفظوا بالهدوء في تعاملكم مع بعضكم البعض حفاظًا على صحتكم وذويكم».

-يا دكتور؟

ناداها زين فاستجابت: «ماذا تريد يا زين؟».

-الكلب، أرجوكِ هذا طلبي الوحيد، أرجو أن تحضريه، لن أستطيع التعايش مع هذا الوضع في غيابه.

ابتسمتُ لطلب زين، وهززت رأسي ليارا حتى تستجيب لطلب زين، وقد كان، فقالت: «ألا ترى أن هذا الطلب قد يؤذي؟».

قال: «سأحميه بكل ما أملك».

-ماذا لو كنت أول من يظهر عليه الاضطراب؟

قال وهو على وشك البكاء: «لن أؤذي الشيء الوحيد الذي أنقذني من الموت، أعدك سأكون حريصًا عليه حتى من

نفسي».

تنهدت يارا: «حسنًا لك ما تريد».

أُغلق الميكروفون، ثم عدنا لمكتبها بعدما تأكدنا من عودة كل منهم إلى سريره.

-ستتم مراقبتهم ٢٤ ساعة يا آدم، وستواصل الجهات الأمنية والطبية تتبع كل من حوله الشكوك وحاملًا للچين. نأمل أن نسيطر على الوضع، وتساعدنا بالتقرب منهم أكثر حتى نعرف كل الأشخاص الذي يحملون الجين، وبالطبع الهدف الثاني أن تعرف القاتل الحقيقي.

-آمل أن يسير كل شيءٍ على ما يرام.

شردت قليلًا في الأسئلة التي سألوها لها وأجابت عليها، ثم قالت: «ألم تلحَظ شيئًا ما في أسئلتهم؟».

هززت رأسي نافيًا فقالت:

«لقد سأل طاهر عن تجارته، بينما سألت سيدرا عن المال، في حين سألت رودينا عن إمكانية السفر، وماريهان عن الأطفال، الوحيد الذي لم يسأل عن كل هذا هو زين، الوحيد الذي سأل عن كلبه، وكأنه قد ترك الحياة منذ فترةٍ طويلة، زهد فيها».

لقد حق قولها، وصدقًا كنت في حاجةٍ لمن يساعدني، فقلت لها: «أرجو أن تساعديننني في معرفة الحقيقة».

قالت وهي تبتسم: «سأحب هذا، لكن علي أولًا معرفة نتيجة فحوصات المشتبه فيهم».

قلت: «ماذا تقصدين بالضبط؟».

قالت: «أنت لم تعرف كل من له علاقة بهذه العائلة، نحن تكفلنا بهذا، ستعرف كل شيءٍ في ميعاده، والآن اذهب إلى النوم، فغدًا ينتظرك يوم شاق».

نهضت يارا من مكانها واتجهت لغرفتها لتتركني في غرفة المكتب، فتحت الكاميرات لأجد أن الجميع قد عاد إلى نومه، والآن علي انتظار الصباح وبداية فصل جديد في هذه القصة التي يبدو أنني وقعت فيها.

فصل جديد في لعبةٍ طالت فيها الأسئلة والمفاجآت، أن تجتمع العائلة في مكانٍ واحد فالأمر أشبه بأن تضع وحوشًا جائعة مع بعضها البعض في قفصٍ واحد، ثم تجلس لترآهم يأكلون بعضهم. فصل جديد بعد كل هذه المكائد والخطط ضد بعضهم، الآن عليهم أن يتحدوا أو على الأقل أن يتجنبوا صدامًا مباشرًا، فإن لم يقتلهم المرض فالحراس سيتكفلون بهذا. أتمنى أن يستوعبوا خطورة الموقف، أتمنى!

الثانية عشر ظهرًا.

ها قد أتت يارا، الطبيبة التي تتكفل بهم، وتتابع حالاتهم، ومساعدتي الجديدة.

-صباح الخير أ/ آدم.

-صباح النور دكتور يارا.

-ما رأيك في إزالة التكاليف بيننا؟ اسمي يارا واسمك آدم.

-أحب هذا.

ونحن نشرب القهوة سألتني: «خلال فترة البحث لم تشعر أن أحدهم على وجه التحديد هو الجاني؟».

قلت: «لا أضع المشاعر في طبيعة عملي، أنا محامي والمهنة تطلب مني البحث عن الدلائل الملموسة».

وهي تقطم قطعة الشوكلاتة قالت:

«أظن أنك ستظل تبحث طوال حياتك بهذه الطريقة».

قلت ساخرًا: «لقد سمعت هذه الجملة أكثر من مرة، الناس عاطفيون بطبيعتهم، يؤمنون بالخرافات، يتغنون بالإيمان، يصدقون القصص الخرافية، ويدافعون عنها، الناس تقودهم العاطفة بشكلٍ كامل في كل تصرفاتهم».

قالت: «أنت لا تعترف بالإيمان؟».

قلت: «أنا أعترف بالعلم والحقيقة والدليل الملموس».

قالت: «هذه قضية شائكة، لأن العلم قد يساعدك في صنع الأفكار والخطط، قد يساعدك في اكتشاف جديد يغذي عقلك، وقد يوضح لك بعض التساؤلات المُبهمة، لكنه لن يجعلك تشعر بإنسانيتك، تعاملك مع الناس على أنهم مجرد خلايا وأفكار ومبادئ متحركة سيجعلك تعرف القشرة الخارجية عنهم، لكنه لن يجعلك تتعمق في قلوبهم، سيتحدثون معك بعقولهم، لكنهم لن يتعروا أمامك. ما يدفع الناس للدفاع عن أرضهم، ما يدفع الناس للركض وراء أحلامهم، لتحمل الهزائم والانكسارات، والنهوض والحرب مرة أخرى، ما يدفع الناس للتضحية والحب والعطاء، البكاء والصراخ والحزن والسعادة، حتى الغضب والقتل، ما يدفعهم لكل هذا هو الإيمان، ألا تؤمن كأنك قررت أن تقص جناحاتك وتعيش طائرًا في قلب المحيط لا يعرف العوم ولم يعد قادرًا على الطيران».

وضعت إصبعها على قلبي وواصلت:

«الإيمان هو من سيقودك لمعرفة الحقيقة يا آدم».

-ثم؟

-لقد أردت محاربتهم بالعقل، وقد نجح الجاني في تشتيت عقلك والسيطرة على عقولهم، فحتى الذي لا يعرف الحقيقة سُيطر عليه حتى يتعمّد إلهاءك، وبالتالي أصبح الجميع على مسافةٍ واحدة. الآن ما رأيك أن نغير الخطة؟ سنستدرج عاطفتهم ونتابع ردود الفعل، نستغل الوضع القائم لمصلحتنا.

هززت رأسي بلا حيلة: «لنحاول».

ابتسمت يارا: «والآن حان وقت استيقاظهم».

اقتربت من المسجل الصوتي: «صباح الخير عائلة الحاج خورشيد».

استيقظ الجميع وبدأوا يستعدون لليوم.

واصلت: «عند مقبض الباب أسورة لكل منكم، لا يمكنكم الخروج من غرفتكم إلا بعد ارتدائها، ستبقى ملازمة لكم طوال فترة خروجكم من الغرفة، هذه الأسورة تتابع تحركاتكم وانفعالاتكم الحسية والعصبية وخلايا المخ، يمكننا من خلالها السيطرة على نوبات غضبكم عن طريق اهتزازت كهربائية مباشرة في خلايا المخ، نأمل ألا نستخدمها أبدًا».

ضحك زين: «تطور العلم كثيرًا».

-والآن لتبدأ جولتنا.

ارتدى أفراد العائلة أساورهم، ففتحت الأبواب. تحركوا حتى اجتمعوا في قلب المبنى، هنا بدأت يارا في تعريف المكان:

هذا القصر صنعته الفرقة الطبية الروسية لاستقبال مصابي الأوباء والأمراض الخطيرة من البرجوازيين، حتى يتمتعوا بكل الرفاهيات التي اعتادوا عليها في حياتهم الخارجية، لقد نجحوا في توفير كل الاحتياجات الممكنة، كل شيءٍ هنا بميعاد، الفطار في الثامنة صباحًا، الغداء في الثالثة عصرًا، العشاء في التاسعة مساءً. تغلق الأبواب بشكلٍ تلقائيّ في الثانية عشر منتصف الليل، طوال اليوم يمكنكم اللعب، القراءة، التصفح الإلكتروني، يمكنكم مشاهدة التلفاز، كل شيءٍ متاح لكم شرط ألا تسبب أي ضررٍ لأي شخص، وإن شعرنا بذلك فلن تتحملوا عواقب رد الفعل.

أنتم لستم سجناء، نحن هنا للحفاظ عليكم وعلى المجتمع، ونأمل أن تنتهي هذه الفترة في أسرع وقتٍ ممكن، ختامًا أريد تنبيهكم أن تتقبلوا ضيوفكم الجُدد، ثمة أشخاص تحت وضع الاختبارات إن ثبت إصابتهم بالمرض فحتمًا سيلتحقون إلى هنا».

واصلت يارا تعريفها بالمكان وتفاصيله بينما كنت مشغولًا بمتابعة ردود أفعالهم وتعبيراتهم لبعضهم البعض.

في النهاية تفرّق أفراد العائلة؛ زين الذي قرر الخروج إلى الحديقة لاستكشافها، بينما اجتمعت سيدرا مع ياسر وطاهر مع زوجته، واتجهت رودينا للمكتبة تتصفح الكتب والروايات.

-هل بإمكاني التحدث مع آدم على انفراد؟

أجابت يارا: «سيكون هذا طبيعيًّا ومنطقيًّا، لديك غرفتك الخاصة، بإمكانك دعوة أي شخصٍ شرط أن تتحدثا وراء الزجاج العازل حفاظًا على صحتك».

مر اليوم هادئًا جدًّا، لم تحدث أية مناوشات بينهم، كانت مناقشاتهم جانبية عابرة، تشعر وكأن كلًّا منهم في عالمٍ آخر عن غيره؛ ما زالت فكرة الاستيعاب صعبة عليهم، وتحتاج لوقتٍ حتى يتم التأقلم عليها.

سألتُ يارا: «قلتِ إن عليهم تقبُّل ضيوفهم الجدد، أريد معرفة هؤلاء الذين تم عزلهم حتى تتبين نتيجة الاختبار».

قالت: «نعم، الكثير من المحيطين بهم تحت الاختبار».

-حسن الصياد!

هزت رأسها: «نعم بالطبع، أنا أعرف أنه جمعته علاقة مع رودينا».

قلت: «حسن الصياد مع طاهر في مكانٍ واحد! لا أتوقع أن هذا سيمر مرور الكرام».

-هم لا يملكون إلا التزام الهدوء لينجون من الموت يا آدم، أقول لك هنا لا تكن عاطفيًّا، الإنسان يبقى متمردًا وعدوانيًّا، لكن حين تضع على رأسه المسدس يصبح مسالمًا وهادئًا لأنه يعرف تمامًا أن معناه الموت لأنه يحب الحياة. لا تقلق، سيكون كل شيءٍ على ما يرام يا آدم، ثق في هذا.

حتى لو كنت لا أثق في توقعها ونظرتها، منذ اليوم الأول في هذه اللعبة وأنا لا أملك إلا الانتظار.

مر اليوم الأول هادئًا، تبِعه الثاني والثالث، كان صمتهم مُريبًا، مُربكًا، التزامهم بالقوانين لهذا الحد، حتى هدوئهم وتجنب أي صدامٍ بينهم، كلها أشياء بعثرت أوراقي. يمارسون حياتهم بشكلٍ طبيعي جدًّا وكأنهم في حياتهم العادية.

في صباح اليوم الرابع.

خرجوا في ميعادهم المعتاد، وهنا نشبت أولى المشاحنات حين انضم حسن الصياد لهم.

اقترب طاهر منه وهمس في أذنه:

«يا ابن العاهرة! لولا أننا في هذا المكان لقطعت رأسك».

دفعه حسن بقوة: «حافظ على هيئتك أمام زوجتك وابنتك يا طاهر، لا تتوقع مني أن أكون هادئًا».

تدخلت رودينا ووقفت بينهما: «أرجوكما هذا ليس الوقت المناسب للتحدث عما حدث».

همهم طاهر: «لطالما كانت اختياراتك تجلب لنا العار».

ابتسم حسن: «صدقني ليست أسوأ من اختيارات أبيك».

انقض عليه طاهر وهو يلكمه في وجههِ ويسبه بأفظع الألفاظ.

كنت أتابع الموقف مع يارا من الكاميرات.

-سيقتله!

قالت وهي تواصل متابعتها: «لن يفعل هذا».

-ألن نتدخل؟

-لا، دعنا نرى ما سيحدث.

اشتدت اللكمات بينهما ولم يحرك أحدٌ ساكنًا، ظلوا يتابعون الموقف كالغرباء.

استمر العراك بينهما فأدار زين ظهره لهما وخرج وهو يدندن، وكأن الأمر لا يعنيه:

دودة الكتب حرامية

«هذا الشجار يحدث بسبب تلك العاهرة، انتهى زمن الرجال».

أمسكت سيدرا سكينًا لتعطيه لطاهر قائلة: «انهض يا طاهر وخلصنا منها، الساقطة التي وضعت رؤوسنا في التراب».

كلمات أثارت غضب طاهر فابتعد وفي عينيه شرارة غضب ناحية رودينا التي هربت إلى الحديقة. حالة من الفوضى والجنون أصابت الجميع، بينما الحراس يسألون يارا عن إمكانية تدخلهم في الأمر، وهي قاطعة كل الأسئلة: «اتركوهم وشأنهم».

استمرت حالة الكر والفر بين طاهر ورودينا في الحديقة، حتى لمحت الأخيرة زين يقف هنالك يتابع الموقف، فركضت نحوه واختبأت وراءه: «أنقذني يا زين، أنقذني».

تنهد زين: «اللعنة عليكم جميعًا!».

حاول طاهر الإمساك برودينا، هنا عركل زين طريقه:

«انتهى الأمر يا أخي، هي في حمايتي الآن».

-سأقتلك أنت وهي.

-ابتعد يا زين، اتركه يُخلصنا من العار.

كلمات جديدة تزيد حمية الغضب من سيدرا، فقال زين:

دودة الكتب

«قلت لك انتهى الأمر يا طاهر».

انقض طاهر على زين!

هنا قلت: «يارا صدقيني، لا بُدَّ أن نتدخل، زين عدواني، إن تمكن منه سيقتله!».

بهدوءٍ قالت: «لن يحدث صدقني».

نشبت معركة بينهما وسط حضور الجميع وصراخ رودينا وماريهان.

ظلا يواصلان اللكمات بوحشية، بكل قسوةٍ وعدوانية وتراكمات مواقف انفجرت دفعة واحدة، حتى أمسك زين السكين ووضعه على رقبة طاهر غاضبًا، ثم رفعها في اللحظة الأخيرة، ألقاها بعيدًا قائلًا:

«هذا ليس ما أريده، من أجل ابنتك وزوجتك ولأسبابٍ أخرى».

سادت حالة من الصمت.

«في الأوقات الصعبة يعود الإنسان لقانون الغابة الذي بدأه أسلافهم القدامى في الغابة (البقاء للأقوى)، وما حدث كان انتصارًا لزين الذي سيدير أمرهم الآن».

كلمات قالتها يارا مؤكدة على توقعاتها بأنه لن يقتله مهما اشتد الخلاف بينهما.

وقف زين أمام الجميع، ثم قال بنبرةٍ جادة:

«الآن حان الوقت لنضع نحن قوانينا الخاصة للتعايش هنا».

اتجه إلى الداخل وتبعه أفراد العائلة، جلسوا على الطاولة في حالة صمت.

قال: «أنتم منزعجون من الوضع الذي فُرض علينا، أليس كذلك؟

لم تعتادوا على التأقلم، هذه تربية أبيكم القذرة لكم، ترك بداخلكم أشياء جيدة وأشياء سيئة، لكنه لم يعلمكم التأقلم على الوضع الراهن.

أنا لست أفضلكم، لكنني تعلمت التأقلم منذ نعومة أظافري، حين ولدت ووجدت أن طاهر هو الابن المفضل، الكبير الذي لا يقدر أحد فينا على عصيان أوامره. لقد تمردت على قانون منزلنا السخيف كما حاولتم أنتم التمرد على ضبط النفس والوضع القائم في هذا السجن، لقد تأقلمت من قبلكم على محو شخصيتك، على أفضلية الغير عنك، الأفضلية في العطاء والحب واحتواء إخوتك عنك، التأقلم على النزول

إلى الشارع وصنع عائلة خاصة بك من المجرمين والبلطجية لأن عائلتك لا تريدك أن تكون فردًا منهم، التأقلم على فرض الرعب والقوة على الجميع حتى تكسب احترامهم لأن عائلتك لم تحترم إلا من يملك السلطة ويتحكم في مصيرهم، التأقلم على صنع شخصية حادة وعدوانية للحفاظ على ما تبقى من الاحترام، حتى حين ظننت أن أمري مهم عندما أدمنت الكوكايين وتم نقلي إلى المستشفى كان للحفاظ على صورة العائلة، وحين أردت الاستقلال التام واختيار من يرافق حياتي القادمة لأعيش حياة هادئة متزنة، قرر أبي وأخي أن هذه الفتاة لا تناسبني، وأنني لست جديرًا بها، فكانت من نصيب طاهر الذي بالطبع سيحافظ عليها وعلى علاقة أبي العملية بأبيها، يا لوضاعة الأمر!».

قاطعته ماريهان: «لقد انتهى الحديث في هذا الأمر منذ زمن يا زين».

لم يرد زين عليها وواصل: «ثم الآن أصبحنا مرضى في عزلٍ صحيّ، غير أن أحدنا قرر قتل أبينا، وكل ما يحدث لمصلحته حتى يتوارى أكثر عن الأنظار، ولقد مللت هذا الوضع، إن لم تظهر الحقيقة فستعرفون كل شيءٍ عن حياة أبيكم القذرة، ولن يهمني إلا النجاة من هذا الوحل».

نهضت سيدرا من مكانها وهي تهمهم:

«الخمورجي يدير الموقف الآن».

ثم تبِعها ياسر وطاهر وماريهان، حتى رودينا وحسن.

ظل زين جالسًا في مكانه يشعل السجائر وينفث في الهواء بشراسة.

هنا استدعته يارا: «أُخرج إلى الحديقة وتعال إلى مكتب المتابعة، أنا في انتظارك».

دقائق وقد وصل زين إلى الغرفة الزجاجية (المناقشة).

ضحك زين فور أن رآني: «توقعت أن أقتله يا متر صحيح؟».

بملامحي الجامدة ونبرة صوتي الجادة قلت: «أتوقع منك كل شيءٍ يا زين، حتى كلماتك العاطفية لم تُثِر عاطفتي».

هنا قاطعتنا يارا: «لماذا لم تقتله يا زين؟ أنا أعرف عنك أنك عدواني وسجلك الإجرامي خير شاهد على ذلك».

وكأنه لم يسمع سؤالها: «كل هذا الجمال وتتحدث بهذه النبرة العدوانية! زمن غريب».

ابتسمت يارا: «الزمن نفسه الذي قادك لكل تصرفاتك الإجرامية من أجل الفوز بالسلطة، لكن حين أتت الفرصة لقتل منافسك الوحيد عليها لم تفعل. لماذا لم تقتله يا زين؟».

-هذه مسألة شخصية.

-تتوقف الأسرار الشخصية عندما تتعلق بأمر الجماعة، والآن لقد أصبحت قائدهم، لذلك ينبغي عليك أن تفكر في أمر الجميع.

بدا على زين أنه لم يفهم كلمات يارا، فواصلت:

«يعني أنك أصبحت مسؤولًا الآن عنهم، عن مصالحهم وقرارتهم وأموالهم، كلها أشياء أصبحت مرهونة بمعرفة القاتل الحقيقي، القانون سيحمي القاتل من معاقبته على قتل أبيه، لقد وعدتنا الحكومة بهذا، لكن في سياقٍ آخر لن يفلت من طائلة جرائمه الأخرى إن ثبتت عليه، والآن من باب المسؤولية عليك أن تخبرني لماذا لم تقتله؟».

-لأنني لا أريد أن تتفكك عائلتنا، ولا أريد قضاء ما تبقى من حياتي وهم ينظرون إليّ بأنني الابن الضال الذي قتل أخاهم الأكبر.

هنا قلت له: «لا تحاول أن تُبرئ نفسك من دم أبيك».

-أنا لست متهمًا، وكما قلت من قبل كل الأصابع تشير إليّ، لكن الواقع ليس كذلك، أنا الوحيد الذي حاولت لم شمل العائلة، لم يرضِني أبدًا هذا التشتت، كنت الضال لأنني أردت

أن نجتمع. أتظن بعد أن نجتمع سأكون السبب في تفرقهم مرة أخرى؟

-كانت فرصتك للفوز بماريهان.

ابتسم زين لكلماتي، لكنه قال بحكمةٍ لم أعتدها منه:

«في سبيل أن تعيش ابنتها وهي تعلم أن زوج أمها هو قاتل أبيها؟! لستُ أنانيًا لهذه الدرجة، ثم إن استقرار العائلة أهم من مصلحتي الشخصية، هذا كلام يبدو غريبًا على شخصيتي، لكنني لم أكن يومًا أنانيًّا، في النهاية ستنقص العائلة شخصًا، وقد يكون شخصين، وقد نصبح جميعًا في السجن، لكن ما دام هذا لم يحدث حتى الآن، فلماذا نستعجل القدر؟».

ردت يارا: «إذًا لم تقتل طاهر لاستقرار العائلة، هذا سبب نبيل بالطبع، لكن ماذا عن السبب الآخر؟».

ضحك زين: «لأنه الوحيد الذي يعرف حجم ثروتنا، وفاته تعني دفن أموالنا معه».

أثناء حديث يارا مع زين، أبلغها مساعدها أن حسن الصياد خرج من غرفته وفي طريقه للحديقه، فقالت لي: «تابع الموقف يا آدم».

عدتُ سريعًا إلى غرفة المراقبة، أشعلت سيجارتي ثم جلست أتابعه وهو يتحرك في الحديقة، في هذه الأثناء خرجت رودينا هي الأخرى.

تنهدت وأنا أتابع تحركاتها: «أتمنى ألا تلاحظ سيدرا هذه اللحظة».

كانت الحديقة هادئة، والقمر مكتمل في السماء، الإضاءة الخافتة، ونسمة هواء بارد. المكان الذي كاد أن يشهد على حالة قتل الآن عاد لهدوئه وسكينته.

اقتربت رودينا من حسن الذي مدد جسمه وظل ينظر إلى السماء، وقالت: «السماء جميلة اليوم».

نظر حسن بجواره فوجدها، ثم تابع تأمله للسماء، فتابعت:

«ألن تقول أجلس مع السماء والقمر والوجه الحسن؟».

ضحك حسن لكنه واصل صمته.

تنهدت رودي: «اشتقت لك يا حسن. أنا آسفة، آسفة على كل الألم الذي حدث لك، آسفة أنني تخليت عنك في المرة الأولى، وآسفة لأنني عدت وتخليت عنك في المرة الثانية، آسفة لأنني كنت امرأة ضعيفة لم أتحمل الضغوطات، وأنني هربت في معركتك الأولى والثانية، آسفة لأنني لم أختَرك

أول مرة، وأنني حين عدت عاهدتك أن تكون اختياري الوحيد والدائم وخذلتك مرة أخرى. أعتذر لك عن كم الخذلان الذي أصاب قلبك، وأعتذر لك عن كم الصراعات التي خُضتها من أجلي، آسفة لأنني حين رحلت عنك انهلت عليك بكل كلمات القسوة، وآسفة أنني ورطتك في أمرٍ لا يخصك».

ابتسم الصياد وهو يُشعل سيجارته: «آسفة! بسيطة، أنتِ كعادتك تقلبين الدنيا رأسًا على عقب، ثم تعودين وتعتذرين عن كل ما حدث وكأن شيئًا لم يكن، بهذه البساطة».

-لقد قمت بكل هذا خوفًا علينا.

ضحك الصياد: «صحيح، صحيح. لقد قررتِ فجأة في المرة الأولى أن تنتهي علاقتنا، فجأة من تلقاء نفسك، أن تختاري رضاء أبيكِ لأنكِ ببساطة لن تستطيعي التنازل بأن تبدي اعتراضك عليه، أو لأنكِ لستِ مستعدة لتحمل بعض القسوة في سبيل الحفاظ علينا، فضحيتِ بنا بكل بساطة، والأدهى أنكِ قررتِ الارتباط الرسمي برجلٍ آخر في سبيل حريتك والحفاظ على اهتماماتك. هل فكرتِ حتى في تلك الليلة التي رأيتك فيها مع رجلٍ آخر، تقفين بجواره وتبتسمين له وتتشبك أيديكما بكل حبٍ وعاطفة، وأنتِ تفعلين كل الأشياء التي كنتِ قد عاهدتيني أن تفعليها معي، وأنتِ تحققي

أحلامنا مع رجلٍ غيري؟ بل كانت منشوراتك وصورك حينها تؤكد أن القدر اختار لك الرجل المناسب، ومن حسن حظك أنكِ تعثرتِ به، أليس كذلك؟ أتتذكرين كل الكلمات التي كنت تتباهين بها؟ أنا أتذكرها وأعرفها وأحفظها عن ظهر قلب لأنها لم تكن مجرد كلمات، بل كانت سهامًا في قلبي، كانت السهام التي جعلتني أسقط أرضًا من الاكتئاب. لقد شعرت طوال هذه المدة وأنا أراكِ تُعبّرين عن حبك له بأنني أسوأ من في الأرض، لقد جعلتيني أشعر بأنني لا أستحق الحياة أتفهمين؟ كنت أقف أمام مرآتي وأبصق علي، أقول أنت شخص سيئ وحقير، كنت أجلدها وأسلخها وأعنفها، أهينها بكل قسوة، كنت أعاقبها وأنا لا أعرف.. علام تعاقب؟ كنت أجلدها ولا أعرف عن أي سببٍ أجلدها؟ ربما خطؤها الوحيد أنكِ لم تتخيريني أنا لأنني كنت مستعدًا أن أضحي بالعالم، كل العالم من أجلك يا رودي، كل العالم.

قضيت سنوات أمام صورتك وأنت تضحكين معه، سنوات أراها في كل شيءٍ حولي وكأنها شبح يطاردني، سنوات من الخوف والرعب؛ أن ترى قاتلك أمامك ينظر لك ويتباهى بالسيف الذي قتلك به، لا أنت قادر على معاتبته ولا تقدر على النيل منه، بينما الكارثة الحقيقية كانت في قلبي، الكارثة الحقيقية كانت في عدم قدرتي على التعافي منكِ يا رودي، لقد أُصبت بكِ وحاولت التعافي بكل الطرق الممكنة».

في هذه الأثناء عادت يارا: «شيء ما قد حدث؟».

قلت وأنا ما زلت أسمعه وأراقبهما: «لا، عتاب الأحبة».

واصل حسن بصوتٍ هادئ: «حسنًا علامَ تعتذرين، عن كونكِ جعلتيني سنوات أظن أنني شخص سيئ، على تشويهي أمام نفسي؟».

قالت رودي: «كنت أريد مساعدتك على النسيان».

-لأنكِ أردتِ هذا، لكنكِ لم تفكري إن كان هذا سيحدث أم لا. لم أنسَ لكنني طوال هذه الفترة قضيتها وأنا مريض نفسي، مريض يحاول التعافي بكل طاقته ولم ينجح.

قالت وهي تبتسم: «لكنك نجحت في حياتك، ألم يكفِ هذا؟».

هنا قال الصياد: «لكنني لست مُمتنًا لكِ على هذا النجاح، لقد نجحت وحققت كل الأشياء الممكنة، ذاع اسمي في كل مكان، وتغيّرت أحوالي، ليس حبًا في النجاح، لكن الحياة وضعتني ما بين الفشل والبكاء والوقوف وأنا أراكِ تحققين أحلامك، وما بين الانطلاق والنجاح ومحاولة الفوز من جديد في معركةٍ مختلفة مع الحياة».

-وقد فُزت يا حسن.

-هكذا ظن الجميع بما فيهم أنتِ، نعم، ومن يمكنه التشكيك في هذا؟ لقد استطعت خداع الجميع حتى أثبت أنني تعافيت منكِ، أنا ممثل بارع يا رودي، استطعت إقناع المحيطين بي أن كل شيءٍ انتهى بيننا، بينما كل شيءٍ كان بداخلي يبدأ من جديد، لقد حققت الأصعب، واصلت نجاحي واحتفظت بكِ في قلبي رغمًا عني.

-لأنني أحببتك يا حسن.

هنا قاطعها ساخرًا: «لقد وافقت على عودتنا لأنني أحببتك يا رودي، لهذا السبب فقط، لم أهتم من الأساس، ولم أنتظر منكِ مبادلة الحب، ألم أقل لكِ كنت مريضًا بكِ؟».

وهي تستعد للنهوض: «ثم قررت الانتقام مني في المرةِ الثانية والرحيل عني لرد الاعتبار».

ضحك الصياد: «أحب اعتقادك هذا».

-ولن يتغير.

-ابن عابر أليس كذلك؟ كنتِ تريدين الانتقام مني يا رودي.

-حسنًا اذهب وقل لهم هذا، وانقذ نفسك من الخطر الذي يهدد حياتك، وسأخبرهم أنا أيضًا بانتقامك من والدي، وليسدل الستار على هذه القصة.

هنا تساءلت لنفسي: «أي انتقامٍ تقصده رودي؟».

قالت يارا: «أنا أعرف ما تقصده بالضبط».

عادت رودي غاضبة إلى غرفتها، ظل حسن في مكانه، وقد حان وقت نوم الجميع.

-يارا أحتاج العودة إلى منزلي؛ ثمة أشياء تنقصني أحتاج لها.

لم تمانع يارا، لكن أكّدت عليّ أن أعود في الصباح قبل أن يستيقظوا؛ وعدتها بهذا ثم انطلقت.

كاذبًا ادعيت هذا لكنني كنت أحتاج بالفعل للذهاب مرة أخرى إلى غرفة الصياد لإعادة تفتيش محتوياتها؛ أشعر أنني سأعثر على شيءٍ ما يساعدني في حل اللغز.

بعد ساعتين وصلت إلى هناك، عرفني موظف الاستقبال، سألني عن حسن فقلت: «هو معنا الآن».

قال وهو لا يكترث: «حسنًا، أتمنى أن تُفرغ محتويات الغرفة ليسكنها شخص آخر».

تركته ودخلت الغرفة من جديد أبحث بين محتوياتها، فتشت في كل شيءٍ تقريبًا؛ لم أجد شيئًا يستحق الاهتمام به، وقبل أن يتملّك اليأس مني وجدت في جيب معطفه

ورقة مكتوبًا فيها كل أسماء العائلة يتوسطهم اسم الحاج خورشيد، مشطوب عليه بخطٍ خفيف وأسفل اسمه عبارة «حان وقت الانتقام».

تنهدت ثم اتصلت بيارا ودون مقدمات قلت:

«يارا، حسن الصياد هو الذي قتل الحاج خورشيد».

الفصل الثامن

آن وقت الانتقام

خرجت مسرعًا وانطلقت بسيارتي إلى العزل الصحي وأنا أملك الدليل القاطع على انتقام حسن الصياد من الحاج خورشيد، لم أفكر في شيءٍ إلا نهاية اللغز، صحيح أن حسن الصياد لم يقم بهذا وحده، لكن على الأقل الضغط الذي سيحدث له سيجعله يعترف على مساعده.

«واصل طريقك ولا تلتفت إلى الوراء».

أفزعني الصوت، ورغمًا عني نظرت إلى المقعد الخلفي.

بصوتٍ عدوانيّ: «قلت لا تلتفت إلى الوراء».

-أم خالد!

-كم ستحصد بعد هذه القضية؟ مليون جنيه، اثنين، ثلاثة ملايين، اتركها وستجني أكثر مما تتمنى.

وأنا أرتعش:

-كيف سيحدث هذا؟

-اترك الأمر لمن بيده الأمر، ألا تؤمن بالله؟

هززت رأسي:

-بالطبع أؤمن به.

-إذن دع الأمور تسير كما هي ولا تفتش عن خرابك.

-تعرفين القاتل؟

-أنا أعرف ما لا يعرفه أحد، وبإمكاني فعل ما لن يتحمله أحد. من أجل سلامة الجميع وسلامتك عليك ترك كل هذا وارحل.

قلت: «أظن ربما عليك أن تساعديني بدلًا من دفعي للتنازل عنها».

هنا قالت بنبرةٍ أكثر حدة: «لا يمكنني مساعدتك، على العكس حتى وإن لم تخضع لرغبتي فسيواصل أبناء الحاج خططهم معك وتضليلك».

-لماذا؟

-إذا كنت تريد أن يخضع الجميع لك، اِنقذهم في مواقفهم الحرجة، اِنقذهم في الوقت الذي تختفي فيه كل الحلول أمامهم، فتبتكر لهم الحل وطوق النجاة الذي ينقذهم من المأساة، اِنقذهم سرًا لتجعلهم عبيدًا لك طوال حياتهم، لا يعارضونك، لا يعصون أمرًا لك، وهذا بالضبط ما سيجعل

مهمتك مستحيلة يا آدم.

أوقفت السيارة وقلت: «أظن أن عليهم التحرر من هذا الامتنان».

نظرت ورائي فلم أجدها، كالعادة كلما تحدثنا معًا بعيدًا عن الأنظار، تختفي بلا سبب. باتت أم خالد بالنسبة لي هي الشبح الذي يطاردني طوال الوقت، هذه المرأة التي لم أرتَح لها أبدًا، ولم أتحدث معها طوال فترة عملي مع العائلة، شيء ما بيننا يمنعنا من التواصل.

واصلت طريقي حتى وصلت إلى العزل، كان الجميع في حالة ثبات تام بما فيهم يارا، ظللت أتابع الكاميرات بملَلٍ حتى فوجئت بحركةٍ غريبة في غرفة سيدرا.

نهضت سيدرا ووقفت أمام المرآة وكأنها تتحدث إلى نفسها:

«الآن لا بُدَّ أن يدفع طاهر ضريبة عدم قتله لروديا؛ لقد صمِت وقبِلَ أن يتحكم فينا أخوه الخمورجي، ولم ينقذ العائلة من العار».

واصلت كأنها تسأل وتجيب عن نفسها: «نعم نعم، حتى هو لم يلتزم بوفائه وعهده الذي قطعه على نفسه حين أنقذتيه، نعم نعم، معكِ حق، سأتكفل أنا بهذا الأمر. بالطبع سأنتظر

الوقت المناسب، لهذا لا داعِ للقلق».

كلمات انتقامية مريبة ظلت ترددها سيدرا.

استيقظت يارا فأخبرتها بما حدث، لكنها لم تكترث كثيرًا لما سمعته.

-يارا، أم خالد تسيطر عليهم بطريقةٍ مريبة، هي أشبه بالحاكمة التي تدير عائلة كاملة، حتى والدهم لم يكن لديه سيطرة عليهم بهذا الشكل، أنتِ لا تعرفينها، صدقيني هي تملك زمام الأمور.

-حسنًا دعنا نرى ضيفنا الجديد.

أيقظت يارا أفراد العائلة، نهضوا جميعًا واستعدوا للخروج، ثم ما إن خرجوا حتى فُتحت الكاميرات التي تكشف الصالة، وقالت لهم عبر الميكروفون:

«لقد انضم لكم ضيف جديد، نعمة زوجة أبيكم الثانية وشريكتكم في الميراث. نأمل أن تتواصل عملية التعافي على ما يرام يا نعمة، خوفًا عليكِ وعلى الجنين».

حل صمت تام على الجميع بما فيهم أنا.

-نعمة الراقصة صديقة حسن الصياد!

-لقد اختار الطريق الأكثر ذكاءً بينهم يا آدم، بمساعدة أحد

أبنائه تم عقد القران بينهما بطريقةٍ شرعية، وأصبحت وريثة شرعية في كل ممتلكاته مع طفلها.

صفقت وأنا أضحك: «لقد كان أذكى منهم جميعًا».

وهي تتابع ردود الفعل: «حسن الصياد لم يقتل أباهم، لكنه قتل أهدافهم جميعًا».

في هذه اللحظة قالت سيدرا في حالة هياج: «أنتم تكذبون، بالطبع تكذبون، أبي لم يتزوج، أبي لم يُضع ثروتنا بهذه السذاجة، أحدكم شريك في هذا الأمر».

حاولت ماريهان تهدئة سيدرا التي كانت ثائرة: «مستحيل بعد كل هذا مستحيل، رودينا أنتِ شريكتها في التضحية بكل شيء، لقد أضعت عمري وحياتي في سبيل هذه الثروة، أنتم تكذبون، لن يتشارك أحد معنا، لقد تحملت ما لم يتحمله أحد أبدًا، لن أسمح لأي شخصٍ أن يتشارك معي في نصيبي».

واصلت صراخها: «طاهر الآن حان دورك للانتقام من كل هذا، لرد الاعتبار والحفاظ على حقوقنا كما كنت تتغنى».

في لحظةٍ أخرجت سيدرا سكينًا وهي تعنفه:

«ما دمت لم تنقذ شرفنا، فها هي الفرصة لإنقاذ ميراثنا».

كانت الصدمة والذهول تسيطر عليهم جميعًا، ظل طاهر

صامتًا وكأنه يقاوم رغبته في عودة شيطانه من جديد، بينما حسن وزين يتابعان الموقف من بعيد.

قالت نعمة: «لقد تزوجني أبوكِ على سنة الله ورسوله، وقد ساعدنا زين في هذا الأمر».

كلمات كانت الفتيل الذي أشعل الحرب.

فجأة انقض ياسر على زين وانهال عليه بالضرب:

«لقد ساعدتها في امتلاك ثروة أبيك وثروتنا!».

اندفع حسن الصياد دفاعًا عن شريكه.

نوبة الصراخ المعتادة اجتاحت رودي، بينما احتضنت ماريهان ابنتها التي كانت تبكي.

-انقذ الأمر يا طاهر.

كلمات دنيئة ظلت ترددها سيدرا في أذن طاهر الذي ظل يتابع الموقف صامتًا.

-أنت المسؤول عنا، أنت الوحيد الذي باستطاعته إنقاذ الموقف وكتابة النهاية.

اشتد الصراع بين الثلاثة رجال.

-يارا...

قاطعتني حتى قبل أن أتحدث: «لن نتدخل بينهم يا آدم، اتركهم وشأنهم، لقد اقتربت النهاية بالفعل».

اتجهت مسرعة سيدرا ناحية شاشة العرض:

«لترى هذا يا طاهر لعلك تنهض وتنتقم».

أخرجت من جيبها «فلاشة» عرضت محتواها على الشاشة: كاميرا موضوعة بطريقةٍ مثبتة أعلى مدخل البيت الذي يكشف حوله بوضوحٍ تام، إنه الشاليه الخاص بزين في الساحل الشمالي. مرت دقائق في الفيديو ولا جديد، فجأة ظهرت سيارة زين، ثم خرج منها ومعه ماريهان ويبدو أنهما في حالة سكر تام.

وهنا قالت سيدرا: «للأسف لم أستطع تصوير ما حدث بالداخل، لكن بالطبع خيالكم يمكنه توقع ما حدث».

توقف الجميع عن النطق، ماريهان وزين القصة التي لم تُرِدها الظروف، فقررا أن يسرقاها من الزمن، ماريهان زوجة طاهر مع أخيه زين الرجل الذي أحبها أولًا.

هنا وبخبثٍ ودهاء الشياطين أعطت سيدرا السكين لطاهر: «كن رجلًا ولو لمرةٍ واحدة».

لم يتمالك طاهر نفسه بعد أن رأى طعنتين مختلفتين من

أخيه ومن زوجته؛ انقض على زين وتبادلا الضرب المبرح، بينما كان زين يحاول بشتى الطرق أن يحمي نفسه من ضربة السكين، هنا تدخلت ماريهان: «صدقني هذا ليس صحيحًا، صدقني يا طاهر»، لكن لا يمكن لأي شخصٍ إيقاف رجل شعر بالخيانة. دفعها عازمًا قتلها وهو يرفع السكين فجأة احتضنتها ابنته سلمى لتستقر السكين في قلبها الصغير، لتسقط أرضًا جثة هامدة.

الصدمة التي أفزعت الجميع.

في صدمةٍ قال طاهر: «سلمى فتاتي وصغيرتي! لقد ضحيت بكل شيءٍ من أجلكِ يا سلمى.

سلمى استيقظي.

سلمى فتاتي وحبيبتي لم أقصد إيذاءكِ».

حالة صراخ اجتاحت ماريهان ورودي، بينما كان يصرخ ويبكي وينهار طاهر: «سلمى لقد قمت بكل هذا من أجلكِ يا فتاتي.

سلمى انهضي أرجوكِ!

سلمى يا حبيبتي ابنتي فتاتي وجميلتي.

يا آدم! يا دكتور! انقذونا انقذونا!

إسعاااف.. إسعاااف.. إسعاااف!».

حملها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

خرج بها من المبنى حتى وصل إلى البوابة الرئيسية، هنا قابله رجل الأمن مصوبًا سلاحه نحوه:

«ضعها على الأرض وعد من حيث أتيت».

-اِنقذوها يا عالم، انقذوا فتاتي.

-قلت لك ضعها على الأرض وعد من حيث أتيت.

في هذه الأثناء قررت يارا أخيرًا التدخل؛ رفعت قوة الكهرباء الموصولة في معصم الجميع، حتى اجتاحتهم نوبة صراخ.

دقائق وسقط الجميع أرضًا في مكانه.

نظرتُ إلى يارا: «كان علينا أن نتدخل قبل أن يحدث كل هذا، كان بإمكاننا إنقاذ الموقف».

وهي تطلب من مساعديها التدخل لحملهم ووضعهم في الغرف الخاصة بهم: «قلت لك أن العاطفة هي حل هذا اللغز، ما حدث سيعيد أوراق الجميع، لقد أوشكنا على النهاية بالفعل».

دخل أحد المساعدين قائلًا: «للأسف لقد ماتت الطفلة يا دكتور».

-انقلوها إلى أقرب مستشفى وسأتولى الأمر.

هنا انفجرت في وجهها: «أنتِ بلا قلب! كان بإمكاننا إنقاذها».

قالت: «الآن تتهمني بالقسوة؟! من الغباء أن تعامل الأسود بنفس مبدأ تعاملك مع الغزلان يا آدم، سنتعاتب فيما بعد، الآن علينا مواصلة ما خُطط له».

قلت: «أي خطة؟».

قالت وهي تستدعي نعمة على الجهاز اللاسلكي:

«أنتظركِ في غرفة الاجتماعات».

ثم وجهت نظرها نحوي: «الآن لا تتحرك من هنا وتابع ما سيحدث بيننا».

قلت غاضبًا: «أنتِ بلا قلب».

ردت بعد أن ضربت الطاولة بيديها:

«نفذ الأمر»، ثم خرجت متجهة إلى الغرفة.

السكون الذي يتبعه عاصفة الأحداث، هدوء ما قبل عاصفة

ستقتلع الجميع من جذورهم، كل شيءٍ هادئ الآن إلا عقلي المُشتت، ذاك الذي لا يفهم ما يحدث معه الآن. جلست بلا حيلة أتابع الحوار المنتظر بين يارا ونعمة.

جلست الأخيرة في هدوءٍ تام وكأنها لا تكترث أبدًا بما رأته.

-ماذا تريدين يا دكتور؟

بثباتها المعتاد ردت يارا: «دردشة نسائية».

تنهدت نعمة: «دردشة نسائية بعد دقائق من قتل طفلة! حسنًا لا مانع من ذلك».

قالت يارا: «الحي أبقى من الميت».

ردت نعمة: «والحب أيضًا».

ارتدت يارا نظارتها الطبية ثم بدأت: «أنتِ لا تحبين المقدمات، تعرفين أنكِ مُتهمة أيضًا بقتل الحاج خورشيد، لذلك دعينا نكون صادقين في حديثنا، إن لم يكن من أجلك فمن أجل طفلك الذي تحملينه في رحمك».

-لم أقتله.

-إذًا لماذا تزوجتِ من رجلٍ في الستين من عمره، طمعًا في ثروته؟

-لا أعرف كم ثروته، لكن زواجي منه لم يكن لهذا السبب أيضًا، لقد تزوجته لسببين، السبب الأول: رد جميلٍ لحسن.

-كيف؟

-حسن بالنسبة لي كان بمثابة الأخ الأكبر والأب والصديق والسند، حين هربت من منزلي وشُرّدت في الشوارع، ثم بدأت في العمل كراقصة في الحانات، كان حسن أول من صادقته، ربما لأنه الوحيد الذي لم يعاملني كراقصة تتمايل على أجساد الرجال، بل كان يعاملني بإنسانية في وقتٍ كان كل رجلٍ ينظر إلى جسدي، شعرت بطريقةٍ ما في علاقتي البسيطة به أنني مسؤولة منه. كنت أخجل منه حتى في مكان عملي الذي يتردد عليه، كنت أرى أن بإمكاني العيش معه بطريقةٍ أفضل حين أمتلكه، لكنكِ لن تملكي رجلًا قلبه مع امرأة أخرى ولو قدمت له نجوم السماء. سنة تتبعها سنة، تتبعها سنة، ورغم نهاية علاقته برودي إلا أنه كان يحدثني عنها، أتزين له فيحدثني عن مدى روعتها هي حين كانت تتزين له، أكتب وأعبر له عن مشاعري فيقرأ جواباتها القديمة التي كتبتها له، أصف له مدى عشقي للسماء والبحر فيحدثني عن مدى روعة ملامحها حين تداعبها الشمس، وكم كان جميلًا شعرها حين يضربه هواء البحر، أواسيه في مأساته فيحدثني عن أن أثقال الدنيا كانت تنزاح فور لمسته

لها. لقد حكمت على نفسي بالبقاء مع رجلٍ قلبه مع فتاةٍ أخرى، مهما حاولت إسعاده كان مشغولًا بالحزن عليها.

أقول لكِ سرًا؟ لقد تمنيت أن يحبني أحد مثلما أحبها، لكن في نفسي لم أشعر باليأس، لم أهتز بمرافقته المتعددة للنساء، كنت أعرف أنه يقدم لهن بعضًا من الاهتمام فقط، لكن قلبه ومشاعره وطاقته كانت محفوظة لها، لم أقبل ولم يقبل أن يعطيني نصف الأشياء كما كان يفعل مع العابرات في حياته، ولا أنكر رغم قسوة ما كنت أعاني لكنني كنت أحب فكرة التميز عنهن. لقد طمئنني في أوقاتٍ صعبة، دعمني في لحظاتٍ حرجة، وعلّمني كيف أتعايش مع الحياة وأحافظ على نفسي من الطرق المجهولة. شعرت بالامتنان له رغم تحطيمه لقلبي بعد عودته لها، لكني لا أنكر أبدًا امتناني له، لذلك كنت أنتظر الفرصة المناسبة لرد جميل كل الأشياء التي تعلمتها منه حتى لو كان رد الجميل هو الزواج من رجلٍ عجوز.

أما السبب الثاني: فكان الانتقام المشترك بيننا.

نظرت يارا إلى نعمة: «انتقام مشترك؟».

قالت في هدوء: «نعم، لقد أراد الانتقام منها ومن والدها، وأردت أنا الانتقام منها، أنتِ لا تعرفين أثر عودتهما على قلبي، لقد احترق تمامًا، تعرفين معنى أن يحترق قلبك،

تشعرين بالنار تأكل صدرك كل يومٍ وأنا أرى صورتهما معًا، أتمنى لو أقطع رأسها وأبصق عليها، تلك التي تملك ما أردت امتلاكه طوال حياتي، لم أبكِ إلا بسببها ولم أسقط منهارًا إلا منها، وكل لحظاتي الصعبة كانت لأنها تملك قلبه. تزايد شعور الكره نحوها لكنني في الوقت نفسه توقفت عن التعلق بحسن، أقصد أنني آمنت بأن مصير علاقتنا سيبقى هكذا وللأبد؛ بدا زواجي منه أمرًا أبعد من الخيال، حتى حدث ما لم أتوقعه.

ذات يومٍ جاء حسن الصياد إلى الملهى، في هذه الليلة تحديدًا كان يشرب بشراهةٍ وعدوانية، يدخن سيجارة بعد السيجارة، لا يكترث بما يحدث حوله. لحُسن الحظ أنني كُنت مرهقة فلم أقدم فقرة الرقص الأسبوعية، انتهزت الفرصة وسحبت كرسيًا من طاولته وصببت لنفسي كأس البيرة:

«لقد رحلت مرة أخرى؟».

أبتسم الصياد: «لا، أنا من قررت الرحيل عنها».

ظننت أن هذا تأثير الإفراط في الشرب، فضحكت ثم طلبت منه إيصاله حتى الفندق؛ لم يعارض، فذهبت معه وأعطيت لعامل الفندق مئة جنيهًا حتى يسمح لي بقضاء الليلة معه، ما إن رأى السرير حتى فرد جسده وبدا وكأنه

يستجمع نفسه: «لقد قلت لها قبل أن نعود في المرة الثانية:

(إن أردتِ العودة فلن أتحمل رحيلك مرة أخرى)، قلتها وأنا أرتجف، فقد كنت أخشى على قلبي من خذلانٍ آخر يُحطم آخر ما تبقى من قلبي، قالت وهي تبتسم: (لن أكرر حماقاتي القديمة يا حسن).

قاطعته ساخرة: «دعنا ننسى حماقات الماضي ونرتكب حماقات جديدة!».

-كنت أعرف أنها تكذب، هي صادقة في كل شيءٍ إلا حُبها، وأنا كاذب في كل شيءٍ إلا حبي لها، كل الأدلة، كل الرسائل، كل الصفات، حتى معرفتي بها تؤكد أنها لن تتحمل معركة جديدة. لا يمكنك أن تُلدغ من العقرب ثم ترافقه مرة أخرى وتقول لنفسك لن يلدغني مرة أخرى، هو يتغذى عليك بكل بساطة تمامًا كما كانت تتغذى هي على حُبي لها.

لقد أفرطت في الشرب اليوم، ذكرتني بتلك الليلة التي تمت فيها خطبة رودينا قبل خمس سنوات.

اعتدل الصياد في جلسته ثم قال: «في هذا اليوم كنت أريد الانتقام منها، كنت أمحي من رأسها كل المواقف السيئة التي جعلتها تتخذ هذا القرار بالارتباط من رجلٍ غيري، أردت لو كان بإمكاني أن أطهر قلبها من كل القسوة التي عرفتها

منها. عاتبت نفسي كثيرًا، بل أكثر من العتاب كنت أسلخ نفسي وأجلدها، رأيتني رجلًا في غاية السوء والقبح، هذه الليلة تختلف وما سيحدث سيكون أكثر اختلافًا».

سألته وأنا أشعل له سيجارة أخرى: «ماذا ستفعل؟».

قال: «أريد الانتقام منها».

قلت بسذاجة طفلة: «حسنًا، هيّا نتزوج لنغيظها».

ضحك وهو يشدني نحوه: «لا، أريد تحطيم قلبها وحسب، أريد تحطيم كل شيءٍ حولها، حتى يأتي اليوم الذي تجلس فيه على تلال الخراب وتبكي بكل قسوة».

-كيف سيحدث هذا؟

قال بهدوءٍ وحكمة وطريقته المقنعة:

«نحن لن نتزوج يا نعمة، لكننا نستحق حياةً أفضل».

نظرت له والأسئلة تراود عقلي.

-ما زلنا نملك سلاحًا للفوز بالحياة التي تريدينها، السفر حول العالم، متاحف روما، شوارع باريس، شواطئ المالديف، عظمة المباني الصينية والهندية، قضاء شهر في جزر الهاواوي، مغامرات في أدغال إفريقيا، التسوق في ميلانو ولندن واسطنبول، الحياة الممتعة التي تفكرين فيها طوال

حياتك. علينا التضحية حتى نحصل عليها.

-نحن لا نملك شيئًا نضحي به.

قال بهدوء: «بكِ».

رفعت حاجبي: «ماذا تقصد؟».

شدني نحوه ثم قال وهو يداعب خصيلات شعري:

«ستتزوجين الحاج خورشيد، ثم تنجبين طفلًا حتى تتشاركي مع أولاده في الميراث، فور علمهم بخبر زواجه ستبدأ صراعات العائلة، سيبدأون في الهجوم على بعضهم البعض، ستظهر حقيقتهم القذرة، وفي هذه اللحظة ستخسر رودينا كل شيء، الرفاهية، الحُب، وقد يصل الأمر لخسارة نفسها».

-لقد أثقلت في الشرب يا حسن، أُخلد إلى النوم.

بجديةٍ أعرفها جيدًا قال: «هذا ما سيحدث، علينا أن نضحي للحصول على الحياة التي نريدها».

قلت غاضبة: «حياتك أنت، أنا لا أريد الفوز بكل بهذا، أنت تريد العالم، وأنا أريدك أنت، هذا يكفيني عن كل العالم».

-لكنه لن يكفينا في حياتنا البائسة، لن نشتري منزلًا يجمعنا بالحب، لن ندفع الفواتير بكلمات الغرام، لن نسدد المديونيات

بالود، لن يتكفل الحب بشراء الأكل والشرب، لن ندفع للبقال من مشاعرنا، لن ندفع لمحصل الكهرباء والمياه من طيبة قلوبنا، لن نشتري ملابسنا بالسلام النفسي، ولن تحمينا الحنية من قسوة الالتزامات المادية.

لن نواجه الحياة بعاطفتك المُفرطة ونقف أمام المعارك الطاحنة ونقول: «نحن معًا»، هذا لن يفي بالغرض أمام لغة المال، أمام غلاء الأسعار الجنوني، لن يحترمنا المجتمع المرموق الذي نريد أن نزور ونذهب للأماكن التي يذهبون لها. ما دمنا فقراء لن يحترم سعينا ومحاولاتنا أحد، قد يشيدون بنا ويتغنون بحماسنا وقصة كفاحنا، قد يتحدثون من حينٍ لآخر عنا، يقولون بشفقةٍ: «إنهم يحاولون ويجاهدون من أجل حياةٍ أفضل»، ثم تنتهي القصة عند هذا الحد ويعودون للبيع والشراء في قلوبنا، مشاعرنا وإنسانيتنا. في نظرتهم الحقيرة لنا يا نعمة مهما تحدثوا عن مدى إعجابهم بكفاحنا العظيم، سيبقى هذا الإعجاب من باب الشفقة، ولن يتخطى هذا إلا بعد أن نملك السلطة والنفوذ التي تجعلنا نضاهيهم في الثراء، نطارد خطواتهم ونقف أمام أهدافهم ونحققها نحن، لن يكفينا الحب أمام الحياة.

قلت وأنا أشعر بالحزن: «أنت تريد محو عاطفتي يا حسن، صحيح لن نشتري منزلًا فخمًا بالحب، لكن تكفي غرفة

واحدة يملؤها الحب صنعناها بأيدينا تجعلنا نشعر بأننا في الجنة، وأننا نملك براح الدنيا، لن ندفع الفواتير بالحب لكننا سنعمل معًا لنسددها، لن ندفع للبقال من مشاعرنا، لكن لقمة واحدة تكفينا نحن الاثنان ما دمنا سنقسمها معًا، لن نشتري ملابسنا بالحب لكن يكفي أن نتبادل نظرات الحب لنرى أنفسنا أجمل من في الدنيا، بالدفء تصنع البيوت، ثمة بيوت عظيمة لكنها فارغة الاحتواء والدفء، صحيح معارك الحياة صعبة، لكننا بالفعل سنتجاوزها، حين نسند بعضنا ونهون شقاء الطريق، معارك الحياة صعبة لكن على الأقل قتالنا معًا سيجعلنا ننتصر، وإن انهزمنا ألف مرة لن ننهزم ونحن معًا. لا أريد أن يتعلم أبناؤنا الإنجليزية والألمانية، أريدهم أن يتعلموا احترام إنسانيتهم وإنسانية الآخرين، واحترام أنفسهم، سنبسط لأولادنا الدنيا بخبرتنا التي دفعنا ثمنها حزنًا وتعبًا وشقاءً. تهون الدنيا حين تشاركها مع المحبوب، تخف الأثقال ويلين الطريق حين يرافقك الشخص الذي تحبه».

قاطعني غاضبًا: «كفاكِ طفولية! لقد ولى هذا العصر».

قلت: «لست طفولية، هذا صنعك أنت، هذا ما زرعته في قلبي منذ أيامك الأولى في حياتي، الآن تعاتبني عليه؟ لقد غيَّرتك الحياة يا حسن وجعلتك بلا قلب، عقلاني وقاسي أهمل قلبه ومشاعره واستبدلهما بالعقل والمنطق والحسابات

المُعقدة، لكنك لن تنجح في جعلي نسخةً منك».

هنا عانقني الرجل الذي أردت أن أقضي حياتي بين ذراعيه قائلًا: «سنتزوج ونعيش كل هذا، فقط علينا أن نضحي، أعدك سنتزوج ونحقق كل هذا، لكن علينا أن نقدم قربانًا للدنيا حتى نفوز بما أردنا، صدقيني هذا الحل الوحيد».

-أريد أن تكون أول رجلٍ يلمسني يا حسن.

ابتسم حسن وهو يُقبّل رأسي: «تبقى الأنثى عذراء إن لم يلمسها من تحبه ويحبها ولو عاشرها كل رجال الدنيا».

-لن أتغلب عليه مهما حدث.

تنهدت، فضمني نحوه بقوة: «ستكون فترة قصيرة، ثم يعود كل شيءٍ كما كان، الفرق الوحيد أننا سنتزوج حينها ونعيش الحياة التي نحلم بها».

ابتسم ابتسامته معلنًا انتصاره وهو يواصل:

«ستوقعين على عقود الزواج، ثم تنفذين ما أطلبه منكِ».

سألته: «كيف ستتم عملية الزواج؟».

قال: «سيسهل أحد المقربين منه هذه المسألة، كل ما عليك هو الموافقة فقط».

ضحكت نعمة.

-ثم جرى ما جرى بأسرع مما أتخيل، وأصبحت زوجة الحاج خورشيد، وبالطبع أنتِ لا تعلمين قسوة أن تتزوجي رجلًا في عمر أبيكِ، كأنك تكتبين على نفسك عقد رعاية رجلٍ مُسن، يتفحص جسدك الصابح بأنامله المجعدة المقرفة، ينظر إليكِ بشهوةٍ لا يقدر عليها، لكنه يريد منكِ أن تتظاهري بمدى لوعتك به، خادمة له طوال الوقت، تتحررين معه في الأيام التي يغيب عنكِ فيها، وتعودين سجينة في تلك الليلة التي ينام بجوارك. ثلاثة أشهر كنت أشعر بالاستحقار والقرف من نفسي، لم أتوقع يومًا أن تكون أحلامي في الزواج مع رجلٍ في السبعين من العمر، أردت أن أعيش حياةً طبيعية مع شخصٍ أحبه، لكن من قال أن الحياة تعطينا كل ما نتمنى حتى وإن كان أبسط حقوقنا في الحياة؟ الشيء الوحيد الذي هوّن عليّ طوال هذه المدة هي كلمات حسن بأن النهاية قد اقتربت بالفعل. سؤال آخر كان يراودني: لماذا وقع الاختيار عليّ دون كل النساء؟ ومن الذي سهّل كل هذه الإجراءات والخطط للزواج منه؟ كان الهرِم غامضًا جدًا في هذه المسألة، حريصًا يكتم كل ما يتعلق بهذا الموضوع، المثير للدهشة هي التصرفات التي كان يقوم بها، كنت أشعر أنه مُجبر على طريقة تعامله اللطيفة معي، كان حريصًا على ألا تمسني كلمة سوء، يبدو وكأنني فُرضت عليه بالفعل.

في الشهر الرابع ظهرت أعراض الحمل، لم يعترض العجوز، بل كان في غاية الهدوء والرزانة عكس ما توقعت تمامًا، بل ثار غضبًا حين أخبرته بأنني مُستعدة لإجهاض الجنين: «يمكنني فعل هذا لتجنب المشكلات يا حاج».

كانت هذه المرة الوحيدة التي تحدث فيها من قلبه أمامي فقال: «ما حدث قد حدث، أنا يا نعمة رجل مُسن أخطأت في تربية أولادي، علمتهم الجشع والطمع والفساد، وزواجي منكِ ما هو إلا خطأ أعظم أيضًا، لكن هذه المرة لأعاقبهم، لكنه عقاب أبدي، سأعلمهم الدرس الأخير في الحياة».

نهض الحاج خورشيد وهو يُقبّل رأسي: «من الآن وحسب ستكونين في مكانة ابنتي مع كامل الاحتفاظ بحقوقك المادية أنت وطفلك».

في هذه اللحظة شعرت بالحيرة، الحاج خورشيد رجل صالح أم فاسد؟ رجل خير أم زعيم عصابة؟ رجل حطم ودمر كل شيءٍ من أجل القيم والمبادئ وأفكاره، أم وضع مصلحته وسلطته فوق كل اعتبارات؟ مرت الأيام هادئة تمامًا، ما كان يدفعني للمواصلة في هذه العلاقة هو ربط العلاقة بيني وبين حسن الصياد الذي كان يؤكد أن النهاية اقتربت بالفعل، وأن زواجنا أصبح قاب قوسين أو أدنى، وصدقًا هناك بعض العاطفة التي كانت تراودني، لكن سرعان ما كنت أتجاوز هذا

الأمر وأركز فيما أردته من البداية (الهروب من كل هذا مع الصياد وعيش حياة آمنة هادئة معه في بلد بعيد جدًّا عن بلدتنا).

-هل تمانعين بسؤالٍ آخر؟

-أتمنى أن يكون الأخير.

بابتسامة رضا سألت: «من الذي قتل الحاج خورشيد؟».

-لا أعرف، لكن ليس حسن الصياد هذا ما أعرفه وأثق به، صحيح لقد أراد الانتقام من العائلة، لكن القتل لم يكن ليرضي غروره، وإلا ما كان ضحى بي من أجل مواصلة الانتقام، لقد أراد لهم التشتت والتفرقة، وأن ينتقموا من بعضهم البعض، ولا أنكر لقد ساعدته في هذا، لكن التفكير في القتل، لا أظن ذلك.

-لقد قلتِ إن في الأيام الأخيرة للحاج خورشيد كان حسن يؤكد لكِ أن النهاية قد اقتربت بالفعل، ثم بعدها علمت بخبر وفاة الحاج خورشيد.

-صدفة! لو قلت هذا لن تصدقيني، لكنها حقيقة، ما حدث مجرد صدفة، كان في خطته شيء آخر عدا القتل، أنا متأكدة مما أقول.

ابتسمت يارا: «أحب هذه الثقة».

نهضت نعمة واتجهت إلى غرفتها، بينما ظل الصمت يسيطر على المبنى.

عادت يارا من غرفة الاجتماعات متحمسةً لما سيحدث فيما بعد، لم تتحدث معي عما جرى، بل قررت أن تُعد فنجان قهوتها أولًا، ثم قالت: «مسكينة نعمة، كان بإمكانها أن تعيش حياةً أفضل مما عاشته، كان بإمكانها أن تختار أفضل بكثير مما اختاره قلبها، على أي حال دعك من الجانب العاطفي، نعمة شريكة في الانتقام، لكن ليس القتل، لكن الدهاء في تفككيك العائلة والفوز بجزء من ثروة الحاج خورشيد الطائلة، في النهاية هي مجرمة يا آدم».

قاطعتها: «ليست مجرمة وليست مدانة، في النهاية هي زوجته ولها كل الحق في الميراث الشرعي، القانون لن يعترف بدوافع الزواج حتى وإن كانت خبيثة، القانون يعترف بالأوراق والإجراءات».

ابتسمت يارا: «صحيح قانونيًا ليست مجرمة، لكن إنسانيًا لقد أجرمت في حق نفسها حين قبلت أن تلعب هذه اللعبة القذرة في سبيل إرضاء طرفٍ آخر. تخيّل أنها قبلت أن تعيش مع رجلٍ مُسن في عمر والدها! صحيح لم تقدم مشاعرها، لكنها قدمت جسدها الذي حافظت عليه طوال

هذه المدة رغم طبيعة عملها التي أسهل ما يمكنها القيام به هو التنازل عنه».

تنهدت لكلماتها: «أنا لا أفهمك يا يارا، في لحظةٍ تُحدثيني أن أهم خطوة في معرفة الحقيقة هو ألا نضع اعتبارات للمشاعر العاطفية، ثم تقولين أن العاطفة هي من ستقودنا للحقيقة، ثم تتبرأين من مبدئك من جديد، أنا لا أفهمك ولا أجد بيننا طريقًا واحدًا نتفق عليه».

سرحت يارا في كلماتي، نهضت من مقعدها ووقفت في الشرفةِ تتأمل الحديقة، ثم قالت وكأنها تُحدّث نفسها: «إن بنيت كل قرارتك على عقلك ستصبح إنسانًا آليًا، بلا قلب، بلا مشاعر، ستحصل وتفوز على الكثير من الأشياء الجيدة، لكنك ستخسر نفسك، ستنتصر أمام كل معاركك في الحياة، لكنك لن تقدر على مواجهة نفسك، سيبقى جزء منك مفقودًا للأبد، ومهما اكتملت ستظل تشعر بالنقصان لأنك تبرّأت من قلبك. المؤسف أنك لو اعتمدت كليًا على قلبك ستخسر أيضًا، ستعيش عرضة للخيبات والخذلان والصدمات، سيباح حزنك وخذلانك وتشتكي لسنوات من قسوة تعامل الحياة معك. حين يقودك قلبك في كل قرارتك ستعيش حياةً بائسة وكئيبة، تنعم ساعة بمشاعر لطيفة، وسنوات في الظلام والتعاسة، قرارت القلب ستكلفك مشاعرك وطاقتك، تضرب

كبرياءك، وقد تدفع عمرك كله ضريبةً لقرارت عاطفية. ربما هذا ما أقصده، أن تكون لديك قدرة على التوازن في اتخاذ قرارتك ما بين قلبك وعقلك، التوازن العاطفي والعقلي في مشوارك، ولا تستهِن بهذا التحدي، فقد ينال منك مرات ومرات، قد تصيب مرة وتُخطئ ألف مرة. الحفاظ على نقطة التعادل أمر في غاية القسوة، وجهاد طويل يخوضه المرء من أجل الفوز به، قد يقضي عمره وهو يحاول، المؤسف أنه قد لا ينجح في نهاية الأمر.

لذلك أنا مشفقة على نعمة لأنها خاضت هذا الصراع الطويل مع نفسها، أعرف أنها انهزمت وانتصرت وتعثرت ونهضت في صمتٍ تام، قررت الرحيل، ثم البقاء، ثم الرحيل، ثم الهروب من كل شيء، تحدّثت مع نفسها بكبرياءٍ عظيم، ثم تحطمت وتبرّأت من نفسها، ابتسمت وشعرت بلذة الحياة، ثم تمنت الموت مرات ومرات. أنا مشفقة عليها لأنها عانت كما عانى الجميع، الفرق أن سبب معاناتها هو الوحيد الذي كان ينبغي عليه حمايتها من كل هذا، إنه شعور في غاية القسوة، أن يضطرك الذي يحميك أن يضعك في ساحة الحرب ويطلب منك القتال. أنا مشفقة عليها لأنها ظنت أنها وجدت الأمان والطمأنينة، ثم اكتشفت أنها مع رجلٍ تخلى عنها أمام الحياة، بل أجبرها على خوض الكثير من المعارك والتضحيات، التنازلات الكثيرة في سبيل البقاء. أعرف قسوة ما تعاني منه

وأشعر بها».

عادت يارا من حديثها الخاص جدًّا مع نفسها ثم قالت:

«دعك من هذا، الآن علينا أن نستعد لما سيحدث بعد آن يستيقظ الجميع».

الفصل التاسع

في النهاية.. ستعيش وحدك، ستعلمك الحياة كيف تتعايش معها وحدك، ستبكي في المرة الأولى حين تكسر الحياة قلبك، ثم ستلقي اللوم على المحيطين بك وتسألهم كيف تركوا قلبك يتحطم؟ ثم تنضج رويدًا رويدًا كطفلٍ تجاوز مرحلة الزحف وبدأ في مرحلة الوقوف، فتلقي اللوم على قلبك وتخبره إنه المسؤول عن حطامه، ثم تنضج بما يكفي لتفهم أن كسر قلبك ليس بالحدث المروع الذي كنت تظنه، بل إن مليارات البشر قد كسرت الحياة قلوبهم بالفعل وتعايشوا مع الحطام بكل هدوء، وإنك الوحيد المسؤول عن ترميم قلبك وإعادته للحياة. ستنهض من على فراشك وأنت مُحطم القلب لتبدأ مهام يومك، أنت الذي كانت كلمة عابرة كفيلة أن تجعلك جليس الفراش أيام وأيام مكتئبًا بائسًا. ستنهض من على فراشك بكل قوةٍ لتبدأ معركتك اليومية مع الحياة، لأنك لم تعد ذاك الطفل الذي يرى أن على العالم أن يتوقف من أجل حزنه ومأساته، بل نضجت لتفهم أن قطار الحياة لا يتوقف، ومعاركها لن تهدأ، وليس بإمكانك طلب هُدنة منها، ما عليك إلا النهوض ومواصلة القتال أمامها، وأثناء معركتك معها ستخسر الكثير من الأشياء، سيخذلك شخصك المفضل وقد يهرب من صفوف جنودك ليقف وجهًا لوجه

أمامك يبارزك ويحاول النيل منك، حينها لن يفيد البكاء أو حتى شعور الصدمة، بل ستواصل القتال في معركتك اليومية، ستفقد جزءًا من قوتك وجزءًا آخر من كبريائك، لكنك لا تملك رفاهية الاستسلام أو الانهيار، ستنفلت أحلامك بين يديك وتودعها، سيتساقط بعض الأشخاص من نظرك ومكانتهم عندك، ستلوح لهم بالوداع وكل ما فيك يترجاهم للبقاء، لكنك أصبحت ناضجًا بما يكفي لتفهم أن الأحلام التي انفلتت من أناملك لم تكتب لك، وأن رغبتك الشخصية ليست كافية لبقاء أو رحيل الناس عنك، واعتقادك أنك ما دمت تعطي وتقدم للناس هذا يعني أنهم لن يتغيروا ولن يقسوا أو يرحلوا عنك؛ ما هو إلا اعتقاد طفولي وساذج أشبه بنهايات أفلام الرسوم المتحركة التي كنت تشاهدها في طفولتك. ستمضي في الحياة بكل ما فيك من جروحٍ وانكسارات وهزائم، تتوقف عن البكاء والشكوى لأنك كبرت الآن وفهمت أن البكاء على اللبن المسكوب لن يعيده إلى موطنه، وأن الشكوى ما هي إلا مرحلة من مراحل التعري أمام الناس. مخاطرة كبيرة أن تتعرى بكل جروحك وأوجاعك، فقد تمر الأيام ويستغلها أحدهم ضدك، أو يساعدك على تجاوز مأساتك، ثم يتحدث عن فضله العظيم عليك، فتصبح بطريقةٍ ما مُمتنًا له طوال حياتك، ولا يمكنك إنكار هذا لأنك قبلت أن تعرض شكواك على الناس، قبلت أن تصبح عرضة

للاستغلال.

ستتوقف عن النحيب حين تضيع الفرص الضائعة، ستكف عن جلد ذاتك حين تتعثر، ولن تذبح نفسك حين تتعثر أو تكتشف أنك بعد سنوات الركض لم تصل لوجهتك كما أردت، لأنك وببساطة شديدة آمنت وأيقنت أنك لن تصل كاملًا، ستفقد جزءًا منك؛ جزءًا أصيلًا منك؛ جزءًا كنت تتمنى ألا تفقده أبدًا، لكنها الحياة، تلك التي سمحت لك أن تصل لغايتك، لكنها اختارت الشيء الوحيد الذي أردت التمسك به في رحلتك.

-هل قرأت هذا النص؟

سألتني يارا بعد أن لاحظت دخولي غرفتها وهي تقرأ أحد أعمال حسن الصياد، أمسكت الكتاب وقرأت النص ثم أجبت:

«لا لم أقرأه من قبل، لكنني لا أحب هذه الفلسفة التي تحاول إقناعك بأنك مجبر على التعايش مع الهزائم والخيبات لتتعايش مع الحياة، لا أحب فكرة أنك لا بُدَّ أن تفقد جزءًا منك لتنقذ ما تبقى منك».

قالت يارا وهي تواصل القراءة العشوائية:

«لكنها أنقذت الكثيرين هذه الفلسفة، وبسببها لم ينتحر أشخاص كانوا على وشك اتخاذ هذه الخطوة. دعني أقول

لك أن طبيعتنا البشرية تختلف يا آدم، نعيش في نفس الأرض وتحت سماءٍ واحدة، لكننا لا نعيش نفس الظروف والأحداث، أولئك الذين يؤمنون أن الكمال يكمن في النقص، وأن علينا التعايش مع الفقدان والنقصان. كانوا ينظرون للحياة مثلك تمامًا، يملؤهم الحماس والطاقة والشغف، ويرغبون في تحقيق كل الأشياء، والفوز بكل الأهداف التي يسعون إليها، لكن في معاركهم الأولى مع الحياة خسروا أشياءَ ثمينة كانت تمثل جزءًا منهم، ربما عالمهم بالكامل، خسروا أشياء حاربوا من أجل الحفاظ عليها، حاربوا بكل طاقتهم من أجل الحفاظ عليها، حاربوا بكل ما يملكونه وما في استطاعتهم ووضعوا قلوبهم وأجسادهم ومستقبلهم ومشاعرهم حمايةً لهذه الأشياء الثمينة، ومع ذلك اختارت الحياة أن تدمر كل هذا، أن تحاربهم بكل ضراوة لتنتصر عليهم. تخيّل يا آدم أن تحارب الدنيا من أجل فكرة أو حلم أو حتى شخص، تضع كل طاقتك ومشاعرك وكبريائك، تبذل كل ما في وسعك للفوز بما تريد، تحارب حتى نفسك من أجل أن تحافظ على غايتك، ومع ذلك لا تشفع الحياة لك كل هذه المحاولات، وتهزمك في المكان الوحيد الذي أردت أن يقويك وتنتصر له؛ سيجن جنونك يا آدم، ستشعر بخذلان العالم كله في قلبك، لن تقدر على مواصلة حياتك، لن تقدر على النهوض من على سريرك، لن تقدر على النظر في أعين الناس،

ستطاردك الهزيمة والخذلان في كل مكان وطوال الوقت، في هذه اللحظة تحديدًا ستضعك الحياة أمام خيارين: إما أن تخضع وتؤمن بها، أو أن تتمرد عليها وترفضها وتتبرأ منها فتسعى للخلاص، وفي الأمرين سيصبح الخاسر الوحيد في هذه المعركة هو أنت، لذلك أنا أرى أن هذه الفلسفة هي الأكثر تناسبًا وتماشيًا مع الحياة».

قلت وأنا لا أكترث لكلماتها: «ماذا سنفعل الآن؟».

قالت وهي تواصل القراءة: «سيستيقظون الآن، دعنا نرى ما سيحدث».

***

طاهر بك خورشيد.

ما حدث كان كابوسًا، بالطبع بالطبع، ما رأيته مجرد كابوسٍ عابر. نهضت من على سريري أفتش عن ابنتي الصغيرة، أبواب الغرفة مغلقة بإحكام، صرخت حتى يلتفت إلي الحراس:

«يا دكتور يارا! يا آدم! افتحوا الباب».

ظللت أطرق على الباب لكن لم يستجِب أحد لصراخي.

-لقد ماتت فتاتك يا طاهر.

نظرت ورائي.

-من أتى بكِ إلى هنا؟

-أدلك على الطريق كعادتي.

-أي طريق؟

قالت بصوتها البارد الشاحب: «الانتقام مرة أخرى».

نظرت إليها بجمود: «ممن؟».

ردت العجوز التي شاركتني ودلتني على أغلب قرارات حياتي:

«من زين، رودينا، سيدرا وياسر، منهم جميعًا، والتفرد بتركة أبيك من جديد».

-هذا لن يحدث أبدًا؟

قالت بثقة: «سيحدث، والأمر في غاية البساطة، حين تفتح الأبواب ستخرج إليهم وتنال منهم جميعًا قبل أن يتدخل الحرس. ستنجو منها بحكم إصابتك بالفيروس، وأنها مجرد نوبة قاسية أصابتك، على العكس سيُحاكم الحرس وآدم ويارا على تكاسلهم وعدم حمايتهم للبقية، حينها سينتهي الأمر وتعيش أنت كعادتك ملك زمانك بكل ما تركه أبيك».

-علام أنتقم؟

-على عمرك الضائع في التضحية التي لم يقدرونها. أي ميراث وأي قضية يبحثون عنها؟ هم ممتنون لك بكل ما قمت به من أجلهم، لقد تنازلت عن حياتك في سبيل الحفاظ على أموالهم، قبلت التنازل عن أحلامك لتحمل على عاتقك أحلامهم، قضيت شبابك في الورش والمصانع لتجعلهم يقضون شبابهم برفاهية، عرّضت حياتك للخطر مئات المرات لتحافظ على حياتهم، علام تنتقم؟ تنتقم من أجل نفسك، من أجل ابنتك التي سقطت بدماءٍ باردة أمام عينيك، هي فرصتك الأخيرة للوصول إلى التفرد يا طاهر.

للمرة الأولى في حياتي أسمع صوتًا في رأسي يصد كلمات أم خالد، للمرة الأولى أشعر بتمردي على كلماتها: «لكنني لم أقم بكل هذا إلا تطوعًا مني، وليس للرغبة الشخصية في السلطة والتفرد، هذه هي الحقيقة التي ينبغي علينا الاعتراف بها».

بردت وقد تغيّرت ملامحها وبدا عليها العبوث:

«الحقيقة أنك حاولت إقناع نفسك بأنك سجنت حياتك بإرادتك حتى تُهوّن على نفسك المعاناة التي فُرضت عليك. لقد فُرض عليك كل هذا وأنت ممتن لي كثيرًا لأنني جعلت من المفروض الذي لا يمكن تغييره فرصةً للسمو بك، حوّلت

سجن حياتك اللعين لجنةٍ أنت سيدها المتحكم الوحيد فيها».

-لكنني خسرت كل شيء.

-ما زلت تملك كل شيء، لكن إن لم تنتهز الفرصة الأخيرة ستكون خسرت كل شيءٍ بالفعل. يا طاهر بعد كل سنوات التضحية هناك فرصة واحدة وانتقام واحد لتفوز وتحصد كل ما زرعته، قرار واحد يفصلك عن السلطة المطلقة التي حلمنا بها كثيرًا، أنت لم تعد تملك شيئًا آخر؛ خسرت كل شيء، والآن فرصتك للفوز وتكليل كل خطواتك القديمة لانتصارٍ عظيم، تبني حياةً جديدة بظروفٍ مختلفة، تعيش الحياة التي حرِمت نفسك منها.

سمعت صوتًا بداخلي يصرخ، ينفر من الكلمات ويرفضها و...

-أريد التوبة!

هنا وقد بدا عليها الغضب الواضح: «التوبة! التوبة عن ماذا؟ أنت لم ترتكب خطيئة حتى تتوب عنها.

ضحكت أمامها ثم قلت وأنا أستعيد كل مشاهدي الدنيئة: «تعرفين أنني رجل دنيء يا أم خالد، رجل دنيء، لقد ارتكبت الكثير من الخطايا في حق كل المحيطين بي. تتذكرين في

مراهقتي حين رافقت فتاة بريئة عاهدتها بالزواج وسلبت منها كل شيء، ثم ماذا فعلت بها؟ قررت التخلي عنها بكل بساطة، وبعد أن انفضح أمرها ماذا حدث؟ قرر أبوها غسل عاره وقتلها. لقد تسببت في قتل صبية في مهدها لأنني جبان تخليت عنها».

-وفاتها كانت ستحدث لا محالة، لقد قررت التخلي عنها حفاظًا على عائلتك واسمها، وإن لم يقم والدها بهذا كان والدك سيتكفل بهذا الأمر، كفاك حمل أخطاء الآخرين على عاتقك.

-هذا ما أردت الشعور به لأُهوّن على نفسي شعور الذنب، لكن الحقيقة أنني السبب في قتلها، ومع ذلك لم أعِش بهذا الذنب، بل واصلت عجرفتي ونرجسيتي مع الحياة، واصلت حقيقة أنني أستحق كل هذا وأكثر حتى قررت زيادة المسافة بين أبي وأخي، فقررت تشويه صورته ليمنع عنه مشاركته في الإدارة، لقد كنت سببًا في قسوة أبي وإخوتي على زين وتصويره بأنه الشوكة التي ستقطم ظهر عائلتنا، القسوة التي قادته للإدمان وبعده الاكتئاب، لقد تسببت في هذا، أنا من طردته من جنة عائلتنا.

ابتسمت العجوز قائلة: «هذا ليس صحيحًا؛ لقد قمت بهذا لأنك رأيت السوء في شخصية أخيك، رأيت المتاعب

المستقبلية التي قد يسببها لعائلتك، وخفت أن يصيبهم مكروه فقررت التضحية به من أجل الحفاظ على كيان العائلة، قررت أن تقف في وجهه لحماية أبيك وإخوتك لأنك لن ترضى لهم التفكك والتشتت بسبب صبي طائش».

-بدلًا من عزله عنا، كان يمكنني احتواءه، كان يتمرد ليشعر بالطمأنينة، الأدهى أنني تزوجت الفتاة التي أَحبَّها لأستكمل جحودي معه.

-لزيادة نفوذكم وتثبيت أركان عائلتك يا طاهر، لقد تزوجتها وقبلت أن تعيش حياتك مع واحدةٍ لها باع طويل مع الإدمان والاكتئاب، من أجل إرضاء رغبة أبيك. ألا ترى أنك أجمل من نظرتك عن نفسك؟ لقد ضحيت بكل شيءٍ من أجلهم.

اقتربت مني وهي تهمس: «حتى تجارتك في المخدرات والسلاح كانت لجني مزيد من الثروة لعائلتك، كل الجرائم التي ارتكبتها كانت دوافعها طيبة ونبيلة. أوافقك أنك كنت قاسيًا في بعض المواقف، لكنك كنت مضطرًا لهذا، لتواكب الوضع، لأن الحياة وضعتك ما بين أن تكون قاسيًا أو تكسرك. لقد ضحّيت بكل ما فيك من أجل عائلتك، والآن حان دورك لتضحي من أجل نفسك ومن أجل أن تنام ابنتك في قبرها سعيدة بما فعله أبوها من أجلها».

هزتني كلماتها، ضعفت أمام منطقها ومحاولاتها لتخفيف قسوة جلد الذات عني.

-اخرج لهم يا طاهر، انتظرهم حتى يستيقظوا، تظاهر بالضعف أمامهم واعطِ لهم الأمان، ثم فاجئهم بالانتقام منهم جميعًا، وابنِ من أشلائهم النجسة عرشًا تجلس عليه لتتمتع بانتصارك العظيم.

***

ساحل عريض.

أمواج غاضبة ترتفع زيادة عن مترين وكأنها تُهدد بحدوث تسونامي، السماء رمادية كئيبة، الشمس لا تستطيع الظهور من كثافة السحاب الغاضب، الهواء البارد يدخل سكاكين في صدري يسلخه ويعذبه. لم أرَ في حياتي غروبًا بهذه الكآبة، لا أستطيع تحديد زماني أو مكاني، أصوات الأمواج وهي تحطم الصخور، الرياح القوية، أصوات مرعبة وقاسية تثير خوفي.

نظري لا يرى أي مظاهر للحياة.

أنادي: يا عالم! يا ناس!

لا أحد يرد إلا صدى صوتي.

بدأت في المشي بحثًا عن شخصٍ ما يدلني أو ينقذني، فجأة ظهرت مجموعة في سن المراهقة، يضحكون ويرقصون، بينما هناك طفلة تجلس بعيدًا عنهم، تراقبهم من بعيد وتبكي، اقتربت منها: «هل تعرفين أين نحن؟».

لم ترد الفتاة.

-توقفي عن البكاء يا غبية! أجيبيني أين نحن الآن؟

نظرت إلي وهي تبكي وقالت: «هل تعرفين أين أمي؟».

تمعنت النظر في عينيها، تشبهني كثيرًا هذه الطفلة، تشبهني كثيرًا.

قلت وأنا أتأمل ملامحها: «ما اسمك؟».

أجابت وهي تواصل بكاءها الحزين: «رودينا».

هي أنا!

-لماذا تبكين يا صغيرتي؟

ردت بتلقائية: «اليوم كان الاحتفال بعيد الأم، لقد حضر الأطفال مع أمهاتهم إلا أنا، لقد رفض أبي الحضور بحجة العمل. أختي الكبيرة قالت إنها لن تذهب لهذه التفاهات، لقد أردت أن أكون مثل بقية الأطفال، أردت أن أدخل مع أمي، أتحدث معها وتعانقني من حينٍ لآخر، تُقبل رأسي وهي

تتحدث عني مثلما تتحدث الأمهات عن أطفالهن، ألا أستحق أن أكون مثلهم؟ ألا أستحق أن تكون لدي أم تحبني؟».

-الفتاة التي لا أم لها.

-الفتاة التي لا أم لها.

بأصواتهم العالية المزعجة اقترب الأطفال منها وظلوا يرددون هذه العبارة السخيفة. لقد حدث معي هذا، ذاك اليوم حين عدت إلى المنزل باكية، كنت أبكي للحد الذي شعرت فيه أن قلبي سينفجر. دخلت سيدرا وقالت وهي تضحك:

«كفاك بكاء، أمك رحلت ولن تعود أبدًا».

كانت كلماتها تثير بكائي أكثر، قضيت فترة طفولتي أفتقد أمي التي لم أرَها، كنت أرى كل من هم في سني يذهبون للمدرسة رفقة أمهاتهم بينما كنت أنا وحيدة، حتى سيدرا التي من المفترض أن تعوضني عن هذا الفقدان كانت أشد قسوة علي، بل كانت وكأنها تعاقبني أكثر على غياب أمي. الوحدة والفقدان مزيجان يحطمان قلبك ويجن جنون عقلك، وحين ترفض الواقع بكل ما فيه تتعايش مع الخيال فقط لتواصل بقاءك، وقد اخترت الخيال في هذه الفترة ليُهوّن علي قسوة واقعي.

استدعيت أمي في خيالي وأصبحت أحكي لها وأشاركها

كل خطواتي، أستدعيها في الفرح فأراها أمامي، وأستدعيها في الحزن لتُهوّن مأساتي، بل كنت أسمع منها كلمات التهوين والمواساة عن كل لحظاتي الصعبة. كان هذا السر الأعظم، في نهاية كل يومٍ أعود لغرفتي فأجدها تنتظرني بحنان الأم، تسمع تفاصيل يومي وتتفاعل معي، تنصحني وترشدني في تصرفاتي، حتى غضبي من أبي وسيدرا كانت تحاول تهوين هذه المشاعر وتمدني بالصبر، لقد عشت سنوات وسنوات في الخيال مع أمي، بل كان رأيها يكفي أن أبتعد أو أقترب من الناس، كنت أعتمد عليها اعتماد أمي، واستغلت سيدرا ذلك حين سمعتني أتحدث كل يومٍ في غرفتي وحدي حتى واصلت اتهامها لي بالجنون، لكنني لم أبال، صحيح معاملتهم لي أنني مجنونة زادت من معاناتي، لكنه الواقع، وكان عليّ تقبل هذا مهما كلفني الأمر.

فجأة اختفى الأولاد وعاد الساحل الفارغ من جديد.

تمنيت أن ينتهي هذا الحلم الكئيب، واصلت المشي عسى أجد ضالتي، فجأة ظهر أمامي طاهر يجلس مع أبي في المكتب، يتحدث أبي بغضبٍ وعدوانية، بينما يلتزم طاهر الصمت والهدوء وينصت لما يسمعه.

أتذكر جيدًا هذا الاجتماع، كنت في السنة الأولى من الجامعة، وكنت مثل كل من هم في عمري في هذا التوقيت

مهتمة كثيرًا بما يحدث في الشارع المصري، أقصد الثورة وأحداثها المتتابعة، التصنت ليست من صفاتي، لكن نبرة صوت أبي العالية وحديثهما ما أجبرني على الوقوف وراء الباب وسماع الحديث الذي دار بينهما.

-القتل هو آخر الحلول التي يمكننا اللجوء لها يا طاهر، ما قمت به خطأ لا يغتفر.

-هي من أجبرتنا على هذا يا أبي، هي من أجبرتنا على اتخاذ هذه الخطوة، لقد واصلت كتابة المقالات ومحاولة تحفيز الرأي العام ضدنا، وقد تحدثنا معها مرات ومرات لكنها لم تستجِب.

قال أبي بنبرته الغاضبة: «كان يمكنك التصرف بطريقةٍ أفضل، ما قمت به سيزيد من حماس الرأي العام ضدنا، سيجعلهم يتربصون لنا أكثر من ذي قبل، هذه هي الثورة وهذه ضريبتها».

هنا وللمرة الأولى ارتفع صوت طاهر قائلًا: «يلعن الثورة والثوار وشباب الثورة وحرية الرأي! أبي ماذا دهاك؟ هل تصدق أن ما حدث هي ثورة بالفعل؟ هؤلاء مجموعة من الحمقى والمغيبين، لن نسمح لهؤلاء بأن يتحكموا في الرأي العام».

رد أبي: «ولو كانوا كذلك من الغباء الوقوف أمام التيار القوي لإثبات قوتك، خصوصًا إن كان التيار لا يضربنا وحدنا».

-لا تقلق هناك أكثر من رجل أعمال قد لمّحت المرحومة بالتحدث عنها، لسنا وحدنا تحت الأنظار، وأصابع الاتهام بعيدة عنا.

قال أبي بعد أن هدأت نبرة صوته: «في الصباح ستبدأ كل الصحف اليومية بالخبر العريض (العثور على جثة الناشطة السياسية شرين أبو العلا ملقاة في نهر النيل) وستبدأ التحقيقات معنا جميعًا».

-شرين أبو العلا!

هنا لم أستطع تمالك أعصابي، اقتحمت مجلسهما وصرخت:

«طاهر ماذا فعلت؟ طاهر شيرين صديقتي أنت تعلم هذا جيدًا. ماذا فعلت؟ أجِبني».

نظر طاهر إلي ولم يبادلني الغضب احترامًا لوجود أبي بيننا، فقال في هدوءٍ تام: «صديقتك توعّدت بالخراب لنا، الخراب الذي سيجعلنا جميعًا خلف القضبان».

وأنا أبكي قلت: «لقد توعَّدت الفاسدين من رجال أعمال

النظام القديم، وأبي ليس منهم».

خرج أبي غاضبًا ليتركني مع طاهر الذي حاول إقناعي: «حبيبتي، هؤلاء الحمقى لا تهمهم الحقيقة، هم يحقدون على كل رجال الأعمال، يعلقون شماعة فقرهم وعجزهم وفشلهم على نجاح الفاسدين، يقولون أن الأثرياء وصلوا لهذه المكانة على أعتاق الفقراء، وبدلًا من أن ينتقموا من أنفسهم بالنجاح والعمل وتحسين مكانتهم الاجتماعية، يريدون أن نصبح مثلهم بنفس الهمجية والعشوائية».

قلت منفعلة: «أنت تهذي يا طاهر، تهذي وتحاول وضع مبرر لما قمت به، وأنا لن أسمح أن يضيع حق صديقتي».

هنا انفعل طاهر لكن بنبرة صوته الهادئة: «أقدر وفاءكِ لصديقتكِ وأشعر بالأسف لكِ، أنتِ ابنتنا المدللة، آخر العنقود المجاب كل طلباتها، أنتِ وحدكِ لكِ منا كل الحب والدلال دون الجميع، لكن يا حلوتي بإمكان كل هذا أن يتوقف وينتهي تمامًا إن كان سببًا في تحطيم عائلتنا، هل تفهمين ما أقصده؟».

قلت عازمة التحدي: «افعل ما تفعله، سأفضح أمركم جميعًا يا قتلة».

خرج طاهر وهو يضحك، بينما وقفت في مكاني أبكي،

كانت شيرين صديقتي، صحيح ليست صديقتي المقربة، لكنني كنت أعرفها وأتحدث معها من حينٍ لآخر، أتابع كل أخبارها وفاعلياتها، وأعرف من صفحتها الشخصية التجمعات والمسيرات الثورية. كنت أبكي ولا أعرف لماذا أبكي، هل لأنني فقدت صديقتي أم لأن عائلتي هي من قتلتها، أم لأنني أخشى الموت؟

الحقيقة أنني أخاف الموت، هو يطاردني دائمًا وأنا أهرب منه بشكلٍ مستمر، هذه المطاردة حتمًا ستنتهي بوضعي في مكانٍ مظلم وكئيب في باطن الأرض، أنادي، أبكي، أصرخ ولا أسمع إلا صدى صوتي، هناك حيث سيتم تقييد حريتي بشكلٍ كامل ولا يمكنني الفرار. الحقيقة أنني أخاف الموت وأفكر فيه دائمًا مهما تظاهرت بأنني لا أهتم كثيرًا ولا يعنيني أمره.

في اليوم التالي قررت الانتقام بالفعل وذهبت إلى أقرب قسم شرطة، ثم بلغت بأنني أعرف القاتل الحقيقي لشيرين أبو العلا، أخبرتهم بكل شيءٍ سمعته. عدت إلى المنزل وتكتمت على ما فعلته حتى جاءت الشرطة بعد يومين لاستجواب أبي وأخي، هنا تأكد طاهر أنني قمت بالانتقام بالفعل منه.

ظل أبي وطاهر أسبوعًا كاملًا تحت التحقيقات، وظل

منزلنا تحت الحراسة المشددة، لكل فعل رد فعل، وبعد زيارة سيدرا لطاهر، عادت إلى المنزل وبدأت رحلة تعذيبي.

لقد حطّمت مكتبتي، ألقت بالأزهار والصبار الذي أعتني به من الشرفة، كانت تنهال عليّ بالضرب المبرح:

«أنتِ السبب في خراب عائلتنا، أنتِ السبب في خراب بيتنا!».

قضيت أسبوعًا في عذابٍ لا يطاق.

-يا مجنونة! يا مريضة! يا مجنونة!

كلمات كانت تغرس السكين في قلبي.

-أنا لست مجنونة، أنا لست مريضة، أنتِ شريكة طاهر في الجريمة، أبي مظلوم لم يرضَ أن يتصرف طاهر بهذا الشكل، لكنكم مجموعة قتلى وسفاحين.

واصلت رفع راية التحدي والانتقام، لن يهدأ بالي إلا بعد استرداد حق شيرين، لن يهدأ قلبي إلا بعد أن أرى القاتل يلتف حول رقبته حبل الإعدام حتى لو كان أخي الكبير. قاومت بكل ما أملك قسوة سيدرا وحجزها لي وتعذيبي، وذات يوم جاء محامي العائلة (والد آدم)، كنت أسمعه يتحدث في الصالة مع سيدرا، يحكي لها التطورات الجديدة

في القضية، وبعد أن انتهى حديثهما ناداني للتحدث معي.

خرجت له وأنا أقول بصرامة:

«لن أُغيّر أقوالي مهما حدث يا متر».

ابتسم ابتسامة المحاميين التي لا أحبها ثم قال:

«ومن طلب منكِ أن تغيري أقوالك؟ أنتِ تريدين إثبات الحقيقة وأنا معكِ يا ابنتي».

نظرت له في تعجبٍ فواصل وهو يبتسم: «لقد أخطأ أخوكِ بالفعل، لكن في المقابل سيدفع أبوكِ ضريبة هذا الخطأ، فاعتراضه على القتل لن يحميه من العقوبة».

تنهدت فواصل المحامي: «ولأن أباكِ لا يستحق هذه النهاية وبريء من دم صديقتك فنحن أمامنا ثلاثة اختيارات، وتعرفين يا ابنتي أن ثلاث رفاهيات في الحياة أمر لا يتكرر كثيرًا.

في هذه اللحظة أنتِ بالفعل محظوظة لأنكِ تملكين ثلاثة خيارات حتى لو كانت الاختيارات صعبة ومرهقة، لكن على الأقل تملكين اتخاذ القرار المناسب لكِ، والآن عليكِ الاختيار ما بين أن تغيري أقوالك في النيابة بإرادتك الحرة لإنقاذ والدك، أو نضطر لإظهار شهادتك المرضية بأنك تواظبين

على علاج نفسي وتعانين من الاضطرابات النفسية والهوس العقلي، أو أنكِ تصرين على أقوالك وفي المقابل ستعيش عائلتك في جحيمٍ دائم ويدفع أبوكِ الذي يحبك سبب تهور ابنه، وفي النهاية قد لا تتم إثبات التهمة عليه؛ تعرفين أن والدك يملك من النفوذ ما يسمح له بالخروج من هذا المأزق بكل بساطة».

-لكنك تعلم أن أخي قاتل!

-أنا متأكد من هذا، لكن أباكِ لا يستحق أن يقضي حياته في السجن نتيجة خطأ لم يرتكبه، أنتِ الشاهدة الوحيدة، لكنكِ لستِ الحل الوحيد للخروج من هذا المأزق، سنتجاوز هذه الأزمة، أيًّا كانت توابعها سنتجاوزها، لكنكِ ستخسرين أباكِ للأبد.

الحي أبقى من الميت يا ابنتي، الآن لديكِ فرصة لإنقاذ حياتك والعيش في هدوء وطمأنينة سواء رضيتِ أم لم ترضي، كما قلت لكِ سنتجاوز هذه الأزمة، لكن بإمكاننا أن نتجاوزها بأقل خسائر ممكنة على رودينا، أو نتجاوزها وتصبح رودينا البنت العاقة التي ستُحرم من كل شيءٍ وتعيش ما تبقى من حياتها في عذابٍ أبدي لن تتحمله.

في النهاية قررت أن أغير أقوالي، أبيع دم صديقتي من أجل النجاة بحياتي. كعادتي لا أقوى على التضحية بما أتمتع

به من رفاهية، لا أملك هذه الشجاعة الأسطورية.

عاد الساحل بفراغه القاتل، واصلت المشي وأنا منهكة تمامًا، فجلست على الشاطئ أستجمع قواي.

-لن أغفر لكِ ما حدث؟

-حسن!

-لقد حطمتِ قلبي يا رودي، حطمتِ قلبي فلم يعد يصلح لأي شيء.

-أنا آسفة يا حسن، صدقني لم أقصد هذا.

قال وهو يقف أمامي:

«لقد حذرتك في البداية من عودتنا، أخبرتك أن قلبي لن يتحمل رحيلك مرة أخرى، لكنكِ أصريت على العودة وأنتِ تعرفين أن قلبي لن يرفض طلب عودتك، لأنه جلس لسنوات على باب جنتك يتمنى نظرةً من عينيكِ.

لقد حذرتك أن عودتنا هذه المرة إن لم تكتمل بالزواج ستحطم قلبي، لقد عاهدتيني بالوقوف معي، وأننا سنبقى معًا مهما كانت العقبات.

كلماتك التي لم توفي بها كعادتك، تعرفين لماذا يا رودي؟

لإنك امرأة تعيش على استنفاد غيرك، قوتك مبنية على ضعف الآخرين، كبرياؤكِ مصنوع من هزيمة الناس أمامك. لقد حطمتِ حياتي، هل تفهمين؟ حين اشتقت للحب والدلال قررتِ العودة، وحين فوجئتِ بأن عليك التضحية ليستمر الحب تراجعتِ، لأنكِ مريضة يا رودينا، ستعيشين بهذا المرض حتى يأتي شخص ما يستهلكك ويستنفد طاقتك، ثم يتركك في منتصف الطريق بلا مرسى».

قلت غاضبة وأنا أبكي: «أنت لست وحدك من عاش في المعاناة يا حسن، لقد تهت وتحطمت مثلك تمامًا، وعِشت أيامًا ولحظات أشد قسوة على قلبي، لقد خذلتك مرتين أليس كذلك؟ لقد خذلت نفسي مئات المرات، خذلت قلبي وما أراده حتى أعيش حياةً هادئة، نعم قل ما تشاء عني، أنا لن أخوض صراعًا من أجل أحد، ولن أخوض أبدًا، أنا أضعف من هذا هل تفهمني؟ أنا أضعف من هذه النظرة، ظننت أنني قادرة على سلك الدرب معك، وأنني قوية بما يكفي لأقف معك في ساحة الحرب أدافع عن علاقتنا أمام العالم، راهنت نفسي على القيام بهذا لكنني فشلت، الخطأ أنني جازفت بالعودة وراهنت أنني سأستمد قوى أخرى بك، لكن هذا ما لم يحدث».

ضحك حسن وأمسك شعري: «وابنك الذي قتلت؟».

-ابن عابر، حين انتهت علاقتنا أردت الانتقام من نفسي، وحين تريد الانتقام من نفسك لن يهمك كثيرًا ما سيحدث في المستقبل، لكن في النهاية لم أستطع تخيل فكرة أن يعيش ابني بعار أمه، بأخطائها وانتقامها القديم من كل شيء حولها ومن نفسها، أن يطارده العار مثلما طاردني الموت، لذلك أنقذته من كل هذا العبث وقررت أن أرحمه من الدنيا، لم أنتقم منك يا حسن، لقد انتقمت من كل شيءٍ حولي لأنني لم أحارب معك.

اختفى حسن وظهرت سيدرا تمسك السكين وتتوعد بالانتقام، مشهد رأيته كثيرًا في خيالي، مشهد اعتدت عليه حتى في منامي. واصلت الركض محاولة الفرار منها وهي تسبني وتلعنني بأفظع الألفاظ، أهرب منها لكنني لا أستطيع الاختباء منها في الساحل العريض، تطاردني والشر في عينيها يزداد قسوةً وانتقامًا، سقطت على الأرض.

لم أعد قادرة على الحركة.

انفجرتْ باكية: أمي!

انقذيني يا أمي.

الموت.. الموت يطاردني في كل مكان».

استيقظت مفزوعة.

-إذًا لماذا لا نطارده نحن؟

أفزعتني أم خالد التي كانت تجلس على طرف السرير:

«ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟».

قالت بصوتها الذي أكرهه:

«دعكِ من هذا ودعينا نتحدث للمرة الأخيرة كأصدقاء».

قاطعتها: «تعرفين أننا لسنا أصدقاء ولن نكون أبدًا».

ردت: «لا تنسيْ أنني خدمتك خدمة العمر وأنقذتك من الفضيحة، الخلاف الذي بيننا لن ينتهي، أنتِ تتهمينني أنني تسترت على أخطاء إخوتك في حقك، بينما الحقيقة ليست كذلك، كنت أعرف أن سيدرا تهددك بشكلٍ مستمر، وكنت أعرف أنها تصنع المكائد لكِ ولم أعترضها، كان بإمكاني إقناع والدك بحسن حتى يُسهّل أمر زواجك منه لكنني لم أفعل أيضًا. أفهم جيدًا أن غضبك مني عظيم، ولكِ كل الحق، لكن ألم تسألي نفسك يومًا لماذا قمت بكل هذا؟».

نظرت لها ولم أرد فواصلت: «لأنني عاملتك كما تعامل الأم طفلتها، تسمح لها بالسقوط مرات ومرات حتى تتعلم الوقوف على قدميها، ثم تسقط وتسقط حتى تتعلم المشي، ثم تتعثر وتتعثر حتى تسقط من جديد، هذا ما أردته لكِ».

-أنا لست ابنتك لتعامليني هكذا، أنتِ مجرد مربية لم تنصفني وميّزت الجميع عني.

قالت العجوز: «الآن دعينا نتحدث بواقعية، طوال حياتك والموت يطاردك، ما رأيك لو نطارده نحن؟ أقصد أن مطاردة الموت لكِ طوال الوقت جعلتكِ مريضة نفسية، حطمت حياتك ودمرت أحلامك، وحتى بعض القرارت الخاطئة اضطررتِ لها، الذنب ليس ذنبك بل هي الظروف التي جعلتك مريضة، وستبقين هكذا ما دمنا لم نضع حلًا».

-وما الحل في رأيك؟

-التخلص من البيئة التي تسببت في مرضك.

قالت: «حين أخرج من هنا سأغادر مصر بلا عودة».

-سيبقى يطاردك الموت إن ذهبتِ لباطن الأرض يا رودينا، ما دامت سيدرا ما زالت تحيا لن تتركِ في سلامٍ أبدًا، ستواصل عدوانيتيها نحوكِ وتسعى لتدميرك، هي يقودها الغيرة والحقد عليكِ منذ طفولتك، وسيستمر هذا الحقود يقودها نحوكِ ولن تهدأ إلا بعد أن تقتلك لتتخلص منكِ.

هذه هي الحقيقة التي ترفضين الاعتراف بها، أنا أثق أنها مسألة وقت، وفور خروجكِ من هنا ستنتقم منكِ ليهدأ بالها.

-تطلبين مني أن أقتل أختي؟

-لا، أطلب منكِ إنقاذ حياتك يا رودينا، حياتك التي ضحّيتِ بكل شيءٍ من أجل الحفاظ عليها وفشلتِ. أطلب منكِ أن ينتهي الكابوس الذي سيظل يلاحقك طوال حياتك، هذه هي الفرصة المناسبة للتخلص منها، كل الأشياء السخيفة التي قامت بها في وجود أبيكِ ستصبح أكثر عدوانية وشراسة فيما بعد، كل هذه التصرفات الوحشية ضدك كانت وهي تضع اعتبارًا لأبيكِ، فما بالك بعد وفاته؟ ستنال منكِ لا محالة، والآن لماذا ننتظر العناية الإلهية؟ لماذا نعيش ما تبقى من حياتنا في خوفٍ وترقب؟ لينتهي كل هذا يا رودينا.

الغريب أنني لم أُبدِ أي اعتراضٍ على كلماتها؛ كنت أشعر أنها بالفعل الفرصة المناسبة لإنقاذ ما تبقى من حياتي، هي لن تتركني أحيا بسلام وأنا لست ضعيفة لأنتظر عطفها، لذلك شعرت أن الانتقام هو الحل الوحيد لنهاية لعبة الكر والفر.

-كيف يمكنني القيام بهذا؟

قالت: «دعي الأمر لي، سأقوم بإحداث الفوضى، حينها لا عليكِ سوى إمساك السكين وغرسهِ في قلبها حتى تسقط جثةً هامدة».

المشهد الأخير.

استيقظ أفراد العائلة تباعًا، ظل كل منهم في غرفته يحاول استيعاب ما سيحدث.

قالت يارا: «سنسمح لهم بالخروج ودفن ابنة طاهر، سيخرجون في عربة مصفحة يدفنون الطفلة ثم يعودون من جديد إلى القصر».

قلت ليارا بعد أن أنهيت قراءة الوصية للمرة الثانية:

«حسنًا، أحتاج الذهاب مرة أخرى إلى منزل العائلة، يمكنك تولي أمرهم وسنلتقي هناك في مقابر العائلة».

قالت: «غريبة!».

انطلقت بالسيارة وذهبت إلى منزل العائلة، بداخلي صوت يقول إن النهاية كانت مكتوبة في البداية لكنني لم أهتم بها، لو استمر الوضع مئة عام لن يتغير ولن يعترف أحد بالحقيقة، ربما لأنهم يخشون على أنفسهم من توابع الاعتراف أو ربما لأنهم بالفعل لا يعرفون حقيقة وفاة والدهم، المهم أن شخصًا ما يعرف تفاصيل أكثر مما أعرفها ويعرفها أولاده.

تركت السيارة بالقرب من المنزل، ثم بدأت في التجول في أركان الحي؛ كنت أبحث عن شخصٍ ما، أبحث عن الشخص الذي يملك الحقيقة.

«ابنْ مهما تبني ما دايم إلا وجه الله، ما دايم إلا وجه الله».

المرزوق هو وحده الذي حذّر الحاج خورشيد مما سيحدث، حتمًا ولا بُدَّ هو يعرف الحقيقة.

ظللت أبحث عنه في شوارع الحي لكنني لم أجده، اتجهت إلى المنزل من جديد على أمل العثور عليه، فقد سمعت أنه يتجول في حرم المنزل يردد عباراته الشهير.

واصلت المشي بحثًا عنه لكنني لم أجده، فاتجهت مباشرةً إلى غرفة المرحوم، وقفت أمام الخزينة محاولًا تذكر الرقم السري:

المحاولة الأولى.

المحاولة الثانية.

المحاولة الثالثة.

فُتحت الخزينة أخيرًا.

فارغة لا يملؤها سوى كتاب ضخم مكتوب عليه «عائلة الخورشيد».

كان الفهرس عبارة عن أسماء أولاده، وفي الصفحةِ الأولى كتب بخط اليد رسالة:

«لقد أخطأت في الكثير من القرارت المصيرية، أخطأت في تقديري لبعض الأمور الجدية التي كان ينبغي علي ألا أخطأ فيها أبدًا.

من أجل توفير أسمى مراحل الاستقرار الاجتماعي اضطررت للتسلق والاندماج وسط المجتماعات السياسية، كنت لا أملك رأيًا واحدًا ولا أؤمن أن هناك رأيًا سياسيًّا يستحق الدفاع من أجله، أصاحب الجميع وأعقد صفقات مع الجميع، المؤيد للنظام والمعارض، الحقوقي وسارق حقوق الغلابة. أنا من حاشية الملك مهما كانت أفكاره السياسية، ومع الحقوق المشهور مهما كانت حياته الخاصة ونيته الخفية الدنيئة، الأهم أن تسير مركب أعمالي كما أريد، والمصلحة نفسها اضطرتني للظلم وعقد صفقات مع الشيطان نفسه. لقد عِشت حياتي من أجل تمكين أولادي في كل خطواتهم، نجحت مرة وفشلت مرة وأخطأت مئات المرات.

ولقد أخطأت أيضًا في تربية أولادي، لقد حرمت طاهر من حريته في اتخاذ القرارت التي تخص حياته، لم أعطِ له حرية رسم حياته كما أراد، جعلته سندي وعكازي ولم أسمح لأي صوتٍ يعارضني في هذا القرار. في الآونة الأخيرة ظهرت خلافات كبيرة بيني وبين ابني الكبير،

كانت قسوتها أننا اختلفنا في وجهات النظر، يعني أن أحدنا سيكون رجلًا شريفًا والآخر رجلًا فاسدًا. لقد نشب الخلاف الذي توقعته، لكن لم أتوقع أبدًا أن يصل الخلاف لاتهامي بالجنون، لقد أوجعتني كلماته الحادة واتهامه لي بالخرف، الخرف لأنني أردت أن أُبرّئ ذمتي بعد سنواتٍ من الضلال، لأنني عممت الأرض فسادًا وأصبحت أخشى مواجهة الله ليسألني عن كل الأفعال الدنيئة التي قمت بها، أردت أن أتطهر من كل أخطائي خوفًا من مواجهة الله. كان يقول إنه فات الوقت للتوبة، لكنني كنت أؤمن أنه ما دمتُ حيًّا حتى هذه اللحظة فما زالت الفرصة أمامي للتوبة. لقد اشتد الخلاف بيننا وبات أكثر عدوانية، أن تقف في وجه ابنك لأنه يريد مواصلة الركض في طريق الضياع هذا ما لم أطِقهُ، الحقيقة التي كنت أخشى منها أن يتربى بداخله الجشع، إحدى صفات الخطايا السبعة، لكن بعد الموقف تأكدت من ظنوني ومخاوفي، ولم أستطع إنقاذه، والآن أنا في انتظار ما سيحدث ورد فعله، خصوصًا بعدما أتممت إجراءات التبرع بكل ممتلكاتي المشبوهة لأنني أريد مقابلة الله بنفسٍ راضية.

سيدرا هي الثانية والفتاة التي قسوت عليها في بداية حياتها، لا أنكر أنني عاملتها بعدوانية وساعدت في محو شخصيتها، أردتها أن تكون أمًا لإخوتها، ونتيجة لهذا بدأ

بداخلها الحقد والحسد تجاههم جميعًا، لقد كانت تحسدهم في كل شيء، تحسد طاهر وتحقد على زوجته، وترى أنها تعيش مدللة وتملك الكثير من الأشياء التي لا تستحقها، تحسد زين رغم أنه لا يملك ما يجعل أيَّ شخصٍ يحسده عليه، وكانت تحقد وتحسد روديناً، على شخصيتها وأفكارها ومعاملتي لها، بل كنت أعرف أن الحقد والحسد اللذان ملآ قلبها أوصلاها للتفكير في التخلص من أختها، لكنها تتراجع في اللحظة الأخيرة لأنها تخشى وجودي، وأعرف أيضًا أنها السبب في مرض روديناً. لقد تملّك الحسد منها حتى أنها إن رأتني مع أحد رجال الأعمال المعروفين، تحدثني عما يمتلكه، وعن مدى الرفاهية التي يعيشها وينعم بها، بل تحسد المحيطين به عما يعيشون في رفاهية ونعيم. يؤسفني الاعتراف بهذا، لكن ابنتي الثانية هي خطيئتي الثانية، خطيئة الحسد والحقد، وما أعرفه أنها ستوافق طاهر في تصرفاته، وقد تتفق معه ضدي لأنها لا تشبع أبدًا.

زين ابني الثالث، أحببتُ هذا المشاكس العنيد، لقد كانت طفولته عدوانية، يحمل كم غضبٍ لا يطاق، حين يغضب كان يكسر ويحطم كل شيءٍ حوله، حين يرى البيت في حالة هدوء يشيط غاضبًا ويبدأ في افتعال المشكلات والمصائب، لقد اضطررت إلى السيطرة على هذه القنبلة الموقوتة بالحديد.

كان بإمكان زين أن يطيح بنا جميعًا، هو لا يتفاهم ولا يتناقش، أسهل ما عنده أن يُحطم كل شيء، لذلك علمته أن القوي هناك من هو أقوى منه، والعدوانية تقابلها عدوانية. لم تستمر رحلة غضبه طويلًا؛ لقد أنهكه الإدمان، وأنهكته الحياة أكثر. لم أوافق أن يتزوج حبيبته لأنني لم أثق في قدرته على الهدوء، كنت أخشى أن يغضب عليها فيُدمر المصالح بيني وبين والدها، لذلك اخترتها لـ طاهر لأنك حين تذهب لعقد صفقة تحتاج للشخص المراوغ حتى لو كان جشعًا عن الشخص الغاضب العدواني. لقد حطمت قلبه، لكن ليتعلم أن الحياة ليست بهذه السهولة التي تجعله يفوز بكل شيءٍ يريده، ورغم أنني حطمت قلبه لكنه أنقذني مرات ومرات، لقد اضطر لقتل أغلب أعدائي ليحميني، فلقد عشت في حمايته سنوات وسنوات، كان لا يقبل عليّ أي سوء رغم قسوتي عليه، حتى حين علم بنيتي في التوبة لم يعارضني، بل وقف في وجه أخيه وحذره من أي تجاوز، ومع ذلك فأنا أخشى من سيطرة طاهر عليه، وقدرته الكبيرة على الإقناع، أخشى أن يتحد مع إخوته عليّ.

رودينا.

فتاتي وابنتي المغرورة التي تظن أنها خُلقت أولًا ثم جاء العالم بعدها، أحببت وأشفقت عليها لأنها دون الجميع

ولدت لحظة وفاة أمها، الحقيقة أنا أكذب، لكن لا يمكنني قول الحقيقة هنا، فلا أدري من سيقرأ هذا الكتاب، لكن ما أؤمن به أنني حاولت توفير كل سُبل الحياة المرفهة، حاولت تمييزها عن الجميع، وعلمتها أن العالم يخضع لأوامرها، لقد جعلت الكون بين يديها، حيث لا تحتاج لبذل أي مجهودٍ في سبيل تحقيق أهدافها، لقد علمتها التعالي على الدنيا حتى أصابها الغرور، لكنني أخطأت لأنني لم أعلمها كيف ومتى تحاول التنازل عن رغباتها، جعلت ولاءها لنفسها ولعالمها، حتى تمردها عليّ كان يتوقف حين أضع عالمها ومتطلباتها على طاولة المفاوضات، حينها تفكر ثم تتراجع في تمردها، لقد جعلتها شخصية في غاية القوة أمام الجميع، لكن في نفسها هي لا تقوى على الدفاع عن نفسها، وفي سبيل الحفاظ على ما تمتلكه لا أظن أنها ستعارض طاهر في قراره إن أراد الانقلاب عليّ، هو يعرف نقطة ضعفها وأنا أعرف أنها أضعف من التنازل عن أي شيءٍ يخص رفاهيتها».

واصلت قراءة الكتاب لكنني لم أجد فيه ما يساعدني على اكتشاف المزيد عن حياة هذه العائلة. واصلت تفتيش الغرفة لكن دون جدوى، قررت الذهاب للمقابر والتواجد مع العائلة في مراسم دفن الطفلة.

كنا وقد وصلنا للسابعة مساءً وقد بدأ الليل في فرض

سيطرته على السماء، كان الظلام هو اللغة السائدة، ووجوه أفراد العائلة شاحبه ومنهكة، الصمت يغلب على الجميع، والبكاء هو اللغة الوحيدة التي أجادها طاهر في هذا الوقت، صدقًا للمرة الأولى أراه يبكي، هذا الذي اعتاد أن يبقى صامدًا طوال الوقت، لقد هزمته الدنيا أخيرًا، كسرت كبرياءه وجشعه، وها هو يقف أمام قبر ابنته قليل الحيلة، للمرة الأولى يقف عاجزًا أمام القدر معترفًا بهزيمته.

-لم أرَهم بهذا الضعف من قبل.

قلت ليارا التي ردت بهدوءٍ تام:

«لقد تعاملوا مع الحياة بعدوانية آملين الفوز بكل شيء، وتناسوا أن كل انتصار أمام الحياة يقابله هزيمة وخسارتك لشيءٍ ما بداخلك، وهذا ما حدث لهم جميعًا».

تحركوا جميعًا ناحية قبر أبيهم يقرأون الفاتحة عليه.

طاهر وزوجته، سيدرا وزوجها، رودينا وحسن الصياد، وزين مع كلبه الصغير ونعمة زوجته الثانية.

ظل الصمت يُسيطر على حلقتهم الدائرية.

«ما دايم إلا وجه الله.. ما دايم إلا وجه الله».

المرزوق!

الكلاب حراس المقابر بدأت في النباح.

«ما دايم إلا وجه الله.. ما دايم إلا وجه الله».

واصل المرزوق الالتفاف حولهم وهو يضحك ويردد:

«ما دايم إلا وجه الله.. ما دايم إلا وجه الله».

لم يُعِر أحد اهتمامًا لوجوده، فواصل وللمرة الأولى يتحدث بكلماتٍ مفهومة:

«أبوكم رجل ظالم، رجل اعتدى على حقوقي، كنت شريكه وكنت آمنه على مالي وأهل بيتي، لكنه لم يحفظ الأمانة، استغل ثقتي به ونهب كل أموالي، شرّد عائلتي وأصبحت مديونًا بملايين حتى قضيت سنوات في السجن، سنوات لأنني لم أستطع سداد القروض والالتزامات التي ورطني أبوكم فيها، لقد تخلص مني شر تخلص، عقد صفقة مع الشيطان ليسجنني، ونجحت خطته وصفقته، أراد السلطة والنفوذ والمال، أراد أن يجمع كل متاع الأرض لكنه نسيَ، نسيَ أن الله يقسم قسمة العدل على الجميع، فأعطى له ما أراد، لكنه ابتلاه في أبنائه.

الآن تحققت العدالة وتقفون على قبره تبكون، لكنكم تريدون معرفة الحقيقة، أليس كذلك؟

خلال وجودي في السجن كنت قد أعددت خطة الانتقام المثالية، كنت أتابع أخبار أبيكم عن قرب، وأعرف كل تحركاته وخططه، أتابع مشاريعه وصفقاته الجديدة، وأتابع صغاره، كل هذا تم بمساعدة مربيتكم الفاضلة (أم خالد)، المربية التي كانت متواجدة معكم طوال الوقت، كانت زوجتي التي تزوجتها سرًا قبل انقلاب أبيكم علي، كنت أشعر أن شيئًا ما سيحدث، لذلك كان علي أن أُؤمّن نفسي ويكون لدي شخص في قلب منزلكم يمدني بالمعلومات الكافية عنكم. لقد نجحت أم خالد في كسب ثقة أبيكم وجعلها المسؤولة عن البيت حتى في وجود أمكم التي لم تتحمل الأدوية التي كانت تزرعها زوجتي في وجباتها، ولحسن الحظ كان حمل أمكم في نفس فترة حمل أم خالد زوجتي، وصدقًا لم يكن الأمر صدفةً، اللعب مع الشيطان يجبرك أن تكون شيطانًا مثله تمامًا.

ونجحت الخطة الأولى بالفعل وماتت زوجته فور ولادتها لأختكم.

ابتسم المرزوق الذي كان يتحدث عن خطته الشيطانية وكأنه يسرد قصة عابرة. نظر إلى رودينا ثم قال:

«ما لم يعلمه أحد أن الرضيعة قد ماتت هي الأخرى، لكن لحسن الحظ أن زوج ابنتي كان الدكتور المشرف على حالة

أمكم، لذلك فور وفاة الرضيعة تم استبدالها برضيعتنا، رودينا ابنتي العزيزة».

هنا صرخت رودينا: «اخرس يا مجنون».

ضحك المرزوق وواصل وكأنه لا يبالي:

«ونجحت الخطة الثانية، وباتت العائلة مخترقة، حيث مربية تدير المنزل، وابنة تشعر بالتمييز والتفرقة عن غيرها. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، لقد استطاعت زوجتي كسب ثقة أبيكم حتى حدثته عن تجارة المخدرات والسلاح، وأن هذا الطريق هو وحده الضامن الوحيد لتوفير حياة كريمة للعائلة، بل ساعدته ومهدت له الطريق حتى يصبح من أهم رجال الأعمال المشبوهين في مصر، وكلما قرر التوبة والتراجع حدثته أم خالد عن مدى صعوبة التراجع، بل كانت تصنع أزمات مادية في عمله حتى يصبح أثيرًا لهذا الطريق، وحين اطمأنت على ضلال أبيكم، بدأت في زرع الجشع والطمع في نفس طاهر، كانت تُحدثه عن قوته وسلطته، وأنه يحتاج ليكون أكثر ذكاءً في التعامل، لقد امتلكت مفاتيح طاهر وحدثته أيضًا عن ضرورة الطمع والجشع للحفاظ على ممتلكات أبيهم، ثم اتجهت إلى سيدرا الفتاة التي كانت تحتاج فقط لمن يواسيها على حياتها البائسة، وبدلًا من إقناعها بالرضا والنصيب، وأن التضحية ضرورية أحيانًا

لاستقرار العائلة، زرعت في نفسها الحسد والغيرة من إخوتها، زرعت بداخلها الصفة الشيطانية التي هزت أكثر استقرار المنزل.

سيدرا حبيبتي التي ساعدتنا في خطتنا، بعدما عرضت عليها أم خالد المال والثروة الطائلة، بل كان لزوجتي الفضل في زواج سيدرا من ياسر. بالمناسبة دكتور ياسر ابن أحد أصدقائي القدامى، لقد أدى دوره كما ينبغي، واستطاع تجميل مطامعه الشخصية في عيني زين الذي لم يتردد كثيرًا في دعمه له، هي أيضًا من رفضت زواج ماريهان من زين، ورشحت طاهر ليتزوجها بعدما شعرنا أننا فقدنا السيطرة على زين، فكان لا بُدَّ من إيجاد مخرج آخر لمواصلة السيطرة، ونجحنا أيضًا في هذا.

كانت لأم خالد السيطرة التامة على المنزل في أغلب القرارت المصيرية، وحين تمكنت من السيطرة عليهم جميعًا، كانت الخطة الأخيرة أن يحدث الخلاف المتوقع والمنتظر، لقد تحدثت مع أبيكم عن قرار التوبة؛ تغيّرت وتلونت كالحرباء وبدأت في إقناعه أنه حان الوقت للعدول عن هذا الطريق، وفي المقابل كانت تتحدث مع طاهر عن عشوائية هذا القرار، والخراب والفقر الذي سيلحق بالعائلة إن صمم أبوهم على هذا القرار المفاجئ. لقد نجحت في

زيادة الاحتقان بين الأب وأبنائه. أما زواجه من نعمة فقد كان مدبرًا أيضًا حتى تزيد ثروتنا المادية، وأسترد أموالي المنهوبة، تعرفون من ساعدنا في هذا القرار؟

طاهر حامي الديار.

واصل المرزوق وهو يضحك وسط حالة الصدمة.

لقد تعرف عليها في أحد الملاهي الليلة بعدما رشحتها أم خالد وأقنعته أن زواج أبيه من هذه الفتاة سيكون أفضل ضامن للحفاظ على ثروته، خصوصًا بعدما اتفق مع حسن الصياد على المقايضة.

الانتقام الرغبة المشتركة التي جمعت حسن الصياد بطاهر، الأول كان يريد أن يشتت العائلة ويفرقهم ويمنعهم من التمتع بثروتهم، وطاهر أراد أن يكبر نصيبه أكثر في الميراث، لذلك اتفق مع نعمة على الاقتراب من أبيه كونها حفيدة أحد رجال الأعمال القدامى، وأنها تملك ثروة طائلة تريد ضخها في السوق المصري، وأنها تثق في العجوز وتريد بِدء شراكة معه شرط أن يتزوجها ويكتب لها جزءًا من ممتلكاته كضامن لها. اتفقت أن تضخ الأموال على دفعات كل ٦ أشهر، وبالفعل وفر طاهر الجزء الأول من الصفقة وأعطاها لنعمة حتى تثبت لأبيهم حسن نيتها، في هذا الوقت كان الحاج خورشيد يمر بحالة من التشتت، ساعده في هذا أيضًا طاهر

الذي بارك هذا الزواج مع أم خالد التي قالت أن هذه الصفقة هي الضامن الوحيد للبقاء في نفس المستوى الاجتماعي بعد قرار التوبة والاعتدال عن طريق تجارة المخدرات والسلاح. أذكياء نحن، أليس كذلك؟».

-كل هذا كذب، كل هذا خرافة لا تصدقوه!

كلمات صرخ بها طاهر معترضًا على ما يروي المرزوق.

هنا تدخلت بعد محاولاته لإيقاف المرزوق عن الحكي:

«إن حاول أي منكم اعتراضه مرة أخرى سيتم القبض عليكم جميعًا».

جلس المرزوق على الأرض ثم واصل:

«حتى جاء الموعد المنتظر، ليلة التخلص من الشيطان الأكبر، ليلة التخلص من أبيكم.

قبل هذه الليلة بدا كل شخصٍ منكم متحفزًا ضد أبيكم، فقد كنتم تعلمون بما ينوي القيام به، لكنكم لا تملكون جرأة كافية لمواجهته، الخوف من المواجهة والخوف من فقدانكم للثروة وممتلكاتكم، وأبوكم الذي قضى أسبوعًا تحت تهديد القتل، يشعر به في وجودكم أنتم الذي كان يأمل أن تكونوا درعه وحمايته في أيامه الأخيرة».

اقترب المرزوق من قبر الحاج خورشيد ثم قال:

«لم يقتلك أبناؤك، بل الشيطان الأعظم لم يتحمل أن يبقى مهددًا بالقتل بهذه الطريقة، لذلك قرر التخلص من حياته، بعدما جاءني يتصبب عرقًا، طالبًا النصيحة، حينها قلت له: ما دمت ستموت فانقذ القاتل من حبل المشنقة وتخلص أنت من نفسك، هذه هي التضحية الحقيقية.

لم يُعر لكلامي اهتمامًا واتهمني بالجنون والانتقام، لكنني كنت أعرف أنه سيفكر في الأمر.

في هذه الأثناء كانت أم خالد قد واصلت إثارة الغضب أكثر في نفوس أبنائه، واصلت زرع التمرد عليه ونجحت في هذا، أصبح الرجل يعيش تحت طائلة الموت بالفعل، كل دقيقة، ساعة كانت تمر عليه كان يشعر بالموت أكثر وأكثر، كابوس يطارده في كل مكان، حتى قرر أخيرًا التخلص من كل هذا بعدما تعمدنا أن يسمع حديث أم خالد مع طاهر ونيته في إيداع والده في مستشفى الأمراض العقلية والنفسية. لقد جهز الأخير كل الإثباتات الطبية المزورة التي تثبت إصابة والده بالزهايمر والخرف. كانت إهانة أكبر من أن يتحملها، وفي لحظة يأس قرر التوجه لأم خالد التي أشارت عليه أن يستبدل علاجه بأدوية مضاعفة، وقد كان ونجحت الخطة، وعلى فراش الموت وفي لحظاته الأخيرة كانت هناك بطلة

أخرى في الكواليس.

نيللي مساعدة آدم التي كتبت عقد التنازل عن كل ممتلكاته لصالحي، ونجحت أم خالد في جعله يمضي على التنازل بتاريخ مسبق، ونجحت الخطة».

اجتاحت المرزوق نوبة ضحكة جنونية، يبدو أنه فقد عقله تمامًا.

ثواني الصمت التي تجتاحها نوبات الغضب.

صوت الكلاب كان المسيطر على الوضع، حتى ابتسم طاهر قائلًا بعدوانية: «والآن ليسدل الستار على هذه القصة».

أخرج طاهر السكين ثم انقض على زين لينال منه، بينما هرولت رودينا التي ظهر في يديها سكين هي الأخرى وانقضت على سيدرا للنيل منها، ثم ياسر الذي وبلا سبب هاجم حسن الصياد، بينما ظلت نعمة تصرخ وتبكي حتى انقضّت ماريهان عليها وظلت تركل بطنها ليسقط الجنين، حالة من الهرج والمرج والفوضى، السبعة أشخاص يتوعدون لبعضهم ويتصارعون في حالة جنونية ولن يبقى منهم أحد، بينما وقف المرزوق وأم خالد ونيللي يضحكون عليهم.

لقد تحقق الحلم الذي رأيته في المنام، لقد تحققت النبوءة وأصاب الجنون كل أفراد العائلة.

النهاية التي لم يتوقعها أحد بعدما خسروا كل شيء، كل شيءٍ حاربوا لأجله، خرجوا من الدنيا خاليي الوفاض تمامًا، كل صراعاتهم انتهت بهم نحو اللاشيء.

بعد عشر سنوات.

اليوم مختلف، لقد قررت التنزه مع زوجتي يارا، الفتاة التي نشبت بيني وبينها خلافات فكرية في بداية تعارفنا، لم نتفق على نقطةٍ واحدة في العزل الصحي الذي جمعنا قبل عشر سنوات، لكننا اتفقنا على الزواج، ذاك القرار المصيري، تمامًا كما يقولون ما محبة إلا بعد عداوة، وهذا ما حدث بالضبط، وتزوجنا وأصبح لدينا زين ابننا الوحيد.

«بحر الحياة غدار واحنا لفين رايحين؟

شايل معاه أسرار واحنا معاه ماشيين

أيام تفوت وتروح واحنا ولا حاسين

أحلام تعيش وتموت يا قلوبنا يا خايفين

الطير بيهاجر وبيرجع

الشمس بترحل وبترجع

الدنيا بتاخد وبتدي

الليل لو طوّل هيعدي

في ليالي بنحلم وتعبنا ورجعنا لوحدنا بعذابنا

حاول تتغير ومسيرك تقدر

وبلاش تستلم يوم للحزن».

منير رفيقنا الدائم في الرحلة.

ركبت يارا السيارة: «حسنًا أين سنقضي يومنا؟».

-سنستعيد ذكرياتنا القديمة.

اتجهنا بالسيارة وأنا أدندن مع الأغنية، توقفت أمام مستشفى العباسية للأمراض العقلية.

-تعالي يا يارا.

-يا زين ما اخترت! مكان مناسب لقضاء يوم جميل مع زوجتك.

قلت وأنا أعلم بسخريتها:

«قلت سنستعيد ذكرياتنا القديمة».

دخلنا المستشفى، في الحديقة كانت هناك امرأة أربعينية ترتدي ثيابها البيضاء، تصرخ، ثم تضحك، ثم تسب وتلعن كل المرضى، ثم تهدأ وترقص.

-سيدرا!

-نعم هي سيدرا.

قالت يارا: «لم أتوقع أن تقضي حياتها هنا».

-هي النهاية المتوقعة لهذه المريضة يا يارا.. كان بإمكانها أن تعيش حياةً أفضل لو قاومت الحسد والغيرة اللذين سيطرا على قلبها، كان بإمكانها أن تحيا لولا أن عينيها لم تريا إلا ما امتلكه غيرها.

خرجنا من المستشفى ثم سألتها:

«هل لديك شغف لحضور حفل غنائي؟».

هزت رأسها: «بكل تأكيد».

في حديقة الأزهر هناك كان شاب يعزف على الجيتار خلف أحد المغنيين المعروفين.

-هل تعرفين من هذا الشاب الذي يعزف هناك؟

-حسن!

-نعم هو حسن الصياد.

بعد نهاية الأزمة قرر الانضمام لهذه الفرقة الغنائية، قضى وقتًا طويلًا في دهب وشرم الشيخ في عزلةٍ تام، ثم أصبح

يتجول مع فرقته في أنحاء مصر، لقد افتتح بارًا خاصًا به في دهب أيضًا. ما أعرفه عنه أنه أصبح درويشًا يقضي أغلب وقته تحت تأثير المخدرات والكحوليات وفي البار الخاص به، نهاية مثالية لشاب خسر كل معاركه في الحياة ولم يفز إلا بنفسه، لقد آمن واستوعب أن الحياة ستسلب منه كل شيء وتعطي ما تريده وليس ما يريده هو، لقد حارب من أجل الفوز برودينا لكنه خسر المعركة، حتى إنه أعطاني ورقة مكتوبًا فيها:

«والآن انتهت المعركة يا حلوة.

أُسدل الستار على المحارب الذي حارب لسنوات وسنوات.

كنت أتمنى أن أقول ها قد حققنا ما نريد، لكن المعارك الطويلة تحتاج للنفس الطويل، وأنتِ كنتِ أضعف من العوم في قلب المحيط.

يؤسفني أننا انتهينا بهذه الطريقة.

وتبقى الكثير من الأسئلة، سيجيب القدر عنها حين ستدركين أن شر الهزيمة، كان حين ارتجفت في قلب المعركة، وتوقعت هزيمتنا؛ حينها فقط انهزمنا».

لقد وصاني أن أعطيها لها، لكنني لم أرَها، ظللت أبحث عنها كل هذه السنوات حتى يأست، وكل ما أعرفه عنها أنها

غادرت مصر ولا أحد يعرف وجهتها.

سألتني يارا عن زين فقلت: «لقد حُكم عليه بالإعدام بعد إعادة التحقيق في كل القضايا القديمة، وتم إثبات الجرائم عليه. زين مسكين، كان ضحية أخطاء أبيه، لكن هذا لم يشفع له قانونيًّا في تخفيف الحكم عليه».

ردت: «كان طاهر أولى بهذا الحكم».

هنا قلت ونحن في طريقنا للعودة إلى السيارة:

«لم يتحمل طاهر صدمة الأحداث، لقد قرر الانتقام من ياسر وقتله، ثم قرر إنهاء حياته، لقد وجدت جثته في مكتبه منتحرًا بالرصاص.

نهاية استحقها أكثر الرجال جشعًا وطمعًا.

أما نعمة فقد أصبحت الآن صاحبة أكبر توكيل مستحضرات تجميل في الشرق الأوسط، بينما اختفت ماريهان، ويقال أنها غادرت إلى لندن مع والدها لتستقر حياتها هناك.

نهاية استحقها الجميع يا يارا».

كما قلت مسبقًا: «لن تنجو سالمًا من الحياة».

إما أن تتقبل الحقائق وتتقبل الهزيمة، أو ستظل في ساحة

القتال طويلًا، وفي النهاية ستعطيك الحياة ما تريده، ليس ما تريده أنت.

«لن تنجو سالمًا من الحياة» مهما حاولت.

النهاية

الخاتمة

في النهاية هذه ليست أفضل رواية ستقرأها في حياتك ولن تكون، هذه الرواية عبثية من الدرجة الأولى، بدأت بصراع ونشوة المجد وتحقيق كل الانتصارات الممكنة، وانتهت بمواقف مختلفة ما بين الاستسلام، الهروب، الانتحار، والجنون، هذه هي النهاية المنطقية لكل شخصٍ صمم أن يواجة الحياة بعدوانية ونسيَ أن الحياة لن تتركه ينجو بسلامٍ منها.

إنني لا أدعوك للهروب من الدنيا أو الوقوف مكتوف اليدين أمام الحياة، لكنني أدعوك في هذا العمل أن تهدأ قليلًا، تختار المعركة التي تليق بك، لا تستهلك طاقتك في معارك المكسب منها كالهزيمة لا قيمة له. إنني لا أدعوك للخضوع أمام الدنيا، لكنني أدعوك للهدوء أكثر، فلن تفوز بكل المعارك، بل ستختار الدنيا لك ما تفوز به، لن تجمع ما بين الحب والسلطة والاستقرار الوظيفي والهدوء الاجتماعي، حتمًا ستخسر أحدهم وأنت في مشوارك، لذلك كُف عن البكاء حين تخسر أحدهم، كُف عن وصف نفسك بسيئ الحظ أو التعيس وكفاك بكاء على الأطلال، هذه هي الدنيا بكل ما فيها من أحداث وتفاصيل قاسية، ستخسر شئت أم أبيت، لذلك تقبّل الهزيمة حتى يسعدك الانتصار، تقبّل الهزيمة حتى تعرف

قيمة الانتصار، وحين تعرف الفلسفة التي أرادتها الحياة لك لا تتمرد ولا تشتكي، تقبّلها، فالتمرد لن يصيب قلبك إلا بالخراب.

هذه كلماتي لك عسى تنقذك من وهنك وتعاستك، ولتفهم أنك لست وحدك في المعاناة.

كلنا هنا في نفس القاع البائس والواقع المتهالك، كلنا نعيش نفس المأساة.

إلى اللقاء حيث الرواية العاشرة.

إلى اللقاء في ميعادٍ أقل قسوة.. ربما.

وداعًا.

الإهداء

-لبائع الهدايا الذي حذّرني أن الدولار في زيادة مستمرة ومعدتي أولى بالنقود التي أدفعها في هدايا لفتاةٍ نسبة مغادرتها لي مرتبطة بارتفاع سعر الدولار.

-لموظف البنك الذي رفض إعطائي القرض حتى أتزوج وقال: إن هذا ليس سببًا كافيًا لإعطائك القرض، فقد ترحل الفتاة عنك وتستمر الديون عليك.

-لبائع كروت الفكة الذي قال: إن شركات الاتصالات تكسب من وراء العشاق، وإن النقود التي دفعتها كل يومٍ في مكالماتٍ غرامية ستطاردك طوال حياتك إن لم تتزوجها.

-للنادل الذي رفض تقديم «الميلك تشيك» لي قائلًا: إن الرجل العازب لا يشرب إلا القهوة السادة.

-لصديقي الذي حذرني من الكتابة الرومانسية وقال: إن كل هذه الكتابات ستُنسى ما دمت لم توفر لها الأكل والشرب.

-ولعقلي العنيد الذي لم يصدق كل هؤلاء، وصدق محمود درويش حين قال: «كنتُ سأشتري لك البنفسج هذا الصّباح، لكنّ الرّفاق كانوا جياع فاشتريتُ لهم خبزًا وكتبت لكِ قصِيدة حب».

إهداء لكل هؤلاء الذين حذروني لكنني لم أسمع لهم: ها أنا أهدي لكم هذه الرواية، وأعتذر لكم عن جهلي وحماقاتي؛ لم يكن الخطأ خطئي، بل كان خطأ محمود درويش.